

العقل المسلم

في مرحلة الصراع الفكري

الدكتور عبد الحليم عويس



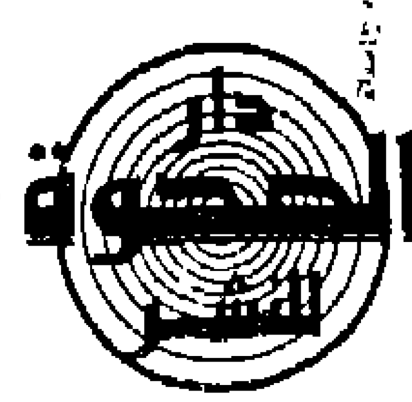
دار الوفاء

العقل المسلم

في مرحلة الصراع الفكري

الطبعة الثانية (معدلة)

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م



دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

مدينة الهدى - حدائق حلوان - القاهرة

ت: ٣٦٩٠٠٧١



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠

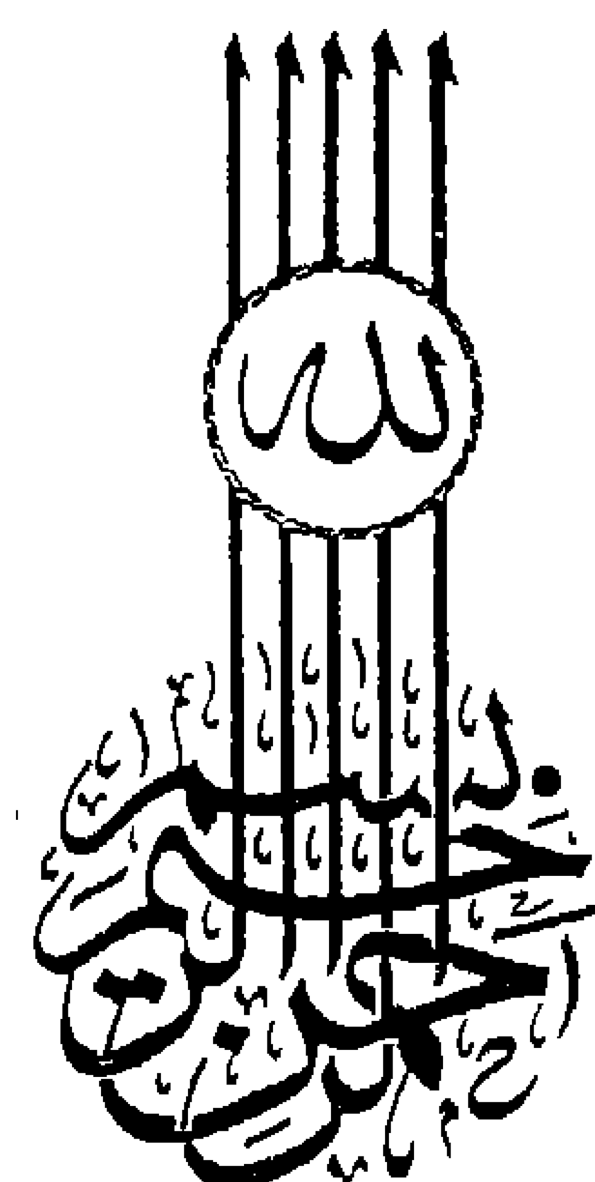
ت : ٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

الدكتور عبد الحليم عويس

العقل المسلم

في مرحلة الصراع الفكري


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يــدي الكــتاب

هذه «متابعة نقدية» لبعض ما قدمه (العقل المسلم) في العصر الحديث، وهو يصارع عديداً من التيارات والمفاهيم الزاحفة.

وهي متابعة حاولت أن تمدّ الطرف إلى أكثر من بقعة من بقاع العالم الإسلامي... من الجزيرة العربية يوم صارعت الوثنية ... إلى أن دخلت عصر تحديات «البترول» بكل سلبياته وإيجابياته ... ومن مصر ... البلد الذي يتعرض لغزوٍ مستمر لفصله عن الجسم الإسلامي والعربي... إلى الجزائر ... والمغرب... ولبنان ... والعراق... والهند ... وغيرها.

إن الفكر الإسلامي - في كل هذه الأماكن - شمسٌ واحدة تشرق على الجميع، وتتفاعل مع الجميع، ويتفاعل معها الجميع، انطلاقًا من الأصلين الإسلاميين الثابتين : القرآن والسنَّة.

وقد رصد هذا البحث بعض المعالم البارزة في هذا الفكر... إنها المعالم المتحركة ذات الموقف الإيجابي، وليست الأفكار الساكنة أو التقليدية التي تقذف بها المطابع، فكأنها تقذف بعِهن منفوش، لا يحدث أي أثر فى تيار الحياة الدافق.

ومن خلال هـذا الرصد الجزئي الذي تقدمه هذه الدراسة يستطيع القارئ أن يستنبط المؤشرات الأساسية، والدلالات البارزة ، في مسيرة العقل المسلم خلال مرحلة الصراع الفكري!!

نعم ... قد يعتب بعض القراء على صاحب هذا البحث أنه أغفل شخصيات كبرى، ذات أبعاد فكرية ظهرت في هذه الفترة، وعلى رأس هذه الشخصيات: العلامة الشاعر محمد إقبال، المفكر أبو الأعلى المودودي، الأستاذ مالك بن نبي، الأديب مصطفى صادق الرافعي ، الطاهر بن عاشور، الشيخ محمد الغزالي ، الفقيه المجتهد محمد أبو زهرة، الشهيد سيد قطب، وغيرهم كثيرون.

لكن هذا القارئ «العاتب» - عفا الله عنّا وعنه - لا يجوز له أن يتوقع أن تُرصد حركة «العقل المسلم» خلال العصر الحديث في كتاب واحد، فذلك عمل عسير.

وبالإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء الأعلام قد حظي أكثرهم بدراسات جيدة، بل إن بعضهم كتبت فيه «أطروحات» علمية!!

وهناك تلامذة كثيرون منتشرون لهؤلاء الأقطاب ، يشكلون مدارس فكرية ثابتة الخطوات بارزة المعالم، تمثل ـ في مجموعها ـ العناصر الإيجابية، والمظاهر الفعّالة في مسيرة (العقل المسلم) خلال الفترة الأخيرة.

وقبل هذا الجيل الأكثر فعالية ظهرت أجيال أخرى خلال العصر الحديث لم نقف عند كثير من أعلامها ـ أيضًا ـ لأننا رأينا طابع (السكوت) و (التقليدية) يكاد يكون الطابع المسيطر على حركتها ، باستثناء ومضات قليلة تجلّت كما تتجلى بعض النجوم في الليل المظلم.

وقد أفرد العلامة «أحمد تيمور باشا» مؤلفه (أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث) (١) للحديث عن هؤلاء الأعلام.

ومنهم في مصر :

حسن العطار (١٢٥٠هـ)، ومحمد الأشموني (١٣٢١هـ)، ومحمد أبو الفتح (١٢٩٤هـ)، وإبراهيم مرزوق (١٢٣٨هـ)، ومحمد عياد الطنطاوي (١٢٨٠هـ)، وعلي الليثي (١٣١٣هـ)، ومحمد الطنطاوي (١٣٠٦هـ)، ومحمد العباس المهدي(١٣١٥هـ)، وأحمد أبو الفتوح الدمنهوري(١٣١٠هـ)، وزين المرصفي الشافعي(١٣٠٠هـ)، وحسن عبد الباسط الحوي(١٣٠٠هـ)، ورضوان محمد المخللاتي (١٣١١هـ)، وحسن الطويل (١٣١٥هـ)، ومصطفى السفطي (١٣٢٧هـ)، وأحمد الرفاعي (١٣٢٥هـ)، وعلي البيلاوي (١٣٢٣هـ)، وحسونة النواوي (١٣٤٣هـ)، وعبد الله النديم (١٣١٤هـ)، ومحمد عبده (١٣٢٣هـ) ، وأحمد أبو خطوة (١٣٢٤هـ)، وأحمد مفتاح (١٣٢٦هـ)، ومحمد أكمل (١٣٤٣هـ)، ومحمد الإدريسي (١٣٤٦هـ)، وعبد الحميد ناقع ، وأحمد خيري ، وغيرهم.

ومن أعلام الشام :

محمد صنع الله الخالدي(١٢٠٥هـ)، وكمال الدين الغزي (١٢١٣هـ)، ومحمد العطار (١٢٤٣هـ)، وموسى الخالدي (١٢٤٧هـ)، وعبد الرحمن الكزبري

(١) نشر لجنة المؤلفات التيمورية، طبعة أولى ١٩٦٧م ـ القاهرة الإسلامية حرسها الله.

(١٢٤٦هـ)، وأحمد الحجار الحلبي (١٢٧٠هـ)، ومحمد بدر الدين (١٣٢٤هـ)، وحسن المدور البيروني (١٣٤٢هـ) ، وغيرهم.

ومن أعلام العراق:

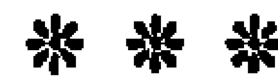
نعمان الألوسي (١٣١٧هـ)، ومحمود شكري الألوسي (١٣٤٢هـ)، والحاج عمر البغدادي (١٢٢٩هـ) ، وعلي السويدي (١٢٣٧هـ) ، وسليمان الموصلي (١٢٣٣هـ)، وعبد العزيز الشواف (١٢٢٩هـ)، وصالح التميمي (١٢٦١هـ) ، وأحمد السويدي (١٢٨٧هـ)، وعبد الفتاح البغدادي (١٢٩٩هـ)، وحيدر سليمان الحلبي (١٣٠٤هـ)، وعبد الرازق الأعظمي (١٣٢٨هـ)، وغيرهم.

ومن أعلام الحجاز:

محمد شهاب الدين المصري(١٢٧٤هـ)، وعلي السقاف (١٣٢٥هـ)، وعثمان الراضي (١٣٣١هـ)، ومحمد العلوي (١٣٤٩هـ)، وعلي حيدر، وغيرهم.

ومن الأفارقة الأعلام :

محمد محمود الشنقيطي (١٣٢٢هـ) ، وأحمد بن الخوجة التونسي (١٣١٠هـ)، ومحمد الخضر حسين (١٣٧٨هـ).



فمنهجنا الذي اعتمدناه في هذا البحث، يقوم على الانتقاء من جانب، وعلى عدم التركيز الشديد على المشهورين، أو التقليديين من جانب ثان، وعلى رصد أبرز التحديات الفكرية، وموقف العقل المسلم منها من جانب ثالث.

ومن هنا، ولأننا في مجال العقل ، والصراع الفكري، فقد بدأنا بالحديث عن «المستشرقين» ، باعتبارهم أبرز تحدٍّ «فكري» حاول تعكير نهر فكرنا الإسلامي بسمومه وافتراءاته، ثم تدرجنا إلى الحديث عن التحديات الفكرية العلمانية والمادية، والزحف على تاريخنا، وحضارتنا، ثم رصدنا بعض مناهج التجديد في حركة العقل المسلم، وفي كل ذلك ذكرنا الإيجابيات والسلبيات، وألمحنا إلى معالم الطريق الصحيح الذي يجب أن يلتزم به العقل المسلم، وهو يحاول بناء قواعد فكرية إسلامية رشيدة، تصلح للهجوم والدفاع معًا.

وأخيرًا، فإن طريق العقل المسلم طريق طويل، وإن على هذا العقل أن يتخلى عن سكونه وتقليديته، وأن يرتبط ـ في الوقت نفسه ـ بأصوله الفكرية ، وبمنهجه

الإسلامي، وأن يؤمن بالأساسيات التي لا مجال للتقدم بدونها، وهي:

١ - استيعاب سنة الله في الكون والنفس والمجتمع.

٢ - الالتحام بهذه السنن والانسجام معها.

٣ - طرح الركود عند الجزئيات، على حساب الإطار الكلي.

٤ - ألا يجعل أصول الإسلام فروعًا، وفروعه أصولاً، وألا ينسى توازنيّة وشمولية الإسلام، ونظام «النسب المتوازنة» التي يقوم عليها بناء الإسلام.

٥ - عدم اللجوء إلى الإرهاب في الحوار مع الآخرين، وعدم الزعم بأن ما يراه هو ـ بالضرورة ـ الرؤية الوحيدة في الإسلام، فإن هذا قيد على عقول الآخرين المسلمين الملتزمين !!!

٦ - ضرورة تخطي التقليدية، والوصول إلى مرحلة الاختراع والابتكار وتقديم (النظريات الكاملة) في الاقتصاد والاجتماع وتفسير التاريخ، وغيرها من المجالات التي أهملها العقل الإسلامي، أو عجز عنها بفعل جزئيته الشديدة التي تنهك قواه.

هذا ، والله المسئول أن يصلح أحوال المسلمين، وأن يعيد «العقل المسلم» إلى وعيه بأهمية دوره في صناعة الحضارة ، وفي صياغة الحياة وفق المنهج الإسلامي . . . آمين.

دكتور عبد الحليم عويس

الفكر الإسلامى

ومواجهة التحدي الاستشراقي

الاستشراق في غزوة جديدة

في عدد من أعداد إحدى المجلات العربية الواسعة الانتشار[1] ـ نشر مقال عنوانه: نهاية الاستشراق.

وقبل ذلك، وفي عام ١٩٧٨م صدر في لندن كتاب عنوانه: الماركسية ونهاية الاستشراق ، لمؤلفه «بريان ترنر».

فهل ـ حقا ـ أننا نعيش على مشارف القرن الخامس عشر للهجرة نهاية الاستشراق؟ وما الأسباب ـ يا ترى ـ التي تجعل هذه الغارة الفكرية تصل إلى نقطة النهاية؟

ـ إنني هنا ـ وأنا بصدد الإجابة عن هذا السؤال ـ مضطر لأن أعتمد على ذلك المنهج التحليلي الذي علمنا إيّاه مفكرنا الكبير «مالك بن نبي»، وهو يناقش قضايا «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة»[2]. وبالتالي ، فأنا أنظر إلى هذه «النغمة المتفائلة» على أنها ـ نفسها ـ أسلوب من أساليب الصراع الفكري!!

وفي يقيني أن الاستشراق ربما يكون وراء هذه «النغمة» ، وأنه يهدف منها إلى تحقيق هدفين أساسيين في وقت واحد:

ـ أن يعمل عملية تخدير جديدة للوعي الإسلامي، بعد أن وضع العقل المسلم الاستشراق في مكانه الطبيعي كموظف أجير لدى الاستعمار.

ـ وأن تباح له ـ في الوقت نفسه ـ فرصة القيام بغارة جديدة، يلبس فيها ثوبًا جديدًا في عصر أصبح فيه الكذب العلمي الصريح لا يلقى رواجًا. فالعالم الإسلامي ـ فيما يبدو ـ في طريقه لكي يقدم الإسلام الصحيح إلى العقل الأوربي، مما جعل مهمة الاستشراق صعبة وعسيرة، وأوجب البحث عن منهج جديد.

إن الاستشراق لن ينتهي إلا إذا انتهى الاستعمار؛ لأنهما شقيقان ولدا معًا، وتعتمد حياة كل منهما على الآخر اعتمادًا كليا، وليس هناك أي دليل صحيح على أن الاستعمار يوشك أن ينتهي؛ لأن القوة البديلة للاستعمار لم تقم بعد، بحيث يتحول الاستعمار من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع.

---

(١) مجلة العربي الكويتية، عدد جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ ـ مايو ١٩٨٠م، والمقال إعداد (روزماري صايغ) .

(٢) عنوان كتاب للأستاذ المرحوم « مالك بن نبي».

أجل . . . إن الاستعمار لا يزال في موقع الهجوم، وإن تغيير هويته العسكرية المباشرة، تجعل اعتماده على الاستعمار الفكري ــ وبالتالي على الاستشراق ــ تزداد كثافة وإلحاحًا. . . وبالتالي ، فلا معنى للقول بنهاية الاستشراق،بل إننا نعتقد أن الاستشراق في طريقه لجولة جديدة ذات طبيعة جديدة، وأسلحة جديدة ملائمة لوضعية العالم الإسلامي في القرن الخامس عشر، ولطبيعة الظروف المعاصرة.

* * *

ونحن نسجل ابتداءً وعينا الكامل، بل إيماننا بذلك المنهج الرشيد الذي أكده العلامة «مالك بن نبي» في دراساته الحضارية. . . إنه المنهج الذي يجعل الخطَّ الأول للدفاع الحضاري، هو الكيان الذاتي للحضارة، فالمدى الذي يمثله بناء هذا الكيان من القوة والانسجام هو ـ بالدرجة الأولى ـ المعيار لمدى صموده، ولمدى قدرته على التحدي والاستجابة للتحديات الخارجية.

لكننا في الحقيقة نرى ـ إلى جانب هذا ـ أن للاستشراق ، وإن كان خطرًا خارجيًا ، طبيعة خاصة في تدمير بنائنا الذاتي؛ ذلك لأن الاستشراق غزو إلى الداخل، أي إلى مكونات عقل المسلم. إنه ليس حربًا بين طرفين واضحين (داخليّ وخارجيّ) بل هو حرب بين منظور ولا منظور في أكثر الأحايين.

إن الأقنعة العلمية والمنهجية والجهود المكثفة المتعاونة التي أنتجت لنا ـ في قمة ما أنتجت ـ دائرة المعارف الإسلامية (Encyclopedia of Islam) قد نجحت في تغطية عملها تغطية جيدة، لدرجة أن أجيالاً من المثقفين المسلمين لا تجد وجودها الثقافي، إلا في الانتماء للمدارس الاستشراقية المختلفة، وهي غير مستعدة لأن تصدق بأن هذا الجهد الضخم الذي بذله (ونسنك وعدد من المستشرقين) في: (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث) ليس عملاً خالصًا لخدمة الحديث، وأنه ليس إلا أسلوبًا من أساليب خدمة أهداف الاستشراق بطريقة أو بأخرى، ولا يمكن أن يكون ـ ابتداء ـ لخدمة الحضارة الإسلامية وقضية المسلمين في الأرض.

مفهوم الاستشراق :

الاستشراق ـ كما يعرفه بعضهم ـ [1]: « موقف عقلي كامن في طبيعة الغرب»، وهو ـ بالتالي ـ تركيب بنائي في عقلية الغرب من حيث السيادة والتحكم، وهو أسلوب منهجي لإشباع النفوس بما يفترضون مسبقًا ـ بالتصور ـ أن الشرق، لكي يصبح هذا

---

(١) انظر العربي، العدد السابق، وانظر الفيصل ، عدد جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ.

الشرق شرقيا بالمعنى الذي يريدونه هم، فيستسلم لمطالبهم، وليس شرقًا بالمعنى الحقيقي الصحيح، كما هو واقعه!!

إنه تصور يضعون فيه، عامدين ، كل ما لديهم من مخلفات لا تمت إلى أوربا بصلة، كما لو كان صندوقًا للقمامة، فكل ما ليس (نحن) أي غربي، فهو (هو) أي شرقي !! وتحت (نحن) تندرج كل الفضائل، وتحت (هو) تندرج كل الرذائل. ويسمى مستشرقًا كل من يتعلم أو يعلم المعارف المتصلة بأحد أوجه الحضارات الشرقية، أو من يؤلف في موضوعات شرقية، أو من يترجم أعمالاً شرقية(1).

تَاريـخ الاستِشرَاق:

تختلف الآراء حول بداية الاستشراق، فبينما يرى بعضهم أنه أصبح تخصصًا رسميا في العالم المسيحي، بناءً على قرار مجلس فيينا الكنسي الصادر سنة ١٣١٢هـ، الذي ينص على إقامة عدة مناصب جامعية للأستاذية في اللغات العربية واليونانية والعبرية والسريانية بكل من جامعات باريس وأكسفورد وأفينيون،وسلامنكا وبولينيا (2). بينما يذهب بعضهم إلى أنه نشأ في الفترة نفسها التي ولد فيها التبشير، أي مع بداية القرن السادس عشر الميلادي، وهو عصر بداية الهجوم على العالم الإسلامي، فكان أول عالم أوربي برز في العمل الاستشراقي هو المستشرق (وليم باستيل) (١٥١٠-١٥٨١م) الذي كان مخلصًا للكنيسة كل الإخلاص!

ولا خلاف ـ في رأينا ـ بين التحديدين ، فالأول: هو البداية الرسمية، والثاني: هو البداية العملية والحقيقية. وقد تتابع المستشرقون بعد (باستيل)، فظهر تلميذه (سكاليجر، وداوتي، و دي ساس، و دير بيلوا، و فولتير، و دي جوبينو، وهمبولت، وبالمر، واستينتال، وجيب ، وماسينيون، وبلاشير، و ييلا، و لاودست، وجاك بيرك، ونيكلوسون، ولامانس ، ونولدكه، وأنطوان جالان، وأربري، ومارجليوث، ورينان، وكارادوفو، ولوبون) وغيرهم.

على أن أخطرهم(3):

١ - (أربري) الإنجليزي.

٢ - ألفريد جيوم الإنجليزي.

---

(1) المكان السابق.

(2) د. عبد الفتاح الديري : الاستشراق ، الفيصل، عدد جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ.

(3) انظر: د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص ٣ وما بعدها.

٣ - يارون ـ كارادوفو الفرنسي.

٤ - جولد تسيهر المجري.

٥ - جون مانبارد الأمريكي.

٦ - زدعير الأمريكي.

٧ - عزيز عطية سوريال المصري المسيحي.

٨ - فون جرونياوم الألماني .

٩ - فيليب حتى اللبناني المسيحي.

١٠ - كينت كراج الأمريكي.

١١ - لوي ماسينيون الفرنسي المعاصر.

١٢ - ماكدونالد الأمريكي.

١٣ - مجيد قدوري المسيحي العراقي.

١٤ - مارجليوث الإنجليزي.

١٥ - نيكلسون الإنجليزي.

١٦ - هارفلي هول الأمريكي.

١٧ - هنري لامانس الفرنسي.

١٨ - يوسف شاخت الألماني.

١٩ - دومينيك سورديل الفرنسي.

٢٠ - وهانوتو ودنلوب، وكرومر، ونظائرهم من المدرسة السياسية الاستشراقية الاستعمارية.

مجَالات الاستِشراَق ووَسَائلـه:

تتعدد ميادين الاستشراق الفكرية، كما تتعدد الوسائل التي يعتمد عليها في الوصول إلى أغراضه.

وأبرز ميدان يحتلونه ، هو ميدان الدراسات الأكاديمية ، وهو الميدان الذي يستطيعون منه توجيه الباحثين، وإخضاعهم للمنهج الاستشراقي ، سواء كانوا أوروبيين أم من طالبي الشهادات العليا من المسلمين والعرب!!

وفي هذا المجال استطاع المستشرقون بدءًا من القرن التاسع عشر وضع الفكر الإسلامي تحت المجهر؛ لقولبته من جديد ؛ وتكييفه وفقًا للأهداف الاستشراقية المسبقة.

- وإلى جانب هذا الميدان الأساسي امتد نشاط المستشرقين إلى مجال المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية ، سواء في داخل أوروبا، أو في داخل العالم الإسلامي نفسه !!

ومن الميادين التي اعتمدوا عليها: تأليف الكتب، وإصدار الموسوعات العلمية.

وقد اعتمدوا على إصدار المجلات العلمية اعتمادًا كبيرًا، ومن أبرز المجلات التي أصدروها :(المجلة الآسيوية)،و (مجلة جمعية الدراسات الشرقية)، ومجلة (شئون الشرق الأوسط) ، ومجلة (العالم الإسلامي) الأمريكية، التي تعتبر - في الوقت الحاضر - من أخطر المجلات، وهي تعتمد الطابع التبشيري السافر، ومثلها المجلة الفرنسية المسماة بنفس الاسم [١].

المنهَج الاستشرَاقي وَالأكاذيب المتعَمّدَة :

من أبرز معالم المنهج الاستشراقي الاتفاق المسبق والتعاون الجماعي على ترويج الأكاذيب عن الإسلام، وإضفاء الصفة العلمية على هذه الأكاذيب، واستعمالها بطريقة تلقائية شبه عفوية، بحيث تبدو وكأنها حقائق بديهية، وحتى ينشغل المسلمون بها، وبموقف الدفاع، انشغالاً دائمًا يمنعهم من اتخاذ موقف البناء، وعن الهجوم على النصرانية واليهودية.

وقد روّج المستشرقون لعشرات الأكاذيب ، التي نجحوا في جعل المسلمين ينشغلون بالدفاع عنها، وقضاء أعمارهم في تفنيدها.

ومن هذه الأكاذيب: تشويه مكانة المرأة في الإسلام [٢]، وحقيقة تعدد الزوجات في حياة النبي وفي الإسلام، والجهاد ، وقضية انتشار الإسلام وزعمهم أنها قامت على العنف والسيف، وقولهم بأن الإسلام دين لا دولة، وبأن الإسلام كدين يتعدد بتعدد شعوبه، وأنه يتجدد وكأن هناك إسلامًا لكل عصر، وقولهم: إن الإسلام دين فردي شخصي، وكلامهم في عدم زواج المسلمة بالمسيحي، وحتى عقيدة (التوحيد) التي هي العقيدة الوحيدة الصافية في العالم زعم « رينان » أنها تجلب الحيرة للمسلم، ونحن لا ندري أية حيرة يقصدها ! كما لا ندري كيف يجرؤ على ذلك - وهو مسيحي - يعرف

---

(١) د. مصطفى السباعي : المرجع السابق ص٢٨، ٢٩.

(٢) انظر :د. محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٥٨، ط ٨.

مدى نقاء ووضوح حقيقة التوحيد في الإسلام من شهادات كثير من المستشرقين أنفسهم، ومن مجرد مقارنتها ـ مقارنة عابرة ـ بعقيدة الأقانيم الثلاثة (الأب والابن والروح القدس) في المسيحية !!

وعلى كل حال، فليس هناك قانون يحكم الأكاذيب لمن أعطى نفسه حق الاعتداء على الحقيقة ، وهو مبدأ عام قام عليه الاستشراق في العصر الحديث!!!

دَوَافِع الاستِشراَق وأهدَافُه:

إننا نصل إلى أهم نقطة في الموضوع، وهي دوافع الاستشراق وأهدافه التي نشأ من أجلها، وبذل في سبيل غاياتها كل هذه الجهود الكبيرة التي بذلها. إنه من السذاجة القول: إن أهداف الاستشراق خدمة العلم الشرقي، إلا إذا جاز لنا القول: إن أهداف الاستعمار هي تحقيق العمار ـ وليس الدمار ـ للشعوب المستعمرة !! ففي كلا القولين كذب صراح.

بل إن أي مستشرق ـ مهما حاول أن يكون عالمًا ـ لا يستطيع أن يتناول أحد موضوعاته، بدون أن يضع في اعتباره الحدود الفكرية والعملية المفروضة عليه، فليس في الاستشراق موضوعات حرة من حيث الفكر أو العمل، كما أن المستشرق مسئول عن تدريب الشبان الجدد بأسلوب يبعث في قلوبهم الإحساس بالامتياز والألوهية المطلقة لكل ما هو غربي، وبالتالي الإحساس بالازدراء لكل ما هو شرقي [(١)].

ومع بداية القرن الخامس عشر ـ كما هو معروف ـ أخذت التجارة الأوربية شكل سيطرة وتحد للعالم الإسلامي، وبعيد قليل من هذا التاريخ لم يعد الاستشراق ـ الذي صاحب الظاهرة الاستعمارية ـ قادرًا على الاحتفاظ بغموض دوره، فبدأ يظهر تورطه مع العمل الاستعماري في أكثر من مجال: فهو الذي مهد للسيطرة الاستعمارية، ونَظَّم المعلومات التي عاد بها المكتشفون، ووفر الخطوط الأساسية لتمكين الغزاة والفاتحين، وقدم للشعوب المقهورة «نظريات» تبرير خضوعهم لأوربا وقبولهم «التغريب»، وإقناعهم بعدم قدرتهم على استيعاب العلوم، وأهمية المحاكاة والتقليد لهم، ورميهم ـ إذا لم يقبلوا كل وصاياه تلك ـ بالتعصب للإسلام. ثم نشر الأفكار القومية والوطنية والعدائية للإسلام بينهم، وحتى الأفكار التقدمية!!

ويرى أحد الدارسين المعاصرين أن أهداف الاستشراق تتلخص فيما يلي:

١ - تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية، عن طريقين:

(١) مجلة العربي ، عدد جمادى الآخرة ١٤٠٠ هـ ـ مايو ١٩٨٠ .

أ - إضعاف القيم الإسلامية وتأثيرها.

ب ـ تمجيد القيم الغربية المسيحية.

٢ - توهين الروح الإسلامية في بلاد المسلمين[١].

لكن الدافع الديني الصليبي لا يحتاج إلى جهد لإثباته في عمل المستشرقين؛ لأن أكثر هؤلاء المستشرقين من الرهبان والعاملين في حقل التبشير، وقد ظن بعض هؤلاء أن بإمكانهم تحويل المسلمين إلى النصرانية، ظانين أن البناء الثقافي للإسلام بناء ضعيف. وهم، وإن فشلوا فشلاً ذريعًا في هذا، بل إن بعض المستشرقين قد أسلم، وعلى رأسهم رينيه جينون، و جورج أوجيست فالين، فضلاً عن اللاهوتي المصري الكبير «إبراهيم خليل أحمد» . . الذي ذهب يبحث في أطروحة للدكتوراه عن تناقضات القرآن، فغلبه القرآن وأعلن إسلامه قائلا: إن القرآن غلبني !!

أقول : إن المستشرقين ، وإن فشلوا في تحقيق هذا الغرض، فإنهم قد نجحوا في تعكير صفاء الفكر الإسلامي الحديث بما نشروه من افتراءات فاضحة، وما شغلوا المسلمين به من شبهات لا تصمد أمام البحث العلمي النزيه، مستغلين ظروف تخلف المسلمين الفكري، وانبهار بعضهم ببعض منجزات الحضارة الأوربية.

***

لكن هناك في الحقيقة ـ بعد كل هذه الغايات ـ غاية أخرى كبيرة لم يلتفت كثير من المسلمين إليها.

فإن البناء الفكري الكنسي ، كما هو معلوم، بناء (غير عقلي) ، يعتمد على مجرد التسليم والإيمان، ولا يستطيع أن يثبت حتى أوليات العقيدة النصرانية بالمنطق العقلي. وحسبنا أن نعلم أن دانتي في الكوميديا الإلهية قد وضع محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أدنى مقاعد الجحيم، وأن المستشرق الفرنسي «دير بيلو» وصف الرسول بأنه «دجال»، بينما وصفه « لامانس » بأنه لص نياق، بينما جعلته إحدى اللوحات الأوربية أحد ثلاثة أساءوا إلى البشرية إساءات بالغة، وثانيهم ابن رشد ، وثالثهم الشيطان!!

كان هذا كله بتأثير التضليل الكنسي الذي ينبعث من الرعب والخوف من الإسلام، ومن يوم يخضع فيه الإسلام والنصرانية للمقياس العلمي وللنقد التاريخي على سواء.

ولعله لهذا السبب كانت الكنيسة تحرم كتب ابن رشد من جانب، وتثني على

(١) د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٤٨، ط ٨.

توماس الأكويني، وهو ناقل عن ابن رشد مع تحوير لمصلحة المسيحية، من جانب آخر.

بل إن الكنيسة قد حرمت تراث ابن حزم الأندلسي وتواطأت عليه تمامًا، باعتباره أحد الرواد الذين قارنوا بين الأديان بمنهج عقلي منطقي في موسوعته المعروفة «الفصل في الملل والأهواء والنحل».

إن ابن حزم يناقش الأناجيل والعقائد المسيحية بطريقة علمية وعقلية بحتة، لا مجال فيها للتجني ولا الحماسة.

فمن ناحية الكتب المقدسة يقول ابن حزم: إن النصارى لا يدَّعون أن الأناجيل منزلة من عند الله على المسيح، ولا أن المسيح أتاهم بها، بل كلهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفين في أزمان مختلفة. . . أولها: تاريخ ألَّفه «متى اللاواني» بالعبرانية بعد تسع سنين من رفع المسيح، في نحو ثمان وعشرين ورقة بخط متوسط [1]. والآخر: تاريخ ألَّفه «مارقش الهاروني» بعد اثنين وعشرين عامًا من رفع المسيح عليه السلام، وكتبه باليونانية في أنطاكية. والثالث: تاريخ ألَّفه «لوقا الطبيب» تلميذ شمعون «باطرة»، كتبه باليونانية بعد تأليف مرقص المذكور في حجم إنجيل متى. والرابع تاريخ ألَّفه باليونانية (يوحنا بن سيذاي) بعد رفع المسيح ببضع وستين سنة في أربع وعشرين ورقة[2]. ثم ليس للنصارى كتاب يعظمونه سوى «الأفركسيس» الذي ألَّفه لوقا، وكتاب «الوحي والإعلان» ليوحنا، و«الرسائل القانونية»، ورسالتين لباطرة شمعون، ورسالة ليعقوب بن يوسف النجار، وأخرى لأخيه يهوذا، ورسائل لويس تلميذ شمعون[3].

وكل كتاب لهم بعد ذلك فهو من تأليف المتأخرين من أساقفتهم وبطاركتهم[4].

ومن ناحية عقيدة النصارى حول المسيح يناقشها ابن حزم مناقشة طريفة فيقول:

«وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام أنه مرة بنص أناجيلهم ابن الله، ومرة هو ابن يوسف، وابن داود، وابن الإنسان، ومرة هو إله يخلق ويرزق، ومرة هو خروف الله، ومرة هو «في الله» والله فيه، ومرة هو في تلاميذه وتلاميذه فيه، ومرة هو علم الله وقدرته، ومرة لا يحكم على أحد ولا ينفذ إرادته، ومرة هو نبيّ وغلام الله ، ومرة أسلمه الله إلى أعدائه، ومرة قد انعزل الله له عن الملك، وتولاه هو، وصار يولي

---

(١) انظر : الفصل لابن حزم ٢/٢.

(٢) انظر: الفصل ٢/٢، ٣ وانظر في ذلك: د. أحمد شلبي: المسيحية ص١٠٣ ،وما بعدها، وص ١٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر : الفصل ٢ / ٣.

(٤) انظر : المكان السابق ، وص ٦٩ وما بعدها.

أصحابه خطة التحريم والتحليل في السموات والأرض، ومرة يجوع ويطلب ما يأكل، ويعرق من الخوف، ويفشل فيركب حماره ويؤخذ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالقصة ويمسكه الشرط، ويصلب بين ساريتين، ومات ودفن ثم قام بعد الموت، فلم يكن له من همٍّ بعد أن قام إلا أن طلب ما يأكل ثم انطلق إلى شغله(١).

* * *

فكيف كانت الكنيسة ستسمح لهذا الفكر بأن يعبر إلى النصارى الخارجين من ظلام العصور الوسطى دون أن تضع أمامه أكوامًا من الأكاذيب تحول بينه وبين أن يناقش مناقشة عقلية سليمة.

وما تخوفت منه الكنيسة، ودفعت ضده بالأكاذيب الاستشراقية الهائلة، قد وقع مع ذلك، بحيث أصبح موقف الكنيسة من الإسلام موقفًا مفضوحًا، فحاولت تغطية موقفها بما أسمته (الحوار المسيحي الإسلامي)، متظاهرة أنها تريد أن تفهم الإسلام لتعدل موقفها منه، بينما هي في الحقيقة خبيرة كل الخبرة بحقائق الإسلام، وتشويهها للإسلام تشويه متعمد، يخضع لخطة الوقاية من الإسلام ذلك البناء العقلي والفكري والروحي المتكامل المنسجم.

أجل . . . إن ما تخوفت منه الكنيسة ، وما رصدت له جيوش الاستشراق، قد وقع، فظهرت مع ذلك أقوال «برنارد شو» المعروفة التي يبدو فيها وكأنه مندهش، ويقول: «إن كان هذا هو الإسلام فإن أوربا ستصبح مسلمة بالضرورة»، و «إن محمداً يستطيع أن يحل مشاكل العالم وهو يحتسي كوبًا من القهوة». كما ظهر ـ كذلك ـ «مايكل هارت» الذي كان كتابه من أروج الكتب في أوربا سنة ١٩٧٨م، وهو الكتاب الموسوم باسم: «العظماء في التاريخ مائة» أولهم محمد ﷺ، بينما كان ترتيب المسيح عليه السلام الثالث، وترتيب موسى الخامس عشر، فهكذا . وعلى رغم «دانتي» أصبح محمد الذي كان في أعماق الجحيم، أول العظماء في التاريخ كله، باعتراف المسيحي «مايكل هارت». وقد اختفت من كتابات المستشرقين المتأخرين النعوت الحادة للإسلام ولمحمد، ليس خضوعًا للمنهج العلمي، بل لأن هذه النعوت من شأنها أن تسقط الكتاب وأن تكشف هويته.

وما حدث لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ حدث للقرآن الكريم: فظهر «موريس بكاي» يثبت أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد، الذي يصمد نصه أمام النقد

---

(١) الفصل : ٢ / ٦٩ ، وانظر : د. شلبي: المسيحية ص ١٤٨.

التاريخي، وأنه الكتاب السماوي الوحيد الذي لم يصطدم بالحقائق العلمية.

ومع تقدم العلم والمعرفة في الميدان الإنساني، وإزالة حمى المشاعر الصليبية التي تؤججها الكنيسة نحو الإسلام، سوف يتداعى جدار الأكاذيب والتشويهات الذي بنته الكنيسة، وسوف تعلن ـ في هذا الوقت ـ نهاية الاستشراق ، وسوف يأتي هواة الدراسات الشرقية الإسلامية، ليأخذوا الإسلام من مصادره الأساسية، ويتجنبوا الاعتماد على بعضهم البعض، وكأن ما لفقه السابقون من المستشرقين أصبح حقيقة يجب أن يأخذه اللاحقون من المستشرقين، فيتجاهل الجميع المصادر الأولية؛ لأنهم لا يريدون معرفة الإسلام كما هو، بل كما تريده الكنيسة. أو كما يقول الدكتور «إدوارد سعيد» في كتابه الرائع عن الاستشراق: «إن الميل الثابت إلى تجاهل ما معنى القرآن؟ أو ماذا يظن المسلمون أنه يعني؟ أو كيف يفكر المسلمون أو يتصرفون في مواقف معينة؟ يدل على أن تعاليم القرآن والإسلام قد عرضت بصورة ترضي المسيحيين ».

أي أن هناك تخطيطًا استشراقيا مستمرا يهدف إلى صياغة إسلام جديد، (إسلام مسيحي) يفتقد ركائزه الثابتة، ويضمن الحفاظ على ضياع المسلمين وتخلفهم الحضاري.

وهذا هو الهدف الاستشراقي الثابت، وهو ما يجب أن تقف الدعوة الإسلامية ـ على مشارف القرن الخامس عشر ـ ضده بكل ثبات وصمود ، لكي تحافظ على (الإسلام القرآني) الذي أنزله الله، ولكي تعيد إلى معالمه الثابتة الواضحة القافلة البشرية التائهة، ممن تسموا باسم الإسلام، وهم أجهل الناس بحقيقته أو ممن ينتمون إلى أديان ومذاهب أخرى.

* * *

ونقدم ـ في الصفحات التالية نماذج تطبيقية تؤكد ـ بالدليل القاطع ـ تلك الوظيفة التي ذكرناها للاستشراق ، وتلك الأكاذيب والتلفيقات التي يتجلى فيها التعمد والتتابع والجرأة الغريبة على الحقيقة ، وغيرها، من خصائص المنهج الاستشراقي الاستعماري!!

* * *

عندما أنهيت قراءتي الفاحصة العميقة لكتاب : «الإسلام» لدومينيك سورديل(١) كانت المشاعر تضطرب اضطرابًا كبيراً. . .

كان مَثَلِي مَثَلَ أستاذ جامعي يمشي في عاصمة أوربية فانهالت عليه ـ دون سابق معرفة ـ إحدى السيدات، بسيل من الكلمات الجارحة المتلاحقة. . . دون أن تترك له أية

---

(١) ترجمة خليل الجرّ ، نشر دار المنشورات العربية ، بيروت .

فرصة للدفاع عن النفس، أو لتوضيح الحقيقة . . .

- حقيقة إنه ليس الشخص الذي تعنيه.

- وإنه، إذا كان هو المعني، فإن كل ما تقوله لا يليق به، وهو منه براء.

- وإنها لا تملك أي دليل واحد على أكاذيبها الملفقة!!

أجل . . . إنه وسط الضجيج والغوغائية، لا يمكن إعمال العقل، أو التوضيح القانوني للحقائق. . . وهذا هو المنهج الذي يلجأ إليه بعض المستشرقين وتلامذتهم عند الحديث عن الإسلام.

إنه منهج الهجوم المصحوب بالضجيج «العلمي» و «التلفيقات» التي تعتمد على «التلاحق» والتتابع. . .لدرجة تجعلك تيأس من «الدفاع». . . أو تجعلك - وتجعل الفكر الإسلامي بالتالي - تنحصر عند موقف «الدفاع»!! وهذا هو الهدف الأساسي من «الغارة الاستشراقية» على العالم الإسلامي.

- وهذا أيضًا هو «المنهج» الذي اعتمده « دومينيك سورديل» في كتابه عن «الإسلام» . . . ولنا أن نستنتج أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا ليس إلا واحدًا من الكتب التي تسعى بوضوح للهدف الاستشراقي الذي ألمحنا إليه.

وماذا نقول في كتاب تبلغ صفحاته أقل من (مائة وخمس عشرة صفحة) من القطع المتوسط، وتكاد الأخطاء العلمية والتاريخية الموجودة فيه تصل إلى أكثر من مائة وخمسين (خطيئة) ؟!!

فلا تكاد تتفلت أية صفحة من خطأ أو خطأين، وهي أخطاء تصل إلى حد إغفال البديهيات التي يدركها عامة المسلمين وسذّجهم ، فضلاً عن علمائهم وعقلائهم. . . إنه الخطأ «العمد مع سبق الإصرار»، وإنه «المنهج» الخارج عن إطار «المنهج العلمي».

إنه المنهج المنحاز الموجَّهُ . . وكفى !!

***

ويقع الكتاب في سبعة فصول؛ يعرض أولها لشخصية النبي محمد، وللقرآن، وضمنًا يتحدث عن بعض أوضاع الجاهلية التي نشأ فيها الإسلام.

ويعرض (الفصل الثاني) للعالم الإسلامي - تاريخيا - عرضًا مقتضبًا مخلا، يبدأ من الخلفاء الراشدين، وينتهي بسقوط العثمانيين، وذلك كله في صفحات لا تزيد على خمس عشرة صفحة.

أما (الفصل الثالث) فقد التزم بنوع من المنهجية الشكلية، وتحدث عن «العقيدة الإسلامية» وما يتصل بها ، و «الشريعة الإسلامية» والحياة الاجتماعية في الإسلام.

وأفرد (الفصل الرابع) للحديث عن الفرق الكلامية الكبرى كالخوارج والشيعة، بينما أفرد (الفصل الخامس) للحديث عن الفلسفة والتصوف.

وتناول (الفصل السادس) «النشاط الفكري والفني» في الدولة الإسلامية، مركزًا على العلوم والفنون والآداب.

أما (الفصل السابع) ـ والأخير ـ فقد أفرده المؤلف لما أسماه: «الإسلام العصري»، وهي تسمية مرفوضة مبدئيا. . . وفي هذا الفصل تحدث المؤلف عن تاريخ العالم الإسلامي في العصر الحديث، والوضع الراهن للعالم الإسلامي، ووضع الإسلام المعاصر ، حسب تعبيره!!

وذلك هو الهيكل العام للكتاب الذي نتتبعه بالعرض والتعليق في هذه الصفحات!!

* * *

الإسلام ـ في فهم المؤلف ـ هو دين التوحيد الذي بشّر به محمد بن عبد الله. . . في الجزيرة العربية. . ومع إحساسنا بضغط التعريف، وعدم الاعتراف الضمني بنبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ، فنحن ـ مع ذلك ـ نعبر هذه النقطة الاصطلاحية، وما تلاها من نقاط تضيف جديدًا حول وضع الجزيرة العربية قبل الإسلام، وانقسامها إلى جنوب زاهر وإلى شمال قَبَلي، عاش في مرحلة ما قبل التحضر، وعلى الرغم من الفوارق بين أهل الشمال والجنوب نجد أن عبادتهم تتسم بعناصر مشتركة، فكانت ثمة آلهة محلية أكثرها ذات صفة كوكبية حالّة في حجارة مقدسة تعرف بالنُّصب.

وهنا ـ عند هذه النقطة ـ نفاجأ بأول خطيئة يرتكبها المؤلف. . . إن عبارته تقول: . . وكان يقوم فوق هذه الآلهة جميعًا الله الذي اعترف به في القرن السابع(!!) رب الهيكل ، وهو «كعبة مكّة» (ص٨) ، ففي القرن السابع ـ هذا ـ (والمؤلف يعني ظهور الإسلام) آمن المسلمون بالله، لا على أساس اعترافهم بالأصنام، وإضافة اعترافهم بالله إليها، بل على أساس الاعتراف والإيمان (بالله وحده) ـ وليس الله في الإسلام ربا للهيكل. . . بل هو رب ما في الكون .

ويقول المؤلف : « إننا لا نعرف الكثير عن شخصية محمد قبل تبشيره

بالإسلام... والقرآن لا يأتينا بأية معلومات... ولا نعرف بالتأكيد إلا تاريخ هجرته من مكّة إلى المدينة » (ص٩).

والحق أن شخصية محمد قبل الإسلام واضحة وضوحًا كاملاً بالقدر الذي يهم الباحث والمؤرخ، إذ ليس من طبيعة عمل التاريخ أن يتتبع الجزئيات الخاصة بالعظماء قبل أن يظهروا على مسرح التاريخ... ونحن إذا قسنا وضوح حياة الرسول في الجاهلية بحياة الأنبياء عيسى أو موسى أو نوح (عليهم السلام) أو غيرهم لتجلى لنا وضوح حياة النبي وضوحًا كاملاً... ومواقفه في الجاهلية معروفة وأخلاقه في الجاهلية معروفة، ومسلمون كثيرون أسلموا اعتمادًا على ثقتهم في أخلاقه في الجاهلية، وزوجه خديجة ﵂ عاشت معه شبابه كله في الجاهلية (خمسًا وعشرين سنة)، وكانت أول من آمن به ... وهذه أكبر شهادة من زوجة لزوجها يأمرها بترك دينها، وهي أعرف الناس به، وتصدقه، وتقف معه، وتصفه بما لم تصف به زوجة زوجها.

ومع ذلك فالمؤلف يقول: إنه لا يعرف عن الرسول شيئًا إلا بدءًا من الهجرة... فحتى السنوات الثلاث عشرة من عمر النبوة في العهد المكّي، يجهلها المؤلف وهي سنوات في غاية الوضوح التاريخي.

فماذا نفعل لمستشرق هذا مستواه من المعلومات ؟!!

ويقول المؤلف (ص١٥): «وفي كانون الثاني من عام ٦٣٠م قرر (محمد) مهاجمة مكّة ناقضًا بذلك المعاهدة فدخلها بدون حرب» ، وهذا كلام لا يقوله مؤرخ يحترم الحقيقة، فإن قريشًا هي التي نقضت المعاهدة، حينما اعتدت وحليفتها بنو بكر على خزاعة حليفة المسلمين[1]... وقد شعرت قريش نفسها بجريمتها، فأرسلت أبا سفيان يحاول الاعتذار، ولكن الرسول رفض الاعتذار الساذج نظرًا للمقتلة العظيمة التي أوقعتها قريش بحلفاء المسلمين!!

ويقول المؤلف (ص٣٢) : «أما الأعمال والعبادات فلا يعلق عليها المسلم إلا أهمية ثانوية»، ففي رأيه أن الإيمان القلبي يكفي، مع أن هذا الإيمان القلبي - في الإسلام - يرتبط ارتباطًا كاملاً بالعمل الصالح، والآيات القرآنية تورد رابطة بين الجانبين: النظري والسلوكي ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [البقرة: ٢٧٧] . والإيمان الذي لا يؤيده العمل إيمان ناقص، والإصرار على عدم العمل إصرار يصل إلى المكابرة والجحود، يؤدي إلى الكفر، وبالتالي فنحن لا ندري من أي مصدر استقى المؤلف معلوماته ؟!

(١) انظر : سيرة ابن هشام ٣/٤ وما بعدها «ذكر الأسباب الموجبة المسير إلى مكة».

ويقول المؤلف في (ص٣٣): « إن العقيدة الإسلامية لم تتخذ صيغة رسمية غير الشهادة، ولذا حاول علماء الكلام جمع عناصرها المبعثرة في القرآن، وأن يعرضوها في مجموعات منها نسبت إلى أبي حنيفة في القرن العاشر».

وفي هذه العبارة أخطاء عدة . . . فالعقيدة الإسلامية واضحة جدًا وقد اتخذت صيغة رسمية وغير رسمية منذ عهد الرسول. . . وماذا فعل الرسول في مكّة خلال ثلاث عشرة سنة إذن؟ هل كان يحارب أو يبني المجتمع أو الاقتصاد؟ كلا . . بل كان عمله الأكبر هو بناء العقيدة التي استغرقت معظم الوحي النازل خلال هذه الأعوام الطويلة. . . ولم يحاول علماء الكلام جمع عناصرها، فعناصرها موجودة ، وإنما دور علماء الكلام دور المدافع عنها، الباحث عن المناهج النقلية أو العقلية للدفاع . . وأبو حنيفة لم يكن عالم كلام. . . كما أنه ـ وهذا خطأ فاحش آخر ودليل جهل فظيع ـ لم يعش في القرن العاشر الميلادي، بل في القرن الثامن الميلادي (ت٧٦٧م) / الثاني الهجري (ت١٥٠هـ)!!

ويقول المؤلف في (ص٣٣) أيضًا: «وقد بلغت أسماء الله الحسنى أربعة وثمانين»، وهذا جهل فاضح أيضًا، فإجماع المسلمين على أن لله تسعة وتسعين اسمًا، ولا ندري من أي مصدر أتى المستشرق ـ الجاهل جدًا ـ بهذا الرقم!!

ويقول في (ص٣٤): «ويرأس إبليس جيشًا من الشياطين هم الجن» . . . وليس هذا صحيحًا في العقيدة الإسلامية، فالجن كالإنس ، جنس قائم بذاته غير الشياطين، فيهم الصالح والطالح!!

ويقول في (ص٣٥) «ولكنّ محمدًا لم ينسب إلى نفسه سوى معجزة واحدة هي القرآن»، وهذا غير صحيح، فهناك معجزات لمحمد غير القرآن، ومنها ما ورد في القرآن نفسه، كالإسراء والمعراج!!

ويقول في (ص٣٦): «ولكنّ المؤمنين وجدوا في القرآن تناقضًا لم يعبأ به الرسول حسب التقليد. . .ومن هنا نشأ التفسير وعلم الكلام»، وهذا قول من أقبح القول ، فلو وجد المؤمنون في القرآن تناقضًا لما آمنوا به. ولو بقوا على إيمانهم لتساءلوا ليتعلموا أو ليزيلوا اللبس. . .وكيف لا يسألون والقرآن يقرع مسامعهم: ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢] فكيف يسكتون على التناقض مع أن القرآن يقول لهم إنه ليس فيه تناقض؟!!

ومن قال للمؤلف : إن هذا التناقض الموهوم سبب نشأة علم الكلام والتفسير؟ ! على كل حال لا نستغرب هذا الجهل الفاضح من مستشرق جاهل، ومن مترجم يدعى

«خليل الجر» ، ومن دار المنشورات العربية التي تساعدها شركات فرنسية. . . أجل، لا نستغرب هذا الجهل إذا قرأنا في (ص٣٧) أن سبب نشأة المعتزلة عند المؤلف و (المترجم) هو (اعتزال) الخصومة السياسية بين علي ومعاوية. . . فهل سمع أحد من المسلمين بهذا الهراء؟.

وأين (اعتزال) واصل بن عطاء إذن؟!

ويقول المؤلف (ص٤٦): «إن الاجتهاد أقفل بابه نهائيًا»، ونحن لا ندري من أخبره بهذا الإغلاق؟ ومن هذا الذي أغلقه؟

ويقول المؤلف في (ص٥١): « إنه يوجد إلى جانب الكعبة عدد من النصب. . . فأي نصب هذه يا ترى ؟ ألم يقض الإسلام عليها»؟

ويقول في الصفحة نفسها: «إن الكعبة حاصرها عبد الله بن الزبير».

فهل هذا صحيح . . . أم أن عبد الله بن الزبير حوصر فيها؟

لكننا لا يجوز أن نستغرب هذا الجهل، فاعتمادًا عليها أطلق المؤلف أحكامه الفاسدة.

ويضيف المؤلف في الصفحة نفسها دليلاً آخر على عمق جهله، فيقول ما نصه : «وكانت العمرة في البدء تتم في شهر رجب المقدس، ومنذ القرن الثاني عشر ــ السادس الهجري ــ أصبحت العمرة ممكنة خلال أشهر السنة كلها ما عدا شهر الحج».

ووالله إننا لنعجب من المستوى المغرق في الجهل من هذا المستشرق وأمثاله. . ونحن لا ندري (وهو لا يذكر) أي شيء عن مصادره. . وهل هي مصادر صعدت من الأرض أم هبطت من المريخ. . أم طبخت في مطابخ التبشير المخالفة لأبسط أخلاقيات العلم والدين؟!!

وهل يحكم مسلم واحد بهذا الزعم الكاذب حول العمرة. . أم أن كل المسلمين - عن بكرة أبيهم وأمهم - يعلمون أن العمرة جائزة منذ أن ظهر الإسلام طول العام عدا أيام الحج. . . بل إن الرسول - ومعظم المسلمين - قد اعتمروا قبل أن يحجوا؟

وفي (ص٥٢) يقول المؤلف :« إن الجهاد لم يتركز مفهومه إلا بعد وفاة النبي».

وكأن النبي والمسلمين معه لم يجاهدوا ولم يخرجوا إلى غزوات أو سرايا طول عشر سنوات!!

ويقول: « إن الجهاد لا يعتبر عادة من الواجبات الأساسية»، وكلامه باطل ، فإن

أكثر الفقهاء على أن الجهاد هو الركن السادس للإسلام، وهو يكون فرض عين وفرض كفاية!!

ويقول المستشرق في (ص٥٣) عن البدع والخرافات الصوفية التي يزعم أصحابها أنهم يأتون بخوارق الطبيعة .. يقول: «إن تكريم هؤلاء أصبح ممارسة قانونية بفضل الإجماع» ولا ندري أي إجماع هذا؟ هل إجماع الجهلاء أم العلماء؟!!

ويقول عن الزواج (ص٥٦): «ثم تقام طقوس حول إتمام الزواج، الغاية منها طرد الأرواح الشريرة التي تهدد الزوجين».

ولا أظن أن مسلمًا واحدًا يضع هذه الأرواح الشريرة، التي كانت تروجها كنيسة العصور الوسطى في اعتباره ... لا في زواج ولا في غيره!!

وإنما هذه الشعائر تقام للإعلام بالزواج وتوفير شرط العلنية فيه، ولإدخال السرور والبهجة على العروسين في هذه المناسبة السعيدة!!

* * *

وإني لأستأذن القارئ لكي أنتقل نقلة واسعة.. من هذا الركام الاستشراقي المليء بالعفن ... وفي أن أكتفي بنقل فقرة كاملة من كلام المؤلف أرى فيها ـ من وجهة نظري ـ الكفاية في الدلالة على المستوى العميق في الهبوط للمؤلف والمترجم الذي تحمل وزر موافقة المؤلف ـ بصمته ـ على كل هذا الزيف الدنس.

يقول المستشرق في (ص٥٧) عن الأبناء المولودين:

«ويعطى الولد اسمًا يتألف من الاسم الأول (محمد ، أحمد ، يوسف).. ومن اسم الأب ، يضاف إليهما فيما بعد كنية تذكّر باسم الوليد البكر (الذي كثيرًا ما يكون وهميا) ونسبة تتعلق بالمهنة، ولقبًا (كنور الدين).

ويتربى الولد حتى السابعة على أيدي النساء، وبعد ذلك يتعلم مهنة من أبيه أو يذهب إلى المدرسة القرآنية، أما البنات المعدات للزواج فتلازمن البيت ولا تتلقين أي تعليم، وليست وظيفة المرأة في الإسلام ـ ولاحظ في الإسلام ـ أن تربى أو تعلم، وهي تكاد لا تعرف الصلاة.

فهل سمع أحد من المسلمين بهذه التركيبة الغريبة، التي تدل على أن هؤلاء المستشرقين يكتبون عن الإسلام والمسلمين ـ فيما يبدو ـ وكأنهم يكتبون عن عالم خيالي من عوالم ألف ليلة وليلة التي تشبعوا بها وضخموها وجعلوها حاجزًا بين عقولهم وبين

الحقيقة!!

وهل سمع أحد من المسلمين بهذه الأكذوبة عن وظيفة المرأة في الإسلام؟ وهل يعتبر انحطاط بعض المسلمين في بعض الظروف دليلاً على الإسلام نفسه؟!

وبتعبير آخر هل يعتبر شيوع الزنا والخمر والسرقة في أمريكا وأوربا وأكثر المجتمعات المسيحية. . .هل يعتبر هذا دليلاً على إباحة هذه الجرائم في المسيحية؟!!

الحق أن بعض المستشرقين يصل عمدهم في الكذب إلى درجة الانحطاط ويصل جهلهم إلى درجة لا تسمح بأي قدر من التفاهم أو تحقيق الحد الأدنى من الاحترام.
وفي (ص٦٤) يرى المؤلف أن (المدنية الإسلامية) بتأثير حيل فقهية أباحت الربا، وقد سيطر عليها النظام الصيرفي، خلافًا لروح الشرع، وظهر فيها نظام رأسمالي صدّروه إلى أوربا.

فكأن المؤلف يريد أن يقول: إن الرأسمالية المفسدة في أوربا يصدرها العالم الإسلامي. . . دون أن يدرك أبسط القواعد الاقتصادية التي تجعل ظهور الرأسمالية بمعناها (الليبرالي) أمرًا مستحيلاً في المدنيّة الإسلامية!!

فطبيعة المجتمع الإسلامي المقيد بقيود الحلال والحرام، وطبيعة الاقتصاد الإسلامي، بقيوده الشرعية، وضرائبه التصاعدية ، وقيود سلامة المنبع وتحريم الاحتكار، وشرف الوسائل والغايات. . . كل ذلك يحول دون ظهور الرأسمالية في المجتمع الإسلامي!!

وفي (ص٦٥) يرى المؤلف أن السلطة التنفيذية حق إلهي، وليس هناك قاعدة تحدد ممارستها. . . كما يرى في الصفحة نفسها أن الخليفة بوصفه رئيسًا يمنح الجيوش «البركة» التي تؤمن لها النصر !!

وهذه عبارة كلها خطأ. . . فليست السلطة التنفيذية حقا إلهيا لأي أحد، ولها قواعد معروفة تحكمها، وليس الخليفة في الإسلام (بابا من بابوات الفاتيكان) يمنح البركة، بل هو (رئيس)، (وإمام) و (مسئول) أمام الله، وأمام شعبه، ويولَّى بشروط ، ويحاكم . ويعزل إذا ثبت عجزه، ويقتل إذا ثبتت خيانته.

ويتحدث الكاتب عن (الأباضية) فيزعم أنهم ينكرون صحة سورة يوسف، لاعتبارهم أنها لا تليق بكلام الله (ص٧٠) ودون أن يدري الكاتب أن (الأباضية) مسلمون، وخلافاتهم مع بقية الطوائف في بعض الأمور، هي خلافات في المجال

الإسلامي، وأن إنكار أي مسلم - على عكس الخلافات بين الطوائف الإنجيلية - لأي آية في القرآن - فضلاً عن سورة يوسف كلها - تجعل المسلم كافرًا خارجًا عن المجال الإسلامي كله.

وفي (ص٧٦) يقول المؤلف: « إنه تشعب عن الشيعة حركتان دينيتان أصليتان: النظام التوفيقي: الذي وضعه «أكبر» سلطان الهند المغولي، والذي حاول فيه التوفيق بين الإسلام والبراهماتية والبوذية، والمسيحية، وسماه: «التوحيد الإلهي». والبابية: وهي محاولة إصلاحية للإسلام قام بها الشيعي ميرزا علي محمد سنة ١٨٤٨م، وأعدم سنة ١٨٥٠م».

وهاتان النحلتان ليستا من التوفيق في شيء، «فأكبر» - الذي حكم في القرن الحادي عشر الهجري - كان عدوا مبينًا للإسلام، خارجًا عنه تمام الخروج، مائلاً نحو الهندوسية، مصاهرًا لها، ولولا أن قيض الله للهند الإسلامية الإمام المصلح الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي - الذي نجح ، بعد تعرض للسجن والتعذيب، في استمالة ابنه وخليفته جيهان كير - لأمكن القضاء على مسلمي الهند، على يد «أكبر» وأبنائه.

وقد كان «أكبر» هذا أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرف عن الإسلام الصحيح شيئًا، وظل - كما يقول علامة الهند أبو الحسن الندوي - يبتعد عن الدين الإسلامي، بتأثير محيطيه من بطانة السوء، وفي الوقت نفسه يمتزج بالبراهمة خاصة، حتى نشأ عنه عداء شديد للإسلام، وبغض له، لدرجة أنه كان يسوؤه أن يسمي أحد في بلاطه ابنه محمدًا، وقد حرم ذبح البقرة في طول الهند وعرضها، وأباح الخمر والخنزير ، ووجه الهند كلها إلى الإباحية والكفر(١).

فهل هذا السلطان الجاهل الكافر صاحب مذهب توفيقي ؟

وما يقال عن أكبر، يقال بطريقة أخرى عن البابية، فليس فيها من التوفيق شيء، وهي حركة كالبهائية، والقاديانية، خارجة - تمامًا - عن الإسلام.

ويقول «دومينيك سورديل» في (ص٧٩): « إن التصوف حركة إسلامية أصيلة، وهو يرتكز على نزعة قرآنية نحو التقوى التي نحّاها الإسلام الرسمي جانبًا».

وهذه العبارة كلها فساد في فساد... فنحن لا نفهم ما هي الأصالة في التصوف؟ هل ورد فيه شيء أصيل في القرآن والسنة، وهما مصدر التأصيل في الإسلام؟ أم ماذا؟

---

(١) أبو الحسن الندوي : الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها ص ٨، طبع لكنهؤ بالهند.

كما أننا لا نفهم معنى أن الإسلام الرسمي نحّى التقوى جانبًا؟ وماذا يبقى في الإسلام إذا نحّى التقوى؟ بل نحن لا نفهم معنى مصطلح «إسلام رسمي» فنحن نعرف الإسلام الذي نؤمن به، ونتعلمه منذ ثلاثين سنة ويزيد ، إسلامًا واحدًا. . (رسميا وشعبيا) . وهناك ـ بعد ذلك ـ من يلتزمون بالدستور والقانون، ومن ينحرفون عنه، لكن ذلك لا يعني أن هناك دستورين وقانونين. . .بل الدستور واحد، والقانون واحد، والإسلام واحد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي (ص٨١) يتحدث المستشرق عن وصول الصوفي الذوقي إلى الحقيقة، ويرى أن هذا الوصول يضع الصوفي (في الإسلام بالطبع) فوق النبي، ومعروف أن هذا «زندقة» لا تقبل من مسلم ولا صوفي ولا غير صوفي، فمرتبة النبوة لا يصل إليها أحد، لا بالذوق الصوفي، ولا بأي طريق آخر؛ لأن النبوة ـ في الإسلام ـ اصطفاء إلهي بحت: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ﴾ [الحج: ٧٥] .

وفي (ص١٠٠) يتجرأ المؤلف فيحكم حكمًا عاما على الثقافة الإسلامية، وكأنه ضليع فيها، فقيه بها، مع أنه ـ كما يتبدى من خلال كتابه ـ جاهل بها كل الجهل . . فيقول: «ويبدو أساس الثقافة الإسلامية من خلال مظاهرها المختلفة ، شعورًا ببطلان هذا العالم».

والحق أننا لا ندري من أي مصدر استقى المؤلف هذا الإحساس للثقافة الإسلامية، لكن إذا أوجب علينا كمسلمين أن نعتبر القرآن هو أساس هذه الثقافة، وهذا واجبنا الشرعي والعقلي؛ لأنه لا إسلام ولا ثقافة إسلامية بدون «قرآن». . . إذا وجب هذا، فإننا نجد القرآن يقول بعبارة صريحة لا تقبل أي تأويل أو كذب. . على لسان المؤمنين:

﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وللدنيا قيمة كبيرة في حياة المسلم الواعي بدينه، وليس الصوفي الغافل. فبدونها لن يعبر المسلم الطريق إلى الجنَّة. . وبدونها لن يحقق خلافة الله في الأرض، إنها الوسيلة الضرورية الكريمة للغاية الكريمة.

وإن المسلم لا ينظر إلى الدنيا أبدًا على أنها باطل، بل ينظر إليها على أنها (صراع مع الباطل)، وفي القرآن أمر للمسلم: ﴿**وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [القصص : ٧٧] . وفي القرآن : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات:٥٦] بمعنى العبادة الإسلامية الشامل، وفي القرآن : ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** .

وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يومَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُوراً . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء: ١٢ ـ ١٤] .

فهل «الدنيا» باطل في أساس الثقافة الإسلامية الأول.. أم أنها رحلة كفاح وجهاد، من أجل غاية عظمى !!

* * *

وعلى أية حال ، فإن من الصعب تتبع كل الأخطاء الجسيمة التي وردت في هذا الكتيب الذي لا تزيد صفحاته على خمس عشرة ومائة صفحة من القطع الصغير، لدرجة يبدو معها فيما دونته على حواشيه وكأن معظم تركيباته وأساليبه وحقائقه الإسلامية التاريخية كلها في حاجة إلى إعادة بناء، وصياغة، واعتماد على ركائز الحقيقة.

إنه كتاب... في حاجة إلى كتاب آخر ليصححه ويعيد سداه ولحمته من جديد، ورحم الله الموضوعية والمنهجية والأمانة العلمية، في عالم يستبيح كل الوسائل من أجل غاياته المسبقة، وأغراضه التي يلوي من أجلها أعناق الحقيقة، ويستهين بحقائق العلم، وبالمصادر الصحيحة للبحث ، وبالحد الأدنى من احترام العقل البشري.

ولا عجب ـ بعد ذلك ـ أن تكتب الدار الناشرة في ذيل هذا الكتاب، وغيره من السلسلة التي تصدرها تحت عنوان: «ماذا أعرف؟» .. لا عجب أن تكتب أن المساهمين في نشر هذه السلسلة هم :

١ - شركة الطيران الفرنسية.

٢ - شركة الزيوت الفرنسية.

٣ - مصرف باريس الوطني.

٤ - الشركة العامة بفرنسا.

٥ - شركة دوميز.

٦ - وزارة العلاقات الثقافية بفرنسا.

فهل تحتاج الكتب التي تنهج النهج العلمي، وتخدم الحقيقة العلمية المجردة، لمثل هذه المساهمات الفرنسية من جهات لا علاقة لها بالعلم المجرد، ولماذا ـ يا ترى ـ تساهم هذه الهيئات كلها في نشر هذه السلسلة من الكتب بالعربية؟ هل يكون ذلك لتثقيف المسلم وتوعيته.. أم لتشويه فكره وإفساد علاقاته بدينه وتاريخه وحضارته؟!!

إن ذلك هو عين اليقين!!

* * *

أما (النموذج الاستشراقي الثاني) الذي نقف عنده ـ كنموذج ـ في هذا العرض ، فهو كتاب (الإسلام) لمؤلفه «هنري ماسيه»، وهو الكتاب الذي ترجمه وراجعه وقدم له «الدكتور مصطفى الرافعي»(١) .

وقد صدر هذا الكتاب ـ الذي نتناوله بالدراسة النقدية ـ في ترجمته العربية سنة ١٩٦٠م. وفي التصور أنه في الإمكان أن تكون ثمة دراسات قد ظهرت عنه في بعض المجلات المتخصصة. . . لكن ـ في الوقت نفسه ـ لا يوجد دليل على هذا الإمكان من جانبنا. . . على أن هذا لا يمنع من إلقاء اللوم ليس على المستشرق ماسيه باعتباره رجلاً تتحكم في ثقافته ومنهج تفكيره عوامل من البيئة والظروف التاريخية والمناخ النفسي، والسلفية الفكرية الصليبية، وإنما يتجه لومنا الهادئ العميق إلى السيدين الفاضلين: الدكتور مصطفى الرافعي، والسيد محمد جواد مغنية. . نظراً للثقة في كفاءتهما، وفي غيرتهما الدينية.

وهذا اللوم تولد نتيجه إغفالهما للرد على المستشرق في تعليقهما على كتاباته، بينما نراهما قد اتجها بالرد على نقاط ربما لا تحتل نفس الأهمية، باستثناء تثبيتهما للنص القرآني وتدوينه . وبينما ـ كذلك ـ يركِّز الأستاذ «مغنية» معظم ردوده على ما يتعلق بقضايا الشيعة، ونحن لا ندري تفسيراً مقبولا لهذا إلا أن يكون انحيازاً من جانب الأستاذ لناحية مذهبية، بلغت حدا من الضيق، جعلها تغطي على ولائه للإسلام ككل، وبالطبع فإيثار المذهبية بهذا اللون ليس من خصائص الإسلام. . ذلك الدين الذي لا يعرف مذاهب بالمعنى المذهبي المعروف في الديانات الأخرى.

وللحقيقة فإن الدكتور مصطفى الرافعي في تقديمه للكتاب قد تناول بعض النقاط. . . لكن يلاحظ على موقفه أنه تحدث أحيانًا في دفاعه بأسلوب يوحي بتثبيت اتهامات المستشرق. . كاستعماله لتعبيرات مثل:

«مع العلم بأن محمداً لم يكن في أي وقت مخطئًا ولا مجرمًا» ومثل قوله:

«ومما يدل على كونه غير مخطئ. . ولا مجرم». . وهذا في مجال دفاعه عن النبي ﷺ كما يؤخذ على موقفه ـ كذلك ـ أنه تجاهل الاتهامات الرئيسية، وتناول القضايا الشائعة على ألسنة المستشرقين، والتي أصبحت مرفوضة من جانب الفكر

---

(١) نشر محمد جواد مغنية ، بيروت ١٩٦٠م.

الاستشراقي الحديث نفسه.. كقضية زينب بنت جحش، وكقضية جور الشريعة الإسلامية.

ونلفت النظر إلى أن هذا التجاهل للمواضع الكبرى التي تنكب فيها المستشرق طريق الحقيقة.. يعتبر تأييدًا لأقاويل « ماسيه» من حيث أراد الأستاذان أو لم يريدا.

وفيما يلي نسرد بعض الأخطاء الفاحشة التي سقط فيها المستشرق، مع ملاحظة أننا نكاد نتجاهل بعض النقاط التي رد عليها السيدان المعلقان، ومع ملاحظة أن موقفنا قد اتخذ هذا الشكل من المعلقين الكريمين؛ لأنهما قد أثنيا على منهج الكتاب، وأشادا به لدرجة اعتباره «تحفة» .. وفي هذا ما فيه من ترويج لأكاذيب استشراقية بين جماهير أمتنا الإسلامية.

مَع الكتـاب:

ونتناول الآن أهم النقاط بالذكر دون تعليق... لأنها في الحقيقة، وبالنسبة لأبسط المسلمين لا تحتاج إلى تعليق.

* في كل تعبيرات الكتاب يحاول «ماسيه» تجريد النبي ﷺ من النبوة، ويوحي بأن القرآن من صنع النبي ﷺ. وعلى سبيل المثال قوله: «وبعد بضعة أيام من الشك برأ محمد زوجته الشابة بواسطة الوحي»(ص٥١). ويقول: «وإذا تكلمنا بالضبط، فإن محمدًا لم يكن في هذه النصوص رسولاً من الله»(ص٤٣).

* يشير الكاتب إلى خديجة إشارات ممتهنة، فهو يصفها بأنها الأرملة المطلقة التي كانت تدير بيتا تجاريا (ص٤١).

* ويرى أن التأثير اليهودي في القرآن أكثر من التأثير المسيحي، وأن هناك عدة مقاطع قرآنية ذكرت سلفًا في التوراة مع نصوص سريانية ، وبعضها يشبه بشكل غريب مواعظ القديس «أفرام» (ص٤٢).

* يشير الكاتب إلى أن وحدانية الإسلام لا تعني وحدانية الله، وإنما تعني الوحدانية في عبادة صنم واحد، فهو يقول: «وهذه الثنائية هي التي سيعارضها الإسلام بوحدانيته» (أي ثنائية أساف ونائلة، واللات والعزى... إلخ)(ص٣٢).

* يذكر أن النبي يمكن أن يكون قد وعد أهل مكة بأن يسكن معهم إن تركوه يفتحها (ص٥٣).

* يصف النبي بأنه كان ذا مزاج عصبي قلق، ونفس كثيرة العواصف بشكل غامض (ص٥٤).

* يصف النبي بأنه المحرك الأول للوحدة القومية والدينية (ص٥٩).

* ويضرب المستشرق بعنف على حكاية تمسك المسلمين ببقايا الوثنية .. فهو يقول:

«لقد وجدنا الجمل المقدس والقبة ولكن عائشة أم المؤمنين احتلت مكان الصنم».. ويقول: «وقد احتفظ بهذا العمل في حروب بدو الصحراء المعاصرة» (ص٦٤).. فهو يريد الزعم بأن المسلمين يعبدون الأصنام في صورة أخرى.

* يتكلم عن دوافع الحروب الإسلامية فيقول: «على أن هذا لا ينفي تمامًا أولئك المنتفعين الذي يجدون في الحرب إرضاء لغرائز النهب الموروثة عن الوثنية» . (ص٨٧).. فهو يصرّ على حكاية الوثنية.

* يقول بأن العاجزين عن دفع الجزية كانت عقوبتهم السجن، مع أن العاجزين هؤلاء لم تكن الدولة الإسلامية تسقط عنهم الجزية فحسب، بل كانت تفرض لهم معاشًا.

* يتكلم عن «الوحي» فيفسّره بأنه ناشئ عن الصوم الذي يضعف الجسم، والذي يمكن أن يحدث رؤى في الليل على الخصوص(ص١٠١).

* يتكلم عن القرآن فيقول: « وما من شك في أن القرآن لا يمكن أن يكون كله من نتائج الانخطاف الروحي، ومن الممكن القول بأن الأجزاء الأكثر قدمًا قد تعرضت لبعض التعديلات» (ص١٠٢).

* ويقول : «ومما لا يقبل الجدل أن القرآن يعكس بطريقة غير مباشرة تأثير مذاهب مشتقة من اليهودية أو المسيحية، وهي مذاهب كانت متعددة يوم ذاك في بلاد العرب» (ص١٠٣)، ويقول: «ولكن محمداً في بدء رسالته تعرض كثيرًا لتأثير الوثنية العربية التي كان يبغي التخلص منها».

* ويقول :«ويجب الاعتراف بأن خصوم محمد كان لهم بعض الحق في اعتباره كاهنًا أو شاعرًا».

* يتكلم كثيرًا عن أن أجزاء من القرآن قد فقدت، وأن أجزاء أضيفت، وقد رد المعلق على الكتاب هنا، لكن بإيجاز مخل (ص١٠٦).

* بل يقول المستشرق : « إن المصاحف التي دونت في عهد عثمان قد تعرضت عبر القرون إلى تغيير» (ص١٠١).

* ويقول : « إن اجتهاد الفقهاء في القرون التالية لانتقال النبي ﷺ إلى الرفيق

الأعلى، كان بغرض سد النقص في العناصر التشريعية الموجودة في القرآن» (ص١١٧).

* يتكلم عن الأحاديث فيقول: «وكانت أديان الشعوب المغلوبة ذات أثر في تطور الأحاديث، فقد وجد فيها (جولد تزيهر) تذكارات من الأناجيل، ومنقولات غير صحيحة عن المسيحية، وأفكارًا يهودية وإغريقية وضعت في فم النبي بهدف بناء» (ص١٢٠).

* يذكر أن أسس الإسلام - وهي التصديق والإقرار والعمل - لم تكن رسمية في الإسلام كالأديان الأخرى كقانون الإيمان المسيحي مثلا(ص١٣٨).

* يتكلم عن «الجن» فيقول: « إنهم في حياة محمد أصبحوا لا شعوريا آلهة تُقَدَّم إليهم القرابين» (ص١٤٢).

* يتكلم عن الصلاة فيقول: « إنها بشكلها الحالي لم تنتظم إلا بعد الهجرة بتأثير من الطقوس العبرانية»، ويقول عن الصلاة: « إنها لم يحدد عددها في حياة محمد، وإنه لا يستطاع القول بأنه في أي عصر تم ذلك بصورة أكيدة » (ص١٥٥).

* يتكلم عن سبب تشريع الصوم فيقول: « إنه بعامل من تقليد يهود المدينة سنّ محمد صوم عاشوراء، وفي السنة الثانية للهجرة، وعلى أثر توتر العلاقات بين محمد واليهود جعل شهر رمضان شهرًا للصوم» (ص١٦٠).

* يتكلم عن الحج فيدعي أن النبي أراد بعد الهجرة أن يؤسس في المدينة مزارًا منافسًا لمزار مكة، ولكن أدرك أن من مصلحته أن يتفق مع الحزب القرشي، وأنه لن يستطيع القضاء على الطقوس المكية التي تحفظها أقدميتها بشكل متين (ص١٦٧).
ويقول: «وهذا الحج إلى قبر محمد يجعلنا نشير إلى الزيارة التي تقوم بها الشيعة لقبور أئمتهم في كربلاء والنجف وسامراء» (ص١٧٢).

* ويتحدث عن النساء فيقول: «إن القرآن قليل الرأفة بالنساء» (ص١٧٣).

* ويقول عن الأولياء: «وهكذا وصلنا إلى إحدى البدع الكبرى في الإسلام، وهي عبادة القديسين والقديسات» (ص٢٢٢)، ويقول: «وهذه العبادة شأنها في الأديان الأخرى، حلت أحيانًا محل عبادة الله، وفعلاً فإن القديسين بنظر عامة الشعب يبدون ليني الجانب أكثر من إله الإسلام العظيم البعيد»(ص٢٢٣).

* * *

ونظن أن في هذا القدر من السخافات والأحقاد الكفاية.. لكي نطرد هذا الكاتب.. وكتابه من حظيرة الفكر الإنساني المحترم، ذلك الفكر الذي يقبل المناقشة

والرأي والنقد. فهو ـ في رأينا ـ أحط من هذا المستوى بكثير.

ولا نعتقد أن هناك مسلمًا من مستوى (طالب متوسط) في حاجة إلى أن نفند له هذه الافتراءات التافهة المكشوفة!!

* * *

وأما النموذج الاستشراقي الثالث، فهو كتاب (أهل الذِّمَّة في الإسلام) من تأليف : أ. س. ترتون، وترجمة وتعليق : الدكتور حسن حبشي [1].

وفي البداية نقرر أنه ليس لحنًا جديدًا أن نعزف هنا على قيثارة التسامح الإسلامي، فالحق أن هذا اللحن أصبح مكررًا لدرجة أفقدته ـ عند العرض ـ كثيرًا من خصوبته وحيويته. وإن ترجمة كتاب ككتاب «أهل الذمة في الإسلام» لمؤلفه الدكتور «أ. س. ترتون» إلى اللغة العربية وطبعه في واحدة من أشهر مطابع القاهرة... يعتبر في حد ذاته دليلاً على تلك الروح الإسلامية العلوية التي لا زالت آثارها منحدرة في أخلاقية وعقلية آخر جيل إسلامي... هذه لمحة أولى عابرة عن الكتاب الذي بين أيدينا.

على أن تاريخ إصدار الطبعة الثانية ـ التي بين أيدينا ـ وهو سنة ١٩٦٧م ـــ بكل موحيات ودلالات هذه السنة الكئيبة في تاريخ العرب والمسلمين ـــ يعتبر دليلاً آخر على أن هؤلاء المسلمين ـ لاشعوريا ـ لا زال يحركهم نوع من الإيمان الأخلاقي والقيمي الثابت.. بصرف النظر عن الأحداث الطارئة!!

وفي البداية ـ وبوحي من هذين المعنيين ـ حمدت للمترجم الفاضل الجهد الذي بذله، حتى أخرج الكتاب وسط أحداث كئيبة كشفت القناع عن أحقاد صليبية يهودية مشتركة... يبدو أنها ارتباط قرون طويلة ضد الإسلام والمسلمين.

ولم أكد أصل إلى شوط كبير في الكتاب، كنت خلاله أكتم غيظي.. وأتمثل قول الله: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقول الرسول الكريم: «لا تغضب»... لم أكد أصل إلى هذا الشوط حتى بدا لي أن الكتاب حلقة سيئة في سلسلة ذات أبعاد خبيثة.. وأن المترجم ـ علم أو لم يعلم ـ قد سيق إلى هذا الدور محاطًا بمجموعة من القيود... تمثلت في إشراف بعض العاملين في حقل التبشير الصليبي على إخراج الكتاب والهيمنة على روحه.. تارة بعون علمي مباشر، وتارة

---

(١) نشر دار المعارف بمصر ١٩٦٧م (سنة النكبة).

بتخريج، وتارة بمراجعة الأصل. . .فخرج الكتاب وكأنه نشرة دعائية تبشيرية، أو كأنه تمهيد مرحلي لأهداف أخرى لم تكن قد ظهرت، ثم بدأت تظهر على السطح جلية. . . وكلنا لا ينسى الفتنة الصليبية التي ذاعت في أوائل عام ١٩٦٨م. . أي بعد النكسة بشهور. . وكلنا يحفظ أيضًا ما تلا ذلك من فتن وأحداث في أعوام ١٩٧٢م، ١٩٧٣م، ١٩٨٠م.

ولم ينج المسلمون ـ في مصر والعالم العربي ـ من آثار الفتنتين إلا بضبطهم الشديد للنفس، وبتسامحهم الذي لا زال يعمل عمله في أخلاقهم وسلوكهم!! . . . وماتت الفتنة. . . بعد أن باء باللعن موقظوها بالفكر أو العمل.

***

يستهل المترجم الكتاب بمقدمتين . . . تمتاز أولاهما بأنها مجرد سرد لبعض النصوص القرآنية المتعلقة بالتسامح. . وتمتاز ثانيتهما بأنها «محاولة عادية» للدفاع ـ عقليا لا تاريخيا ـ عن تاريخ المسلمين مع أهل الذمة. . . إنها محاولة لتبرير الوقائع والأحداث الواردة في الكتاب، وذلك بذكر بعض صور الاضطهاد التي حاقت بجماعات «الهيجونوت» في فرنسا على أيدي إخوانهم في الدين «الكاثوليك». .كاعتذار ـ ملطف ـ لهذه العصور الوسطى عند المسلمين. . . وكأنما أعلن المترجم ـ بهذا ـ إقراره بما جاء في الكتاب. . . ولم يبق إلا أن يتكرم بالاعتذار عن هذه «العصور الوسطى الإسلامية» وأن يلتمس لأهلها شيئًا من العذر الغريب!!

يسترعى انتباهنا أول ما يسترعي أبرز قضايا المغالطة في الكتاب، وهي قضية اضطهاد المسلمين للنصارى. . اضطهادًا ذاتيا ـ قائمًا ـ على مجرد التعصب الديني.

إن المؤلف لا يسوق هذا الحكم. . . هكذا . . تقريريا مباشرًا، وإنما يسوق بعض الوقائع المبتسرة. . التي لم ترتبط بأسبابها، ولم توضع معها مقدماتها وظروفها ودور الطرف الآخر «الصليبي» في تحريكها!!

ويبدأ هذا الاضطهاد ـ كما يصور المؤلف ـ منذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه !!

وعلى الرغم من أن المؤلف أثبت بأدلة قوية أن العهد المنسوب إلى عمر ليس موثقًا تاريخيا، وإنما هو منحول ومنسوب إلى عمر افتراء، وعلى الرغم من أنه اعترف بأن عمر استعمل النصارى في الدواوين «مضطرًا» ـ على الرغم من هذا وذاك إلا أنه ذكر أن عمر «رفض استعمال المسيحي من أهل الحيرة» للإيحاء بوجود نزعة التعصب لدى عمر، ودون أن يذكر لنا المؤلف ـ ولا المترجم ـ سبب رفض عمر استعمال هذا العامل المسيحي مع أن المؤلف ـ كما ذكرنا ـ قد اعترف بأن عمر استعمل المسيحيين في الدواوين، مما يدل

على أن في هذا المسيحي المرفوض خصوصيات ـ غير مسيحية ـ جعلت عمر يرفض استعماله !!

ويسير المؤلف ـ منذ عمر ـ في أحداث جزئية على هذا النحو، يحاول منها أن يبني هيكلاً تاريخيًا متكاملاً يوحي بناؤه بأن «أهل الذمة في الإسلام» عوملوا بتعصب ديني من قبل العامة على الأقل !!

وبين عهدي عمر بن الخطاب وعمر بن العزيز . جرت الأمور عادية، فلما جاء الأخير كره أن تكون يد الذميين هي العليا فأمر بعدم استعمالهم، وجاء المتوكل العباسي فأعاد الأمر بعدم استعمال الذميين.

وعلى أية حال، وحسب تصوير المؤلف تعتبر الاستعانة بأهل الذمة في الدواوين أقرب المجالات إلى التسامح، نظرًا لحاجة المسلمين إليهم، ولكفايتهم في إدارتها (!!) وتعتبر الدولة الفاطمية قمة العصور التي سيطر فيها أهل الذمة على مقدرات المسلمين، وتحكموا فيها تحكمًا سافرًا!!

* * *

يتناول المؤلف قضية «الكنائس والأديرة» وموقف الدولة الإسلامية منهما. والجدير بالذكر أنه يسوق حشدًا متناقضًا من النقول ونصوص المعاهدات لا تخضع لنظام معين في التناول . ومع التجاوز الكبير يمكننا أن نعتبر التسلسل التاريخي هو الخيط الذي يربطها . لقد تأرجحت الآراء بين تجويز الإسلام لأهل الذمة بإقامة كنائس جديدة، وبين تحريم ذلك. والحق أن الأمر يخضع لنوعية العهود المعطاة لهم بحكم الفتح، هذا مع أن الفترة الإسلامية التي امتدت إلى عصر المتوكل ـ كما شهد المؤلف ـ قد اتسمت بعطف وتسامح شديدين من جانب الخلفاء والولاة. أما منذ عصر المتوكل ـ ولعل ذلك لظروف كانت تنتاب الدولة الإسلامية، وكان لأهل الذمة فيها دور معين ـ منذ هذا العصر بدأ الخلفاء يتخذون موقفًا حذرًا من أهل الذمة.

والغريب أن المؤلف يسوق أحداثًا تحمل في باطنها مبرراتها وأسبابها، فهو يذكر أن الخليفة الأموي الأخير «مروان بن محمد» دمّر ونهب كثيراً من الأديرة بمصر أثناء هروبه من وجه قوات العباسيين، وهو يذكر أنه أثناء الصراع بين الأمين والمأمون خربت كثير من ديارات وادي هبيب «وادي النطرون» و «لم يكن أمر المتوكل بتحريم استحداث الكنائس ختام تلك القصة، فقد هدم العامة في سنة ٢٧١م دير«كليلا يشوع» ببغداد ، وحدث في عام ٣١٢م أن أحرقت كنيسة مريم بدمشق، ونهب دير النساء بجوارها، وألم

الدمار بكنائس أخرى كثيرة.. وفي سنة ٣٢٥م أحرقت الأبواب الشرقية للقيامة ببيت المقدس... وحدث في عام ٣٩٢ م أن قامت فتنة في بغداد ضد المسيحيين، نهبت خلالها بيوتهم وهوجمت أثناءها بيعهم» !!

«وقد كان سلوك الحكومة يختلف باختلاف الأزمنة، ففي سنة ٢٤٠م شرع سكان حمص بمساعدة النصارى في التمرد على والي المدينة.. فقضى المتوكل بنفي المسيحيين وتحطيم كنائسهم.

أما الحاكم بأمر الله فقد أمر بهدم الكنائس الموجودة في البلاد التي يحكمها، واستولى على محتوياتها، وبيعت في الأسواق أوانيها الذهبية والفضية».

إن هذه الأحداث تحمل مبرراتها ـ كما ذكرنا ـ فهي مرتبطة بظروف استثنائية، أو بأفراد أساءوا إلى المسلمين إساءتهم إلى أهل الذمة بنفس المستوى، فضلاً عن أن هذه الأحداث تقدم دون بيان أسبابها، فلم يذكر مثلاً مدى إهاجة أهل الذمة للمسلمين، ولم يذكر مثلاً مدى إهانتهم لمقدساتهم، ولم يذكر مثلا محاولتهم الامتداد أكثر من حجمهم الطبيعي، واستغلالهم تسامح الإسلام، للنيل منه ومن حقوق أبنائه الممثلين للأكثرية!!

بل أكثر من ذلك، قلما أورد المؤلف المحاولات الأسيفة لبعض هؤلاء، وهي تلك المحاولات التي تصل إلى حد الخيانة، وتستوجب في الأعراف القانونية كلها أشد العقوبات.. إنها محاولات بعض أهل الذمة استغلال أزمات البلاد السياسية للوصول إلى أغراض خبيثة، ومحاولات بعضهم الوقوف مع أعداء البلاد والشماتة في مصائب المسلمين. ولعل هذا النص الذي يكاد يكون شاذًا في نهج المؤلف من أقوى الأدلة على ذلك، يقول: «ولما غزا المغول دمشق سنة ٦٥٨هـ أخذ هولاكو على عاتقه حماية النصارى الذين استبدت بهم النشوة، فجاهروا بشرب الخمر في رمضان وإهراقه على ملابس المسلمين، ورشهم به، وإراقته على أبواب مساجدهم، وكانوا إذا خرجوا محتفلين بالصليب أرغموا أصحاب الحوانيت على الوقوف لهم، فمن رفض الامتثال لأوامرهم أساءوا معاملته.. وكانوا يقيمون الاحتفالات تمجيدًا لدينهم وهم يصيحون: «لقد انتصر اليوم دين المسيح» !!

وكما هو منتظر من رجل «كترتون» فإنه يجعل المسلمين سبب الفتنة التي أشعلها الأقباط سنة ٧٢٠هـ.. والتي أحرقوا بسببها القاهرة لدرجة أن «الخسائر من الحرائق كانت تربو على أضعاف خسائر هدم الكنائس» كما يذكر المؤلف نفسه، مما يوضح الطغيان الذي تتمتع به الأقلية في ظل تسامح الإسلام، بل إنه ليشير إلى افتعال النصارى

للأحداث لتحقيق مآرب خاصة منظمة متفق عليها!!

وفي ليلة ١٦ جمادي قبض على راهبين عند خروجهما من مدرسة «الكهارية» بعد صلاة العشاء، وقد اندلعت النيران في المدرسة وكانت تفوح رائحة الكبريت من أيديهما. فإلى هذا الحد كان «الرهبان» الممثلون لأقلية دينية يتحركون «ويحرقون» في بلد به أكثرية إسلامية ساحقة، وفي عصور كانت أوربا تعيش فيها تحت سيف الكنيسة الرهيب!! وتحرم المسلمين من مجرد حق الحياة!!

* * *

كيف كان هؤلاء الذميون يعيشون وسط هذا المجتمع الإسلامي؟

وهل كانوا يتمتعون بحرية تامة في إقامة شعائرهم الدينية؟

- نحن نجيب بنعم .. و نرى أنه في حدود عدم إهاجة الأكثرية الإسلامية، وفي حدود احترام عقيدتها، وفي حدود عدم التدخل في شئونها، وعدم الشماتة فيها، أو التحالف ضدها.. في هذه الحدود كان لأهل الذمة الحق في الحياة، والحق في إقامة شعائرهم الدينية.

لكن الدكتور «ترتون» يرى - من خلال رصده لأحداث مختلطة ومبتورة، وأكثرها في الحقيقة لصالح المجتمع الإسلامي ، يرى - مع كل ما قدمه من أحداث تؤكد هذا التسامح - أن « الذميين لم يكونوا قط بمنجاة من تعسف المغرضين من الحكام والرعية»!!

أجل ، مع استهانتهم بمشاعر المسلمين وبمعتقداتهم لدرجة «أن المؤذن في الكوفة إذا قام للآذان عمد النصارى إلى دق الناقوس في الكنيسة، وإذا شرع الخطيب في الصلاة أخذ النصارى في الترتيل والإنشاد بصوت مرتفع » (كما يذكر المؤلف نفسه نقلاً عن أبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني)!!

أجل، مع هذا كله، وفي ظل أكثرية إسلامية ساحقة، يعتبر أهل الذمة في غير مأمن من تعسف الحكام والرعية؟!!

* هل تمتعت الأقليات الإسلامية على امتداد التاريخ كله، وفي كل بقاع الأرض بهذا الذي تمتع به أهل الذمة؟ .. هل نتذكر محاكم التفتيش القديمة؟ وهل نتذكر أن إسبانيا لم تعترف بحرية العقيدة إلا منذ أعوام قليلة فقط؟ وهل نتذكر ما كان يفعله الموارنة بالكاثوليك ؟ أو ما كان يفعله المسيحيون باليهود؟.. هل نتذكر كل هذا لنعرف القمة التي تقف عندها مبادئ الإسلام؟!!

* * *

وقضيتا ملابس أهل الذمة، وما أسماه المؤلف «بالمضايقات المالية» لا تختلفان كثيراً ـ في طريق تناول الكتاب لهما. . وفي نتائجه المناقضة لمقدماته فيهما ـ عن مثيلاتها من القضايا التي تناولها الكاتب سابقًا ولاحقًا.

إنه يتكلم عن ملابس النصارى الخاصة ـ المفروضة عليهم ـ ويتكلم عن تفصيلاتها، طارحًا عنه فلسفتها وأسبابها، وطارحًا ربطها بالأحداث التاريخية التي أبرزت أهمية تمييز أهل الذمة من الكثرة المسلمة، وفيما قدمه هو من نقول عن فتنتهم ومحاولاتهم إفساد العامة وتخريب منشآت المسلمين، ومرافقهم العامة والخاصة أكبر شاهد على ذلك!!

إن المسلم ـ حتى في المجتمعات التي يمثل فيها أقلية ـ لا يجوز أن يطالب بالتمييز عن الطوائف الأخرى. . لماذا ؟ لأنه ـ بحكم دينه ـ مأمور بالحفاظ على مرافق ودور عبادة أهل الذمة، واعتداؤه على هذه الدور ـ دون سبب ـ جريمة يحاكمه عليها دينه نفسه.

أما «أهل الذمة» الذين لا يعترفون بمحمد ﷺ رسولاً، وبالتالي لا يعترفون بقدسيات الإسلام على نحو اعتراف الإسلام بموسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ مع الفارق في التصور طبعًا. . . أهل الذمة هؤلاء لابد أن يميزوا حين يتعاونون مع الأعداء وتخشى الأمة على سلامتها منهم أثناء الحروب والمحن. . وشأنهم في ذلك شأن أي خونة ـ بصرف النظر عن دينهم!!

إنني لم أجد أحدًا من المستشرقين ـ للأسف ـ تناول هذه القضية بإنصاف وكلهم راح فقط يبحث عن ظاهرة تمييز أهل الذمة، بلباس خاص، موحيًا للقارئ بمعان غثة بالية!!

ومع ذلك، فإن صاحبنا «ترتون» كاد أن يصل إلى شيء من الحقيقة حين قال: «والواقع أن مرد معظم الثورات الشعبية وانفجار العامة ضد الذميين يرجع إلى عدم تحفظ النصارى واليهود حين تكثر الثروة في أيديهم وحين تواتيهم السلطة ويتنفذون».

ونحن لا نجد فرقاً في الحقيقة بين نهجه هذا وبين نهجه في الحديث عن المضايقات المالية؛ فالمؤلف لا يكاد يري في صفحات التاريخ الإسلامي الكثيرة إلا: «فتك جنود سعد بن أبي وقاص بكثير من الرهبان». . . « وأن عبد الملك بن رفاعة طالب الكنائس بكل متأخر الخراج». . . «ولما ذهب الكسندروس لتهنئة قرة بن شريك بحكم مصر قبضوا عليه وألزموه بدفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار». . . «ومن زمن الحجاج فتك محمد بن مروان

بكثير من النصارى البارزين واستباح دورهم»، «وقد فرض أحمد بن طولون على النصارى أن يحملوا إليه عشرين ألف دينار على أنها عارية ترد إليهم»!!

وهكذا لا يرى المؤلف إلا ما يريد رؤيته، ولا يصل في النهاية إلا إلى ما يريد الوصول إليه، حتى ولو كان الطريق الذي سلكه لا يؤدي إلى المحط الذي حدده لمسيرته المتخبطة!!

ألم يكن هناك تسامح إسلامي ؟ وكيف عاشوا وبقوا حتى اليوم إذن؟ وأين مصيرهم من مصير مسلمي إسبانيا وجزر البحر الأبيض والفلبين والبوسنة والهرسك؟ ألا يوجد ضمير أو حياء؟!!

* * *

إن التاريخ حين يتكلم وحده لن يقول إلا الحقيقة؛ لأنه لا يملك غيرها، وهذا ما حدث عندما ترك الكاتب التاريخ يتكلم مصورًا الأحوال الاجتماعية لأهل الذمة.. فلقد ثبت أنهم كانوا يتمتعون بكل الحقوق «بل كانت معاملة الذميين تنطوي في بعض الأحيان !! على ما يشير إلى مساواتهم التامة بالمسلمين في كافة الحقوق»...«ومع ذلك كان القبط غير راضين عن الأوضاع بدليل كثرة الثورات»!

ألا ترى أنهم متساوون ، ومع ذلك ـ وكما يعترف المؤلف ـ هم مدللون ثائرون دائمًا.. حاقدون ممتهنون حقوق الأكثرية المسلمة!!

«وإنا لنسمع عن الحياة التي كان الأقباط يحيونها في بيوتهم من حيث الترف والإسراف وتقلبهم في رغد من العيش واتساع الأحوال وكثرة النفقات، وأيضًا كثيرًا ما تمتع المسيحيون بالنفوذ العظيم والسطوة الكبرى»!!

ولقد أمكن لأهل الذمة أن يلجوا كل ميدان، ولم تكن هناك مجالات محرمة عليهم في ظل الحضارة الإسلامية.. إنهم لم يعاملوا معاملة «الكلاب» كما فعل الصليبيون مع مخالفيهم، بل كانوا وزراء وأطباء ومهندسين وجباة أموال وصيادلة، وأدباء وكتابا، بل إنهم استأثروا بكثير من الوظائف ، وحرموا المسلمين منها، و استبدوا بها عليهم ، وتآمروا من خلالها على الأمة الإسلامية التي منحتهم الشبع والأمان والشعور بالإنسانية!!

* * *

إن المنهج العلمي هو المنهج الذي ينطلق من الحقيقة الكاملة الواضحة.. وهو

المنهج الذي يعتمد على مصادر البحث الأصلية لا الغريبة عن البحث ولا المشبوهة، وهو كذلك المنهج الذي تتفق نتائجه مع مقدماته، وينطلق ـ كذلك ـ من الحقيقة المجردة ويصل ـ كذلك ـ إلى الحقيقة المجردة.

وإذا نحن ذهبنا نضع معظم كتابات المستشرقين ، ومنها الكتاب الذي بين أيدينا ، على هذا المحك، لوجدنا أن المنهج العلمي شيء، وكتابات هؤلاء شيء آخر، بل لوجدنا أننا نحن ـ أصحاب الضمير الإسلامي والخلق الإسلامي ـ أجدر الناس بشرف الانتساب إلى هذا المنهج.

وأجدر ـ كذلك ـ بحمايته والافتخار به .

* * *

ونصل هنا إلى النموذج الاستشراقي الرابع ، وهو كتاب (مفكرو الإسلام) من تأليف : « البارون كارادوفو»، وترجمة : عادل زعيتر.

وفي البداية نقرر أن عنوان هذا الكتاب عنوان غريب جدا بالنسبة لمضمون الكتاب، لدرجة أنك لا تجد إلا أوهن سبب يربط بين العنوان والمضمون.

وبما أننا لسنا في مجال النقد المنهجي للكتاب، وإنما في مجال تقويم دوره كحلقة في سلسلة الاستشراق، فنحن نتخطى بقية الأخطاء المنهجية والفنية، وما دفعنا إلى ذكر هذا الملحظ إلا بيان حقيقتين أساسيتين في صدر عرضنا لهذا الكتاب، هما :

الأولى: أن عبارة (مفكرو الإسلام) عبارة براقة خادعة، تخالف المضمون الذي يتحدث فيما يتحدث عن (هولاكو ـ هادم الخلافة العباسية) و «تيمور لنك» و «أكبر» إمبراطور الهند الزنديق الذي أذل شعبه المسلم ، وجورجي زيدان (السوري المصري القبطي الماسوني). . . وغيرهم .

ـ فهل هؤلاء من مفكري الإسلام؟

ـ وكيف يوضع هؤلاء ونظائرهم تحت هذا العنوان الكريم؟

– إنه المنهج الاستشراقي الذي يريد إلباس الأكاذيب ثوب الحقائق، ثم ـ بعد أن يلبسها ذلك ـ يقدمها وكأنها حقائق عادية لا غبار عليها!!

الثانية: أن المادة التي يقدمها المؤلف تتركز إلى درجة كبيرة في الحديث عن عدد من المؤرخين العرب، والمغول، والترك، والفرس.

- فلماذا لم يطلق على الكتاب اسم :(مؤرخو الإسلام)؟

- بل لماذا لم يوضع عنوان أوضح يمثل حقيقة المادة العلمية التي يضمها الكتاب بين دفتيه؟

الحق أننا لم نقف عند هذه النقطة المنهجية إلا لنكشف القناع عن تلك المنهجية المزعومة، التي يحلو لبعضهم أن يلصقها بالمستشرقين، وهم منها براء.

* * *

ومع ذلك ، فإن المقدمة الوجيزة جدا، والتي لا تزيد على صفحتين ونصف الصفحة، والتي كتبها المؤلف (كارادوفو) لبيان خطته وهدفه من هذا البحث... هذه المقدمة - مع ذلك - هي من أصدق ما قرأته لمستشرق صريح مع نفسه، ومع جمهوره الفرنسي !!

إنه - بكل وضوح - يقول : إنه لم يكتب ما كتب خدمة للعلم، كلا، ولم يكتبه خدمة للعرب والمسلمين، أعداء فرنسا ومحاربيها، كلا.. فالرجل لا تصل به السذاجة إلى هذا الحد الشرقي، وإنما الرجل يعلن بكل صراحة أنه يكتب ما يكتب خدمة للاستراتيجية الفرنسية، التي تسيطر على بلاد إسلامية فرنسية، ويجب أن يكون الفكر، والاستشراق ، كما نفهم من كلامه - في خدمة هذه السياسة !!

يقول (كارادوفو) معبرًا عن هذه الحقيقة: « يلتفت الجمهور الأكبر (أي الفرنسي والأوربي) إلى الشرق في الوقت الحاضر مقدارًا فمقدارًا ، وتصير عرى الصلات بين الأمم الأوربية وأمم الإسلام في ميادين القتال أيام الحرب الأخيرة أوثق مما كانت عليه شيئًا فشيئًا.

والآن تملك فرنسا إمبراطورية إسلامية واسعة، فيجب أن تكون تامة العرفان بالأمم التي تمارس سلطانها عليها أو نفوذها فيها، ويجب أن تدرك روح هذه الأمم وماضيها وعقائدها، وعمق غرائزها وما كان لها من مجد سابق» (ص٧).

«فمن أجل هذه الغاية كتبتُ هذه الدراسة» (التي تقع في ثلاثمائة وثلاثين صفحة من القطع المتوسط)!!

* * *

ولسنا نزعم - في هذه الدراسة - إبراز كل نواحي القصور، فذلك صعب في كتاب

لمستشرق يكتبه لهدف حدده مسبقًا.

وحسبنا أن نقدم بعض هذه النواحي التي نراها معبرة عن غيرها، وأول ما يفجؤنا من الناحية المنهجية مصادر البحث، فهذه المصادر أجنبية وهذه خطة اختطها المستشرقون. فلاحقهم يعتمد على سابقهم، وكأنه يأخذ عن حجة، أما اللجوء إلى المصادر الأصلية للبحث، وهي المصادر الإسلامية المعتمدة، فهذا أمر لا يعرفه المستشرقون، إنهم ينتقون مصادرهم انتقاء يخدم أغراضهم ، وحتي عندما ينقلون عن عرب، فهم لا يختارون إلا نصارى، أما مفكرو الإسلام «المسلمون» فهم أقل من أن يؤخذ منهم !!

* * *

وندلف الآن إلى تتبع الملاحظات العلمية مكتفين ببعض منها ـ كما ذكرنا ـ دلالة على فساد المنهج الاستشراقي .

- في (ص١٣) يصف المؤلف الخليفة العباسي المنصور بأنه (كان منجما)، وهذا أمر لم يثبت، ولا يليق بمسلم.

- وفي (ص١٤) يدور المؤلف مع رواية غريبة تقول: بأن المنصور استشار الرهبان النصارى في موقع بغداد.

- ويأتي في (ص١٥) بخبر أقرب إلى الخيال يفيد أن (أم الرشيد)سمَّت الهادي أخا الرشيد، حتى يخلو الجو لابنها الرشيد، إذ كان الهادي أخا للرشيد من أم غيرها.

- ويصور المؤلف الرشيد بتلك الصورة التي نسجها خيال كتاب ألف ليلة وليلة، فهو أول خليفة لعب بالشطرنج والنرد، وشجع ألعاب الصولجان والكرة ورمى النشاب إلى آخره (ص١٩).

- بل إن كارادوفو لم يتورع عن الاعتراف بأنه يقتبس تصويره لهارون الرشيد من ألف ليلة وليلة التي هي مجموعة أساطير للتسلية (ص١٥).

- بل إنه ليكابر ويقول بأن في روايات ألف ليلة وليلة «الطابع التاريخي».

ولنا أن نتوقع أن يحشد المؤلف الأكاذيب حشدًا ما دامت هذه هي نوعية مصادره، فهو يرى أن مسرورًا سياف الرشيد ـ كما تقول ألف ليلة ـ كان عمله أن يقطع الناس إربًا لأقل هفوة !! وهو يرى أن البرامكة قد نكبهم الرشيد ظلمًا وعدوانًا، و ربما

لأن هناك زواجًا اسميا تم بين أخت الخليفة « العباسة » وبين جعفر البرمكي.

نحن لسنا في مقام تفنيد هذه الأكاذيب، فهي متداعية من تلقاء نفسها، وحسبنا أن نحيل القارئ على رسالة الدكتوراه التي قدمها الدكتور «علي العمرو» حول أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول.

[الصفحات من ٢٦٨ إلى ٣٠٤، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ]

- وفي (ص ٢٤) يورد المؤلف نصًا ينسبه إلى المسعودي يفيد : أن الخليفة المأمون قلّد عادات ملوك الفرس الساسانيين، وهو نص يعترف المترجم بأنه غير موجود في كتابي المسعودي المعروفين: التنبيه والإشراف ، ومروج الذهب، وهو سلوك يدل على مدى الكذب الذي يستبيحه المستشرقون لأنفسهم، كما أنه يكشف ضحالة مناهج هؤلاء.

وعندما يتحدث المؤلف عن «صلاح الدين الأيوبي» يصوره نفعيا مرائيًا يتظاهر بأنه سني غيور، وأنه امتنع عن شرب الخمر وتكلف سبيل التقشف (وهو أسلوب يفيد بأن صلاح الدين كان شارب خمر وامتنع عنه)(ص٢٩)، ثم يتجرأ المؤلف فيزعم أن صلاح الدين اتهمه بعض المؤرخين بقتل آخر خليفة فاطمي في مصر (ص١٩).

وهكذا يجمع المؤلف كل الأقاويل الضعيفة والمبتذلة، ليقدمها في حلقات مترابطة، لكي تبدو وكأنها سلسلة تاريخنا.

وفي (ص٣٨) يزعم أن الخليفة العباسي أيام هولاكو كان قد أهدر دم الشيعة وأباح للسنة نهب ممتلكاتهم. ويزعم - أيضًا - أن هولاكو (كان رءوفًا) ، وأنه كان (محبا للعلوم) ، وأنه كان يميل إلى (النصرانية)!!

ويتقيأ « كارادوفو » النصراني حقدًا على « محمد الفاتح» - فاتح القسطنطينية - فيصفه بأنه كان «متقلب الخُلُق عنيفًا جافيًا»، «وأنه كان ينقض الوعود»، وأنه « لم يعن بحفظ المكتبات فأحرق معظمها» (ص٤٧).

وبينما يغمز المؤلف «محمد الفاتح» - على النحو الذي ذكرنا - نراه يقدم - بكل جرأة - واحدة من أكبر أكاذيبه وتناقضاته، فيصف «أكبر» عاهل الهند الذي خان الإسلام وباع نفسه للهنادكة، وكان وبالاً على شعبه - يصفه بأنه «أعظم عاهلي المغول فخرًا»؛ لأنه حاول صهر ديانات دولته وشعوبها في دين واحد، أي يجمع المسلمين والهندوس والشيعة والسنية والراجيوت والأفغان على عقيدة واحدة (ص٧٢) .

وهو تحيز - وخلط كبير - كما نرى !!

ولنلاحظ هنا تعبير المؤلف عن المسلمين وكأنهم أصحاب أديان ثلاثة: دين يسمى الإسلام، و دين يسمى الشيعة، ودين يسمى السنية!!

ـ وبعد ذلك لنقرأ أي كتاب في تاريخ الهند الإسلامية لنعرف البلاء الذي جره (أكبر) على الهند بحمقه وجهله، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في نقدنا لكتاب (الإسلام) « لسوريل دومنييك »، فنكتفي به.

وكما مدح «كارادوفو» هولاكو، وأكبر، وتيمورلنك ، وذم (صلاح الدين) و«محمد الفاتح» ذهب أيضًا إلى مدح الشاه «عباس الكبير»، الذي حكم إيران في النصف الأول للقرن السابع عشر الميلادي، وكان تابعًا ذليلاً لأوربا، وحارب الأتراك المسلمين، كما مدح أيضًا «طهماسب قلي خان» المعروف باسم نادر شاه، والذي حكم في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وكان باطنيًا موغلاً في الولاء للنصارى والمحاربة للمسلمين. وكما يقول «كارادوفو» في مجال مدحه (ص٨٣، ٨٤) إنه : «نصب أمراء من الكرج كانوا نصارى، وأباح للمبشرين أن يقوموا بالدعوة إلى دينهم جهرًا، وبتعميد من يريد ذلك، . . . وأخيرًا أجاز بيع الخمر علنا، وشجع على زراعة الكرمة على غرار الشاه عباس».

ولهذا استحق هؤلاء المدح من العلامة المستشرق « كارادوفو» !!

* * *

وكما قلتُ في صدر حديثي عن صراحة كارادوفو في أهدافه الاستشراقية المسبقة، فإن «كارادوفو» يضيف إلى صراحته تلك صراحة أخرى حول المؤرخين العرب المسلمين المعتمدين لديهم. . . أي لدى المستشرقين، فيقول: «إن مؤرخي الشرق الإسلامي لا يتمتعون بالشهرة في الغرب، والمؤرخون الذين عرفوا في الغرب ليسوا مسلمين، إن المؤرخين المعروفين لديهم هم: «جرجس بن العميد الملقب بالمكين(ت١٢٧٣م)، والشماس القبطي بطرس الراهب، وبطريك الإسكندرية المشهور يوتخيوس، واليعقوبي، وابن العبري».

أما عشرات المؤرخين الموثقين المسلمين بدءًا من مؤرخي السيرة والمغازي ومرورًا بالطبري وابن الأثير وحتى المقريزي وابن كثير وابن خلدون، وغيرهم، فهم غير معروفين في الغرب. ولهذا، فإن «كارادوفو» نفسه لم يقدم من بين مؤرخي الشرق الإسلامي المعاصرين إلا «جورجي زيدان» المعول الهدام في تاريخنا، والذي ثبت ولاؤه المطلق للمحافل الماسونية، وللتوجيهات الاستشراقية، والذي قام بتحريفات فاحشة في

تاريخنا في تلك السلسلة التي سماها (روايات تاريخ الإسلام) !! وتاريخ الإسلام منها براء!!

والحق أن كل ما كتبه المؤلف من مدح لجورجي زيدان يؤكد المنهج الذي أشرنا إليه سابقًا، وهو المنهج الذي يمدح المفسدين «كهولاكو وأكبر» ويذم المصلحين كصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح!!

لكننا لا نغفل هنا لمحة للمؤلف تضم إلى لمحاته (الصريحة) السابقة، وهي لمحة تؤكد رأينا في جورجي زيدان، إنه يأسف لموت « زيدان » ويشير إلى أن المستشرقين فقدوه منذ زمن قليل. فكأنه يعتبره ـ وهو عربي ـ مستشرقًا. . وهذا ما نميل إليه!!

* * *

ويضاف إلى هذا السيل من الأخطاء المتعمدة التي تعكس منهجًا استشراقيا منحرفًا ـ ذهاب المؤلف إلى مدح : فلول الطوائف ، والمعتمد بن عباد، وأصناف الطرب التي كانت في إشبيلية.

ـ وعندما يصل المؤلف إلى الحديث عن سقوط غرناطة، وعن شروط الاستسلام التي عقدت سنة ٨٩٧هـ ، وهي سبعة وستون شرطًا لم ينفذ منها شرط واحد، مع أن (بابا روما) ضمنها وصادق عليها وعلى التزام الملكين الآثمين: فرديناند وإيزابيلا بها !!

عندما يصل المؤلف إلى هذه النقطة يكتفي بتعليق تافه خبيث، يقول فيه: «وتُعدّ معاهدة تسليم غرناطة هذه عنوان الاعتدال والكرم، ومن أروع وثائق تاريخ الفتوح»!!(ص١٦٢).

نعم، إنها كذلك على الورق فقط. . . فماذا بعد ؟

ـ إنه يتابع فيقول:

«وكل يعلم أنه أعقب ذلك بعد أعوام قليلة، موج من التعصب لم يحترم معه دين الإسلام ولا آثاره الثقافية».

ـ وبمثل هذا الأسلوب الغث يكون تعليق المؤلف على واحدة من أكبر الجرائم في تاريخ الحضارة البشرية، وهي محاكم التفتيش ، والغدر الكامل بكل شروط معاهدة التسليم، وهو غدر يمثل صفحة من أسوأ صفحات الغدر ـ وهي كثيرة ـ في التاريخ المسيحي.

* * *

وحسبنا هذه الملاحظات على هذا الكتاب الحافل بالمآخذ والثلمات . . وهو أمر متوقع من مستشرق فرنسي يسعى لتثبيت دعائم فرنسا، في بـلاد الإسلام ـ حسب اعترافه ـ أما المترجم « عادل زعيتر » الذي لم يكلف نفسه عناء كتابة أي تعليق ، فإننا نحمله ، ونحمل أمثاله من المترجمين مسئولية ترويج هذا الفكر المزيف بترجمته تارة ، وبصمتهم الذي يتضمن إقرارهم بهذه الأكاذيب ـ تارة أخرى!!

* * *

وأخيراً .. أسَاليبُ مقَاوَمَة الاستشرَاق:

من خلال هذه الدراسة حول (الاستشراق) تجلت لنا حقيقة الدور الاستشراقي التخريبي الذي يمثل تياراً مسلطًا على عقل المسلم، أدى إلى كثير من الضباب سواء في فكره عن حقائق دينه ، أو من نظرته إلى حقيقة حضارته الإسلامية.

ـ إنه تيار انساب في نهر فكرنا كما تنساب الجراثيم والطفيليات في مياه النهر، فتجلب الأمراض المزمنة لكل من يشربها أو يستخدمها في أغراضه المعاشية.

ولا أمل في تنقية نهر فكرنا الإسلامي وحضارتنا ، أو بتعبير أصح: لا أمل في تنقية العقل المسلم من الجراثيم والطفيليات ـ كي تصبح المياه صافية، تجلب الحياة لا الموت ـ إلا بالقضاء على هذه الطفيليات ، وذلك بالطرق الآتية:

١ ـ تقديم دراسات عملية مكثفة عن النصرانية من كتبها المقدسة، وإبراز التناقض فيها بطريقة علمية لا تسقط فيها إلى مستوى المنهج الاستشراقي . وحبذا لو اقترب اهتمامنا بالنصرانية من اهتمام المستشرقين بالإسلام مع ضرورة احترامنا للحق والموضوعية.

٢ ـ توعية الدعاة المسلمين ـ توعية كافية ـ بحقائق التبشير والاستشراق ، وإقدارهم على فضح هذه الجيوش، وعلى تحويلها من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع.

٣ ـ تقديم رسائل علمية وجيزة عن الإسلام؛ عقيدة وشريعة وحضارة، تصلح لمخاطبة العقل الأوربي ، ويسهل ترجمتها لكل اللغات الحية.

أي أننا بتعبير آخر في حاجة إلى إصدار رسائل تقدم الإسلام ـ بأسلوب العصر ـ إلى غير المسلمين؛ لأنه من المؤسف أن تكون دراستنا الرسمية للإسلام هـي ـ في معظمـها ـ دراسة الإسلام للمسلمين.

٤ ـ إصدار موسوعة علمية يقوم بها جمع كاف من العلماء المسلمين، والدعاة الفقهيين، تسمى باسم (المستشرقون ـ تراثهم ـ وأهدافهم) تكشف الوظيفة الحقيقية للمستشرقين، وتفند أكاذيبهم، وتفضح كبراءهم، وتستقصي جهودهم خلال القرون الأربعة الأخيرة، وتبرز أهم السموم التي دسوها في تصور المسلمين للإسلام، عقيدة وشريعة وحضارة!!

٥ – إصدار نشرة دورية ، أو مجلة متخصصة، عملها الأساسي، ملاحقة (ما يقال عن الإسلام) وتفنيده، على أن تتابع هذه المجلة مراكز الاستشراق وترسل إليها أعدادها، حتى يتريث المستشرقون فيما يكتبون ، ولعله أن يظهر من بينهم من يطلبون الحقيقة، أو من يستطيعون الثورة على المنهج الاستشراقي الموجه، ويعودون إلى المنهج العلمي المحايد. . . وفي كلا الحالتين، فإننا سنستطيع تقديم الإسلام لغير المسلمين، وإبلاغ رسالة الله ـ كما أنزلها الله ـ إلى البشرية الضائعة، وتحقيق الأمانة العظمى التي أناطها الله بنا كأمة دعوة وهداية للبشرية كلها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] .

محطات بارزة في جهاد الفكر الإسلامى لتحقيق البعث الصحيح ومواجهة التغريب والمادية

- جهاد الصحافة الإسلامية فى وجه التحديات الفكرية .
- قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن (محاولة جادة لغرس بذور الإيمان فى وجه الإلحاد) .
- الرجل الصنم : كشف النقاب عن حقيقة الرجل الصنم أتاتورك (نموذج لأصنام كثيرة صنعت للعالم الإسلامى) .
- التاريخ الصحيح لرحلة التهويد والعلمنة .

جهاد الصَّحَافَـة الإسْلاميَّة فى وجه التحدّيات الفكرية

مصطلح الصحافة الإسلامية مصطلح حديث الاستعمال بالنسبة لنشأة الصحافة في العالم الإسلامي والعربي، والسبب في ذلك أن نشأة الصحافة في العالم العربي، وتطورها أيضًا قد ارتبطا بأمرين:

١ - بظروف سياسية يتحكم في مسيرتها الاستعمار الصليبي ويستغل فيما يستغل (العملية التربوية والتثقيفية» . . وبالتالي يوجه أدوات الإعلام والتثقيف إلى غاياته التي تنتهي إلى تكريس وجوده وإلى إفقاد الأمة الإسلامية ـ والوطن العربي من بينها ـ الشخصية الحضارية والأصالة الذاتية.

ولما كان الإسلام هو دعامة هذه الشخصية فقد كان إبعاده عن مجالات التوجيه ـ ومن بينها بل وعلى رأسها الصحافة ـ أمرًا مفروغًا منه في التخطيط الاستعماري.

٢ - وأيضًا فقد أدى هذا إلى أن النهضة الصحافية بل النشأة الصحافية قد قامت على أيدي أناس ليسوا من المسلمين في جملتهم، ولم يشذ عن هؤلاء من الذين عملوا في الصحافة ـ في مرحلة النشأة ـ إلا قليلون تاهت أصواتهم وسط أصوات الكثرة التي تقف وراءها القوى الاستعمارية بكل عونها المادي والأدبي، وبكل خبرتها الطويلة في فن الإعلام.

وفي هذه المرحلة ظهرت بواكير العمل الصحافي ممثلة في جهود بعض المخلصين، على رأسهم الأستاذ (محمد فريد وجدي» الذي أنشأ في عام ١٩٠٧م جريدة خاصة به تحمل اسما « إعلاميا» وشعبيا وهو (الدستور)، وكان هو صاحبها ورئيس تحريرها، ولا يعاونه على أداء مهمته فيها إلا الأستاذ عباس محمود العقاد رحمهما الله.

وكانت جريدة الدستور تضع تحت (اسمها) الكبير لافتة صغيرة تبين أنها لسان حال الجامعة الإسلامية، وقد رفض فريد وجدي ـ رحمه الله ـ أن ينزع هذه

اللافتة الصغيرة تحت كل الضغوط والإغراءات ، وترك جريدته الحبيبة لديه «الدستور» تعاني أمراض الاحتضار. ولم تمض أسابيع حتى كان يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق؛ ليؤدي مرتبات موظفي الجريدة وعمالها.

وكان هذا حال واحدة من بواكير الصحف التي اتخذت «الخط الإسلامي» سياسة لها تسير عليه وتدعو إليه.

ولم ييأس المرحوم «محمد فريد وجدي» من العمل الصحافي الإسلامي فعمل في مجلة (نور الإسلام) التي تطورت وأصبحت (الأزهر) المعروفة بيننا اليوم، كما كتب في (الأهرام) وفي (الجهاد) وفي غيرهما.

ونستطيع أن نقول مطمئنين : إن الصحافة في مصر ولبنان كانت أسبق إلى الظهور من الصحافة في غيرها من بلدان العالم العربي، وبالتالي فظهور الصحافة الإسلامية في العالم العربي لا يزيد عمرها الحقيقي على سبعة عقود تقريبًا، أما تطورها وبروزه بوضوح وجلاء فلعل عمره لا يزيد على ربع قرن من الزمان.

مَفهُوم الصحَافَة الإسلامية:

يرى بعض الكتاب أن «الصحافة الإسلامية» تعني تلك الجريدة أو المجلة أو الدورية التي تضع «شارة الإسلام» اسمًا لها وتلتزم بالخط الإسلامي منهجًا وهدفًا.

ويرى آخرون ـ وهم كثيرون ـ أن الصحافة الإسلامية هي التي تلتزم بالخط الإسلامي منهجًا وهدفًا حتى ولو لم تضع شارة الإسلام أو تضع كلمة تدور حول معنى إسلامي أو هيئة إسلامية . . لأن العبرة بالمضمون لا بالشكل.

والحقيقة أن هذا ليس جوهر الخلاف، بل الخلاف الحقيقي الذي نثيره هنا ونريد هنا أن ننتهز هذه الفرصة لتوضيحه، هو «ماذا نعني بكلمتي صحافة وإسلامية؟ ففي المفهوم الغالب أن كلمة: «صحافة إسلامية» تعني مجلة أو جريدة أو دورية تدعو إلى الإسلام بأسلوب تقريري. . وكأنها مجلة «إعلانات». . وهذا المفهوم في الحقيقة يقضي على «أسس الصحافة» كفَنٍّ، ويجعلها منبرًا خطابيًا يلتزم الأسلوب نفسه الذي يلتزمه خطيب المسجد، مع أنه من الضروري بمكان أن يكون هناك فروق بين الدعوة إلى القيم وعلاج المشكلات في المسجد. . والدعوة وعلاجها عن طريق الصحافة أو عن طريق أي فن من الفنون.

وتوضيح ذلك أننا لا نغمط المسجد حقه ولا نعيب على خطيبه أسلوبه المباشر التقريري الواضح، بل هو أسلوب ضروري ومهم جدا. وكل ما هنالك أن

النفس البشرية ومثلها العقل الإنساني، كائنان معقدان قد لا يصلح معهما أحيانًا الأسلوب التقريري الحاسم، وقد يحتاجان في كثير من الأحايين إلى أسلوب في العرض وطريقة في الحوار والإقناع غير الطريقة المباشرة أو الطريقة الحاسمة التي تفترض الإيمان المطلق والتسليم البديهي.

ففي رأينا أن «الصحافة الإسلامية» ليس شرطًا أن تضع «لافتة» تبين خطها الفكري الواضح، وليس شرطًا كذلك أن تقيد نفسها «بأسلوب تقريري» قد يكون منفرًا، أو إعلانيا، وليس شرطًا أيضًا أن تلتزم في عملها بشكل معين أو قضايا معينة.. وإنما يجب عليها أن تتوافر فيها الأبجديات والأساسيات التالية:

١ - ألا تحمل لافتة تتناقض مع أساسية في التصور الإسلامي أو أساسية في الفكر الإسلامي العام.

٢ - أن تلتزم تدعيم القيم الإسلامية وتتعاطف مع قضايا المسلمين، ولا تنتمي لأعدائهم تصورًا أو أهدافًا.

٣ - أن تلتزم الشروط الإسلامية في الأعمال الفنية فلا تعلي من الشكل على حساب المضمون، ولا تبيح ـ بالتالي ـ الصور العارية ولا «الكذب الصحافي»، ولا «الإثارة» دون فائدة، ولا تعطيل الناس واستغلال أموالهم وأوقاتهم بلا مقابل.

وفي إطار ذلك كله تستطيع أن تتحرك أية جريدة أو مجلة دون أية قيود أخرى.. واثقة من أن كل كلمة وضيئة صادقة، وكل توجيه سياسي أو اجتماعي يعتمد القصة أو الرسم أو المقالة أو التحليل الإخباري أو التعليق على الأحداث أو ما سوى ذلك، هو من باب «الصحافة الإسلامية»، فالإسلام «صياغة للحياة» وليس «كهنوتًا لاهوتيا» أو «ديرًا للزاهدين أو الفاشلين»، بل هو حضارة كاملة تستوعب كل أنشطة الحياة التي تدعم الخير والمعروف بمعناهما الكبير الفسيح.

الصحَافة الإسلامية المعَاصرَة:

توجد في العالم الإسلامي الآن عشرات الصحف التي تتخذ من «كلمة الإسلام» ـ وما يدور في فلكها ـ خطا واضحًا لها.. وثمة صحف «ذات خط إسلامي» وإن لم تضع كلمة الإسلام عنوانًا لها. ومن هذه الصحف المعروفة (المجتمع ، والبلاغ) في الكويت، و(الشهاب) في لبنان، و (أردو ديجست) في الباكستان ،و (المعرفة) في تونس ، و (الأصالة) في الجزائر، و (الجمعية

الأسبوعية) في الهند وغيرها.

وهناك صحف أخرى تضع كلمة الإسلام شارة لها، إلا أنها من وجهة النظر الإسلامية الجماهيرية تعبر عن «فئات» أو نظم أو اتجاهات سياسية رسمية، وهذه الصحف أو المجلات معروفة، ولسنا في حاجة إلى ذكرها، كما أن هذه الصحف ليست مناط بحثنا.. فالعبرة ـ عند دراسة أية ظاهرة ـ بمضمون الظاهرة حيث يوجد.. وليس بشكلها الذي يزعم البعض أنه يضم ذلك المضمون المفترى عليه.

وثمة صحف أخرى هي التي تنتظم الساحة الإسلامية أو العربية وتحمل كلمة الإسلام راية لها وتعمل ـ مخلصة ـ على أن تكون صوت الإسلام المدافع عنه.. ومن هذه الصحف:

* في مصر: لواء الإسلام، والأزهر، والمختار الإسلامي، والهدى النبوي، والتوحيد، ونور الإسلام ، ومنبر الإسلام. وقد أوقفت: الدعوة، والاعتصام.

* في سوريا: (حضارة الإسلام).

* وفي العراق: (التربية الإسلامية).

* وفي الجزائر: (الأصالة، والرسالة) وقد أوقفتا، وتوجد (البشير، والإصلاح) وغيرهما.

* وفي لبنان: «الفكر الإسلامي، والشهاب» وقد توقف صدورهما في الحرب اللبنانية، ثم عادت الأولى إلى الظهور وظهرت (الأمان) بعد ذلك.

* ولا توجد مجلة إسلامية تعبر عن الفلسطينيين !!

* وفي المغرب: «الوعد الحق والاعتصام المغربية والإيمان المغربية».

* وفي الكويت: «المجتمع والبلاغ والوعي الإسلامي».

* وفي السعودية: (الدعوة، والتضامن الإسلامي، والرابطة الإسلامية، وأخبار العالم الإسلامي، ومجلة البحوث الإسلامية)... ومجلات شرعية متخصصة.

* وفي الإمارات العربية: (منار الإسلام ، والإصلاح).

* وفي عمان: (الوحي).

* وفي اليمن: (الإرشاد).

* وفي تونس: (جوهر الإسلام، والمعرفة، والمجتمع) وقد أوقفت مجلة جوهر الإسلام!!

* وفي قطر :(الأمة) وقد أوقفت أيضًا.

* وفي مناطق أخرى من العالم تصدر بعض الصحف ، بعضها يظهر فيه ضعف الإمكانات مثل (الغرباء)، وبعضها دوري مثل (أضواء الشريعة)، وبعضها يعبر عن نزعة مذهبية بالغة الضيق ولا تكاد تنظر إلى العالم الإسلامي ومشكلاته ولا إلى الإسلام نفسه بعين مجردة بل بعين طائفية حزبية ضيقة. . ولا حاجة بنا هنا لتتبع هذه المجلات.

وحسبنا أن نرصد من هذا العدد - الذي قدمناه كنموذج ومثال - بعض الظواهر التي تستحق التسجيل بالنسبة لواقع الصحافة الإسلامية:

١ - إن الصحافة الإسلامية تكاد تكون معدومة في بعض بلدان العالم العربي.

٢ - إن هذه الصحافة - في مجملها - متخلفة إعلاميا - على الأقل - عن الصحافة الأخرى التي لا تضع شارة «الإسلامية» عنوانًا لها.

٣ - إنه من بين هذه الصحف لا تصدر صحيفة واحدة «يومية» تحمل شعار الإسلام أو منهجه، وهذا يعني أن «الصحافة الإخبارية» غير موجودة. . إذ إن الجريدة أو المجلة الأسبوعية فضلاً عن الشهرية لا تستطيع إطلاقًا ملاحقة الحدث الإخباري في عصر الإذاعة والتلفاز ووكالات الأنباء والتليفون، و« التلكس»، والإنترنت .

٤ - إن هذه الصحافة - بالتالي - صحافة رأي تتجه أكثر مما تتجه إلى التلقين المباشر والمنطلق من الفكر أكثر مما تنطلق من الواقع الذي يلتمس العلاج من الفكر كما يلتمس الاستهداء بضوئه.

٥ - ومن البديهي أن هذه الصحافة لا رابطة بينها ولا تخطيط يجمعها، بل لا يوجد تصور عام (إسلامي وعصري) يقود خطواتها.

٦ - وهي ـ في أغلبها ـ جهود فردية أو صحافة حكومية ملتزمة أو تصدر عن جمعيات .

٧ - ولنا أن نتخيل أن تلك الصحف ـ في مجملها ـ قليلة الأعداد قليلة التوزيع والانتشار، قليلة الإسهام في توجيه الرأي العام. وذلك ـ بالطبع ـ باستثناء صحف تعد على أصابع اليد الواحدة.

مستقبَل الصحافة الإسْلامية :

إن من الصعب أن نطالب هذه الصحف بأن ينتظمها تخطيط واحد فذلك مطلب عاطفي لا يقدم جديدًا. ومن الصعب كذلك أن نطالب هذه الصحف بأن تكون أكثر عصرية وأكثر فنية وأكثر وعيًا بأساليب العمل الصحافي المعاصر، ومن الصعب كذلك أن نقول لهذه الصحف: إن العمل الصحافي في هذا العصر يحتاج لإمكانات فنية وإلى مناخ شورى، «ديمقراطي» وإلى «إمكانات مادية» لكي يدخل حلبة الصراع على التأثير في الرأي العام واحتوائه.

فعلى الرغم من مشروعية وأهمية كل هذه المطالب إلا أنه ليس من المستساغ أن نطالب بما لا يستطاع ـ في المرحلة الحالية ـ على الأقل.

لكننا ـ إلى جانب ضرورة التنبيه، بإلحاح شديد على المطالب السابقة ـ نرى في البداية ضرورة تحقق الحد الأدنى من أساسيات العمل في هذه الصحف العاملة لهدف خدمة القضية الإسلامية.

وَرَقَة عَمَل

وهذا الحد الأدنى يتركز في النقاط الآتية، نتقدم بها كورقة عمل قابلة للقبول والرفض ـ والحوار ـ لكي تصل هذه الصحافة إلى التقدم المنشود.

أولاً : تغيير مفهوم تصورنا لكلمة «الإسلامية» بحيث يتسع هذا التصور ليشمل أكثر من صورة تعبيرية، ولكي يؤمن بضرورة العمل الاجتماعي والاقتصادي والفكري من خلال المشاركة في كل أنشطة الحياة الإيجابية والبناءة، وكل ما ينضوي تحت هذا التصور الفسيح يكون عملاً إسلاميا، سواء حقق غرضه بالمقالة المباشرة أو بالرسم الكاريكاتوري أو بالصورة الطبيعية أو بالقصة أو الرواية المسلسلة أو التحليل الإخباري أو ما سوى ذلك.

ثانيًا : العمل على إقناع إحدى الحكومات الإسلامية بإنشاء صحيفة يومية

إسلامية تسد الفراغ في الخبر الذي تتفرد به وكالات الأنباء اليهودية والصحف اليهودية . وبديهي أن المطالبة بإنشاء وكالة أنباء إسلامية أمر مهم لإنجاح مثل هذه الصحيفة وغيرها.

ثالثًا : العمل على تقديم «البدائل» بحيث لا يكون العمل الصحافي الإسلامي مقصورًا على رفض ما يقدمه الآخرون، والدخول في معارك معهم وإنما يتسع ليشمل تقديم البدائل. وعلى سبيل المثال بدلاً من أن نكتفي بنقد «السفور» علينا تقديم نماذج «الملابس» متعددة الأذواق تدور كلها في فلك الحفاظ على «الحجاب»، وبدلاً من المتندرين ـ بالصورة أو الكلمة ـ من بعض الأوضاع الإسلامية نقوم نحن بتقديم «النكتة» بالكلمة أو الصورة من الأوضاع المتفسخة في المجتمع. وهكذا بالبحث والمقالة.. يكون التركيز على تقديم البديل.

رابعًا: لابد من النزول إلى الناس ـ صحافيًا ـ والتعرف على مشكلاتهم ومعرفة احتياجاتهم وميولهم، ومحاولة صبغها صبغة إسلامية لجذبهم إلينا، بدل أن تجذبهم صحف «العمال» أو الفلاحين أو الصحافة العلمانية أو الماركسية الأخرى إلى صفّها بدعوى الدفاع عنهم وتبني مشكلاتهم، وهي أبعد ما تكون عن ذلك كله.

خامسًا : الاهتمام بالطفل والمرأة في هذه الصحافة، إذ إنها تبدو وكأنها لا تكلم إلا الشيوخ، و إلا قليلاً من الشبان المؤمنين أساسًا بالفكرة الإسلامية.. فكأنها تكلم نفسها في كثير من الأحايين.

والاقتراحات كثيرة .. لكننا هنا نقدم هذه الورقة بداية لدراسة أوسع ولحوار نرجو أن يكون كبيرًا... وهادفًا... وشاملاً... إنها مجرد «ورقة عمل» وكفى!!

قصَّــة الإيمَــان بين الفلسفة والعلم والقرآن
(محاوَلة جادة لغرس بذور الإيمان في وجه الإلحاد)

هذه وقفة من الوقفات النادرة التي تظهر بين الحين والحين، فتفرض نفسها على حركة الفكر، بحيث تبقى بصماتها أمدًا طويلاً .. إنها (قصة الإيمان) التي قدمها الشيخ نديم الجسر، مفتى طرابلس لبنان ، رحمه الله رحمة واسعة!!

- وقد اختار الكاتب «الحوار القصصي» إطارًا لمعالجة قضايا الفكر العميقة، أو هكذا ألقى إليه الكتاب كما يقول، فجاء الكتاب سفْرًا مشوقًا يشبه تلك التحفة النادرة التي كتبها «ول ديورانت» ، وأسماها مباهج الفلسفة.

وتبدأ القصة ، من حيث يخيل لبعض العقول أنَّ هناك صراعًا بين العلم و الدين الصحيح، فترفض معالجة خلجات العقل البشري بالإقناع الحكيم، وهكذا وقع (حيران بن الأضعف المائي البنجابي) - بطل القصة - في صراع الشك، وبدأ رحلته في البحث عن الحقيقة ، يقوده عالم مؤمن فقيه بالقرآن هو الشيخ (أبو النور الموزون السمرقندي).

وهي رحلة - بحق - طويلة وعميقة استغرقت تفاصيلها في دروب العلم والفلسفة والدين مساحة كبيرة!!

بدأت الرحلة من (مبحث الوجود) و (مبحث المعرفة)؛ لأنهما الميدانان اللذان انطلق العقل منهما يبحث عن الله . و هكذا كانت مسيرة الفلاسفة اليونانيين الذين، وإن تخبطوا في إقدار الله حق قدره، إلا أنهم - على العموم - مثلوا أول مرحلة (فكرية) جادة في مسيرة تعرف العقل البشري - بالعقل نفسه - على الخالق العظيم. فطاليس ، وانكسمينس، وإنكسيمندر، وفيثاغورث، وبارمنيدرس، وهرقليط، وديموقريطس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو. . . هؤلاء جميعًا - وغيرهم - كانوا - على الرغم من كثير من السذاجات التي انحدروا إليها - المقدمة البارزة في رحلة تسليم العقل بالخالق المتعال.

فلما جاء مفكرو الإسلام جمعوا إلي إيمان الوحي الصادق، إيمان العقل السليم، فتخلصوا من تلك السذاجات التي شابت مرحلة البحث العقلي - دون

عون الوحي ـ عن الله سبحانه وتعالى . وهكذا كان الرازي والفارابي وابن سينا وابن مسكويه وابن طفيل من أعظم المؤمنين بالله ـ كما يقول المؤلف ـ وقد أثبتوا أن (نتاج الفكر الصحيح لا يتنافى أبدًا مع الدين الحق في إثبات وجود الله ووحدانيته)، ولم يستطع المفكرون المحدثون أن يغيروا من هذه الحقيقة شيئًا، بل إن أكثرهم عمقوها ووصلوا بها إلى أن تصبح حقيقة بديهية، على الرغم من محاولات بعض المنحرفين من أنصار المذهب المادي، وأشهرهم «أرنست هيجل» الألماني صاحب نظرية «التولد الذاتي».

إن تعبير ديكارت القريب التناول: «إنني موجود فمن أوجدني ومن خلقني؟ إنني لم أخلق نفسي فلابُد لي من خالق» ليس أكثر من ترجمة ذكية للتعبير القرآني ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] .

وبالتالي ، فإن «المرحلة القرآنية» كانت فيصلاً كبيرًا رشح الفكر البشري بعدها بتأثيرات الوحي الصادق، وجسمت ـ بالتالي ـ القضية لصالح الإيمان.

لقد سقطت نظرية المصادفة ، وسقطت نظرية الانبعاث الذاتي ، وسقطت بقية نظريات الفكر المادي، وثبتت قواعد الإيمان، ليس عن طريق (نَفْي) النظريات المتداعية فحسب، بل عن طريق(إثبات) أحقية الدين ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] . . وقد استطاع المؤلف أن يضع عشرات الآيات القرآنية في مكانها الاستدلالي المناسب، فجاءت وكأنها المصابيح المتألقة وسط أمواج الفكر البشري المتلاطمة.

سواء شئنا أم أبينا فإن العالم من حولنا مجموعة عظيمة من التصميم والإبداع والتنظيم، ورغم استقلال بعضها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة وكل منها أكثر تعقيدًا في كل ذرة من ذرات تركيبها من المخ الإلكتروني.

إن ما يحدث في عالم النبات من تلقيح بين ذكورة وأنوثة بعيدة، ومن علاقات توافقية اضطرارية أحيانًا، ومن هرمونات تقوم بأداء وظائف مختلفة، ليدلنا على أن عالم النبات يخضع لتفاعلات دقيقة، وحركة منظمة، وقوانين ثابتة.

إن جميع النباتات والحيوانات لم تخلق لكي تعيش في بيئة ثابتة محددة الأوصاف، بل إن لديها من الاستعدادات ما يجعلها قادرة على مسايرة الأجواء والظروف الأخرى في حالة الاضطرار، فمن الذي زودها بأدوات القدرة على التكيف؟!!

ومنذ أكثر من مائة سنة رتب العالم الروسي « مندلييف » العناصر الكيماوية تبعًا لتزايد أوزانها الذرّية ترتيبًا دوريا، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد المصادفة، وقد تنبأ العلماء بفضل هذا الترتيب بوجود عناصر لم يكن البشر قد توصلوا إليها بعد؟

وهذا الإنسان الذي لا يعدو في البداية أن يكون بيضة مثل بيضة الدجاجة، قطرها يتراوح بين جزء وجزأين من ٢٤٠ جزءًا من القيراط ، ووزنها جزء من مليون جزء من الجرام، وهي تتلاقح مع حيوان منوي ذكر صغير جدا بالنسبة إليها؛ لأن طوله عبارة عن (٦٠ جزءًا من ألف من المليمتر) وهو يتمتع بذكاء يسمح له: أن يعبر إليها ؛ طريق الرحم الشاق!! ويكون لنفسه رأسًا مكورًا يستطيع بها أن يخرق جدار البيضة الهائل بالنسبة إليه!! ويضع نهرًا من الماء يسبح فيه، مستخدمًا حركة لولبية تساعده على اللحاق بالبويضة في الوقت المناسب، وصانعًا بعنقه ذيلاً يساعده على السباحة في بحر الرحم، وربط هذا الذيل ربطًا دقيقًا بأنشوطة يستطيع أن ينفك منها إذ دخل إلى البويضة !!

وعندما يلتقي بأنثاه يجدها قد أعدت له حفلة استقبال شخصية، وطردت شر طردة مائتي مليون من الحيوانات المنافسة كانت تسعى إليها، وفتحت له إلى قلبها بابًا خاصًا يسمى باب الجاذبية ، فإذا دخل أغلق الباب وعاشا معًا في بيت الزوجية الذي يستعد كل شهر لاستقبال العروسين وإيوائهما وإطعامهما، فتنتفخ خلايا غشائه المخاطي، وتتسع شعيراته الدموية، وتنشط الغدد!!

وتمضي الرحلة المشتركة بين الزوجين في بيت الرحم المضياف، يتبادلان الهدايا الوراثية وعناصر التخطيط النووي (الكروموسومات) و (الجينات) حتى يعبرا رحلة أخرى طويلة في اتحاد تام، وكل يوم من أيام هذه الرحلة حافل بإعجاز خاص. فإذا خرجا إلى العالم كانا إنسانًا سويا آخر، يحمل في حيازه الدماغي والجسمي من آيات الإعجاز الإلهي ما يكفي وحده أقوى دليل لوجود رحلة اتساق وانسجام ونظام دقيق يسيرها إله مبدع لهذا الكون؟!! ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١]

الرَّجل الصَّنَم «مصطفى كمال أتاتورك»

عرض لقضية سقوط الخلافة والتحدي العلماني

(نموذج لأوثان كثيرة صُنعت للعالم العربي والإسلامي بديلاً عن الإسلام)

مقـدمــة :

(أغرب قرار في العصر الحديث)

إنه أغرب قرار في التاريخ الحديث دون شك !!

لقد اتخذت حكومة من الحكومات قرارًا بأن تطمس معالم الحقيقة بقوة القانون. . . بحيث يحاكم ويسجن كل من يحاول كشف الحقيقة المستورة!!

وإذا كان «عباس العقاد» يصف «التاريخ» بأنه «يُكَذِّب من شاء ولا يستحي» فلأول مرة نجد حكومة تتخذ قرارًا بإغلاق فم التاريخ إلى الأبد. . . وإذا تكلم أحد بالطريقة التاريخية التقويمية المحايدة، فإن السجن ما بين (٣، ٥) سنوات في انتظاره !!

وهكذا يقضي القانون التركي على كل محاولة (تاريخية وثائقية منصفة) للكشف عـن حقيقـة دور هـذه الشخصية التي يكتنـف الغمـوض أكثر معابـر حياتها . . . على الرغم من أن «مصطفى كمال أتاتورك» قد رحل عن هذا العالم في الساعة التاسعة وخمس دقائق من يوم الخميس عاشر أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وثمان وثلاثين . . . لكنه مع ذلك ما زال بقوة القرار التركي الغريب «أغمض شخصية في التاريخ الحديث»!!

استنتاج ضَروري :

ونحن مضطرون هنا للإدلاء بهذا الاستنتاج الواضح. . . وهو أن الحتمية العقلية والمنطقية توجب أن يكون في مسيرة هذه الشخصية «مناطق محرمة» و«مسالك ملتوية» تصل إلى درجة أن إظهارها يكفل تجريد هذه الشخصية من كل مميزاتها التاريخية وبطولاتها الوطنية، ويهبط بها إلى درجة ربما تؤثر كل التأثير على المستفيدين من منهجه، المتاجرين ببطولاته المصنوعة. . . وإلا فما هذه الحماية القانونية لسيرته بعد أربعين عامًا ؟!!

ولنفترض جدلاً أن له بعض الهفوات . . فهذا هو شأن البشر، وأمرها لا يقتضي كل هذه الحماية القانونية . . فليس ثمة سبيل إلا سبيل واحد. . هو أن هناك أشياء كبيرة جدا في حياة «أتاتورك» ـ ويمثل ظهورها إسقاطًا لكل مناحي عظمته على المستوى الشخصي أو على المستوى الوطني. . . فضلا عن المستوى الإسلامي العام. . . ولربما تكون كل حياته «خيانة عظمى» ضد تركيا والإسلام والمسلمين.

ولم يحاول تركي واحد أن يكتب كتابة تاريخية عن أتاتورك ، وكل ما صدر خلال الأربعين عامًا الماضية لا يعدو أن يكون نشرات إعلامية سياسية، تشبه تلك الجرائد التي تصدر في البلاد الاشتراكية أو الاستبدادية ، على الرغم من أن تركيا ـ وبحق ـ تعيش جوا تسوده الديمقراطية. . نعم، ديمقراطية في كل شيء. . . في السياسة . . . وفي الدين . . . وفي الاقتصاد. . . وفي كل شيء. . . إلا في ذلك الشيء الواحد، أعني تلك المنطقة المحرمة. . . منطقة «كمال أتاتورك» التي بقيت وحدها فوق الديمقراطية . . . وفوق الدين . . . وفوق كل القيم والمثل والنظم!!

وعندما حاول «ضابط تركي سابق» أن يكتب مذكراته عن أتاتورك، وجمعها في كتاب أطلق عليه اسم (الرجل الصنم) لم يستطع المسكين أن يكتب اسمه. . لأنه لم يكن على استعداد أن يدخل السجن. . . من أجل عيون التاريخ!!!

ومع أننا نعتبر هذا الكتاب هو العمل الوحيد الذي يحمل وجهة نظر معاكسة لكل الكتب الإعلامية التي صدرت.

ومع أننا نميل إلى أن ما فيه يصل إلى درجة كبيرة من الصدق. . . إلا أننا نظرًا لعدم معرفة المؤلف، مضطرون لأن نعتمد على هذا الكتاب بشيء من الحذر. وسنجمع بين ما قاله ، وما أكدته مسيرة الأحداث، وما ذكره أصدقاء ومؤلهو أتاتورك في نسق واحد ، مستخلصين الحقائق من خلال المقارنة والنظرة الموضوعية.

جوانب شخصية لا تعنينا كثيراً :

ومع أنني لا أميل إلى ما يميل إليه بعضهم من أن الجوانب الشخصية لا تهم كثيرًا، وأرى أن ثمة علائق متينة بين الجوانب الشخصية في الفكر والسلوك، وبين الجانب العام، فمن لا دين له لا أمانة له.

وقديمًا، بل حديثًا ، ما زال المؤرخون المنهجيون يصفون الحكام بأنهم كانوا

مستقيمي السيرة أو مستهترين ، متحللين، مدمني خمور، إلى آخر ما عرف عنهم من نعوت تصف الجوانب الشخصية للحكام. . . أقول: مع أنني لا أميل إلى ذلك المنهج الذي يفصل بين الجوانب الشخصية والعامة، إلا أنني لن أركز كثيرًا على جزئيات وتفصيلات الجوانب الشخصية في حياة أتاتورك ، وسأكتفي بإيراد ما يشهد به كل أصدقائه وعاشقيه، بل مساعديه على تنفيذ سياسته العلمانية. . . أجل لن أورد إلا ما أراه يصل إلى درجة اليقين، وما أراه وثيق الصلة ـ على نحو مجمل ـ بهدف بحثنا.

يقول الكابتن «هـ . س. أرمسترونج» الملحق العسكري الإنجليزي في تركيا أيام أتاتورك ، ونحن نرجح أنه كان أحد مساعديه في تنفيذ خطته، وقد كتب كتابه (الذئب الأغبر) مدحًا في أتاتورك، ومع ذلك فقد اعترف ببعض الحقائق المهمة[1].

يقول في كتابه آنف الذكر عن أتاتورك [2]:

«لقد كان بفطرته ثائرًا لا يحترم دينًا أو إنسانًا أو وضعًا من الأوضاع، ولا يقدس شيئًا على الإطلاق».

ويقول في موضع آخر من كتابه:

«على أن أتاتورك كان أقرب إلى السجية في صلاته بالرجال، ثم بالنساء الماجنات. . . فكان مع هؤلاء وهؤلاء يشرب ويلهو كل ليلة حتى مطلع الفجر في المقاهي وأوكار الغرام، كما كان يقامر ويلعب النرد ساعات طويلة. . وقد مارس جميع الرذائل ، وجرب كل الموبقات، وانغمس فيها حتى أذنيه، ثم دفع الثمن مرضًا جنسيا وصحة منهارة».

ويقول صديقه الحميم صاحب كتاب (جانكايا): «كان كمال أنيقًا يجيد الرقص ويشرب ويلهو، وعندما يشرب ويسكر كان يصبح قاسيًا إلى درجة الفظاظة».

ويتحدث «أرمسترونج» عن حياته أيام الهدنات العسكرية ، فيقول :

«كان ولوعًا بالأحاديث الخليعة والإفراط في الشرب، والمغامرات الماجنة والليالي الحمراء في رفقة النساء» (ص١٠٥).

ونحن نكتفي بهذا القدر دون أن ننقل سائر الاقتباسات ، أو نذكر تفصيلات تلك الحكايات الطويلة من صفحات مجونه التي ذهب ضحيتها عشرات الفتيات

---

(١) ص ٢٥ .   (٢) ص ٥٢ .

اللاتي اختطفهن أحيانًا، أو أرغمهن أحيانًا، أو خدعهن بوعود كاذبة أو جاءه بهن هواة المناصب، ومنهن زوجات لبعض أصدقائه السفهاء.

ونحن نترك ما أثير من شذوذه، كما أننا نترك ما قيل عن أصله، والخلاف حول والده ووالدته. . . وأسباب طلاق زوجته منه «لطيفة هانم»، وصور نفوره من والديه ـ نترك كل هذا ـ وأكثر منه ؛ لأننا نريد الاحتفاظ بوقار هذه الصفحات.

ونحن بالتالي نعتمد ما شاع من أن أمه «زبيدة» كانت تركية الأصل، ومن أن أباه كان«على رضا أفندي» ومن أنه ولد في سلانيك عام ١٨٨٠م (١٢٩٦هـ) ونترك الخلافات في هذه القضايا إلى أن تظهر وثائق محددة. وما ذلك ببعيد !!

أتاتورك والماسونية :

ذكرنا أننا لن نعتمد في مقالنا هذا إلا تلك الحقائق المتواترة التي يعترف بها الأصدقاء والخصوم معًا. . ونؤكد هنا أننا لو تركنا أنفسنا للكتابات التي تحدثت عن أتاتورك من وجهة نظر مسيرة الأحداث. . ومن المعلومات الخاصة والمباشرة الوثيقة الصلة، والتي ربما تعكس ـ بحكم الالتحام ـ نوعًا من العنصر الشخصي والرؤية الذاتية . . . لو أننا فعلنا هذا ـ مع أنه منهج سليم ومعترف به ـ لوصلنا من أول المطاف إلى أن أتاتورك ليس أكثر من «صنم» ركبه الإنجليز للقضاء على كل أحلام الأتراك العظيمة ، وللقضاء على كل الوشائج التي تربط تركيا بالعالم الإسلامي. . ولإلغاء الخلافة . . وهلم جرا . . !!

ومن الحقائق المتواترة والواردة في كل الدراسات . . . صلة «أتاتورك» بالماسونية. . . وصلته في مرحلة كبيرة من عمله السياسي والعسكري بجماعة الاتحاد والترقي التي كانت نبتة ماسونية بحتة، بلغ الأمر بها أنها كانت تعقد اجتماعاتها في بيوت اليهود، وتعتمد في ميزانيتها عليهم، كما أن الحاخام «حاييم ناعوم» كان يرعاها ، ويرعى جماعة أتاتورك في وقت واحد.

ويتحدث الكاتب الألماني الكبير «داجوبرت فون ميكوسن» ـ وهو أحد المعجبين بأتاتورك ـ عن صلة الماسونية (وهي الجمعية اليهودية التي تسعى للسيطرة على العالم) بجمعية الاتحاد والترقي وبأتاتورك. . فيقول:

«كانت المحافل الماسونية، وعلى الأخص المحفل الإيطالي الأكبر في سلانيك ترحِب بأعمال هذه الجمعية، وكانت الجلسات تعقد في غرف المحافل

الماسونية التي يستحيل على الجواسيس أن يصلوا إليها مهما بذلوا من جهد. وكان كثير من أعضاء هذه المحافل مندمجين في جمعية الاتحاد والترقي . وبهذه الوسيلة استطاعت الجمعية أن تضاعف عددها وتقوى نفوذها بفضل المعونة التي كانت تتلقاها من الأحرار، كما أن أعضاء الاتحاد والترقي كانوا ينتفعون بالأساليب الماسونية في الاتصال بإستنبول، بل في التقرب من القصر ذاته» (انظر كتابه: كمال أتاتورك المثل الأعلى)[1].

ويقول عن أتاتورك: «ومن المحقق أن أتاتورك وإن كان لم يصل إلى درجة رفيعة، فإنه كان على اتصال بالجمعية، لكن الجمعية كانت تعرف هياجه السياسي فلا تسمح له بشيء» [2].

ويقول «أرمسترونج» عن صلة الاتحاد والترقي وأتاتورك بالماسونية:

«لقد دأب أعضاء الاتحاد والترقي على الاحتماء بحصانة اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر.. وقد انضم أكثرهم إلى جماعة الماسونية، و صاروا يتلقون الإعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات!! وقد راقبت جماعة الاتحاد والترقي كمال أتاتورك ، ثم دعته إلى الانضمام لصفوفها بعد أن وثقت بأمانته وحسن نواياه» [3].

أما ما عرف عن خلافات أتاتورك مع الاتحاد والترقي فهو خلاف شخصي بينه وبين «أنور باشا» على السلطة، وأما إغلاق أتاتورك لمحافل الماسونية بعد أن استتب له الأمر تمامًا واقترب من حافة الموت، فقد كان تفسيره الذي ذكره المؤرخون أنه رغب في الحصول على درجة «المشرق الأعظم» ولم يستطع !!

وتحمل الوثيقة رقم (٣٠) الملحقة بكتاب «الرجل الصنم» (للضابط التركي السابق) تفسير خلافات أتاتورك مع الماسونيين.

فتقول: « إن سبب قيام مصطفى كمال باشا بإغلاق المحافل الماسونية هو أن هذه المحافل لم تعط للباشا درجة المشرق الأعظم، وقد حقد عليهم لهذا السبب»!!

وبالطبع فإن أتاتورك كان يعتقد أنه قدم للماسونية أعظم الخدمات، لكنهم من جانبهم كانوا يعتقدون أنهم خدموه أيضًا حين أعطوه حكم تركيا والأناضول.

---

(١) ص ٥٨.   (٢) المصدر السابق ص ٥٩.   (٣) الذئب الأغبر ص ٢٩ .

رَجُـل الدِّمَـــاء:

وفي سبيل وصوله إلى الحكم، وتبرير ألاعيبه السياسية، أسال أتاتورك أنهارًا من دماء المسلمين، ونحن نذكر بعض ضحاياه على سبيل المثال لا الحصر.

ويعتبر مقتل «علي شكري» ـ الذي مثل زعامة المعارضة ضد إجراءات أتاتورك الاستبدادية ـ أول ضحية بارزة من ضحاياه. . . وقد اغتاله مصطفى كمال بواسطة رئيس الحرس الشعبي «توبال عثمان»، وألقى بجسده داخل شوال في إحدى الحفر.

وبعد علي شكري تتابعت الاغتيالات واختلاق المؤامرات للأبرياء الذين يشك في ولائهم، فاغتال رئيس حرسه السابق «توبال عثمان» وأعدم البطل «ضياء الدين خورشيد» ثم كاظم قره بكر، وعلي فؤاد باشا، وجعفر طيار باشا، ومارسيني جمال باشا، ورفعت باشا، وجاويد ، والدكتور ناظم، وصاري أنه ، ورشدي باشا،وخالص توركوت، والوالي عبد القادر، وقرة كمال، وكل هؤلاء من أصدقائه القدامى، وهم من علية تركيا ونوابها وزعمائها.

وثمة عشرات من شيوخ الطرق الصوفية، وعشرات من العلماء، وعشرات من العسكريين ، ومئات من البسطاء، قد قضى عليهم أتاتورك. . الذي لم يتحمل أية كلمة نقد ضد إجراءاته المدمرة.

ونقتطف هذه اللفظة التي تصلح دليلاً على سلوكيات أتاتورك كلها، فإن وزير المعارف «شكري» الذي حكم عليه أتاتورك بالإعدام، قد انقطع به حبل المشنقة فلم يملك المسكين نفسه إلا أن يقول وهو في آخر لحظاته:

ـ إن حبالكم رديئة مثل كل أعمالكم!!

هذا هو أتاتورك . . رجل الدماء !!

المجلس الوَطني : حَديقَـة الحيوَانـات:

كان أتاتورك دكتاتورًا من الطراز النادر، وكان يطلق على الحكم الديمقراطي أنه «حكم الرؤوس المشوشة، أو حكم الحمقى» . و قد وجه كلامه بعنف ذات ليلة إلى أصدقائه المحيطين به، ومنهم صَديقته!! خالدة أديب، قائلاً لهم:

«سوف أجعل كل إنسان ينفذ رغباتي ويطيع أوامري، ولن أقبل نقدًا أو

نصيحة. . . سأسير في طريقي الخاص وسوف تنفذون أنتم جميع ما أريده دون مناقشة». (انظر: ص ١٥٠ من الذئب الأغبر).

وعندما كان بصدد إلغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة باسم (العلمانية) جلس متنمرًا في البرلمان، بينما كان مسلحًا، وكل أنصاره مسلحون، ولما وجد أن الغالبية لا تؤيده هب مذعورًا ووضع أنصاره أيديهم على مسدساتهم، ومع ذلك فلم ترتفع لتأييده إلا أيد قليلة، لكنه أعلن النتيجة لصالح أغراضه. (انظر: الذئب الأغبر ص١٨٥).

ويذكر «ميكوسن» في كتابه (مصطفى كمال المثل الأعلى) أن «على الذين كانوا يعملون مع أتاتورك أن ينزلوا عند أمره، وأن يسيروا معه وهم لا يدرون إلى أين يقودهم» ولم يكن حزب الشعب الذي قاده أتاتورك إلا حشدًا من أشباه الرجال الذين كانت وظيفتهم تنحصر في التأييد وشرح مقولات إلههم أتاتورك!!

وقد استطاع أتاتورك أن يحول المجلس الوطني المنعقد تحت شعار «السلطة بيد الأمة» إلى معتقل للأسرى. وعندما حصلت غمغمة معارضة في المجلس ذات مرة صاح أتاتورك بأعضائه: «أنا الذي جمعت هذا المجلس وأنا الذي صنعته!!» أي أن المصنوع يجب أن يتبع إرادة الصانع !! وقد قيل له في عهد رئاسته للجمهورية: « إن أحد الأجانب كان في أنقرة وتساءل : لماذا لا توجد حديقة حيوانات؟» .

فقال أتاتورك ـ متهكمًا ـ : «لماذا لم تصحبوه إلى المجلس الوطني ؟!!» .

نفاقه وَخيَانته الوطَنية وَالدينيَّة:

جمع أتاتورك بين صفتين برزتا تمامًا في سلوكه ، وأجمع عليهما الأصدقاء والخصوم، بل إنه شخصيا اعترف بهما دون أن يدري في مذكراته المسماة «الخطابة» إنهما صفتا النفاق والخيانة!!

لقد حاول أتاتورك الاقتراب بكل قوته من السلطان حميد الدين الذي خلف أخاه السلطان عبد الحميد ـ رحمه الله ـ وقد عرض أتاتورك كل خدماته على السلطان الجديد، ويذهب أكثر المؤرخين المنصفين إلى أن السلطان وثق به، وأعطاه بعض الصلاحيات التي كان يطمع فيها في مواجهة منافسه الكبير«أنور باشا» وكان مما قاله أتاتورك للسلطان: «إن كلمة واحدة من جلالتك كفيلة بتقوية الحماسة الوطنية، فاجعلني وزيرًا للحربية في حكومة قوية، وأنا كفيل بإنقاذ تركيا، لكن هذا البرلمان يجب أن يحل فإن نصف النواب خونة. . . وأعضاء في جمعية الاتحاد والترقي وأصدقاء (لأنور)». (انظر: مصطفى كمال المثل الأعلى ص ١٧٥ وما بعدها).

وهكذا ـ كما اعترف أتاتورك بلسانه هو ـ فإنه باع نفسه للسلطان. وإن كان السلطان قد رفض هذه الصفقة ، كما أنه تنكر للجمعية التي ينتمي إليها، ما دام في ذلك مكسب له، ووصم أعضاء البرلمان بالخيانة!!

وهذا الرجل الذي كان يزعم أمام الخليفة بأنه كفيل بإنقاذ تركيا، هو نفسه الذي يكتب في مذكراته . . . قائلاً:

«ولقد أوضحت للأمة كيف أن دولة تركيا وشعبها القليل النفوس لا تستطيع أن تكون رهن إشارة خليفة يفترض فيه أنه مكلف بتأسيس دولة إسلامية شاملة، وأن الأمة لا يمكن أن ترضي بهذا» (انظر: الخطابة، ص ٤٢٥ إلى٤٣٣)!!

ومع ذلك ، ومع زعمه الأخير بأن الأمة التركية لا تقوى على قيادة العالم الإسلامي، وهو زعم باطل؛ لأنها قادته فعلاً أيام رجالاتها العظام لمدة خمسة قرون، مع ذلك فإنه ـ تأكيداً لأسلوبه في النفاق ـ يصدر مرسومه المؤلف من ست مواد بمناسبة يوم افتتاح البرلمان (٢٣ نيسان لعام ١٩٢٠) وفيه «يتعهد بإنقاذ الوطن الإسلامي المقدس والجريح ، وبإنقاذ بلد الخلافة ورعيتها، ويتعهد بضرورة الكفاح في سبيل المقام العالي للسلطنة والخلافة، وإنقاذ الوطن المجزأ والدين والأمة الإسلامية بوجه عام !!»

وهو يأمر بتوزيع هذا المرسوم بالمجان وبنشره في أصغر قرية. (انظر: مذكرات أتاتورك المعروفة باسم الخطابة ص ٢٧٣).

وهو لا يستحي أن يستولي على معونات العالم الإسلامي التي قدمت من الشام ومن مصر ومن إخواننا الهنود ومن سائر بقاع العالم في سبيل إنقاذ دولة الخلافة رمز وحدة المسلمين، لكنه في الوقت نفسه لا يستحي أن يقول لممثل الحكومة الفرنسية : «تستطيعون أن تنالوا سوريا وبلاد العرب، ولكن كفوا أيديكم عن تركيا» [1].

وفي افتتاح مجلس الأمة يقول في خطبته ـ مع تصريحه السابق لممثل الحكومة الفرنسية . . . يقول: « إن سلطاننا هو سلطان جميع المسلمين، وإن الغاية الأولى لجهادنا لا تستهدف الفصل بين مقام السلطة ومقام الخلافة. بل تستهدف الإعلان للأعداء بأن إرادة الأمة ضد هذا الفصل».

* * *

وأنا أزعم بأن ثمة مئات التصريحات والمواقف المتناقضة والمذبذبة مأثورة عن

---

(١) انظر : الذئب الأغبر ص ١٤٢.

أتاتورك. . وإن تتبعها ليس من عملنا في هذا المقام، لكن الذي يجب ألا يفوتني الإلماح إليه، هو تلك المواقف التي تصل في العرف القانوني العام إلى درجة **الخيانة العظمى**. وسأكتفي بالإشارة العابرة لبعضها فقط:

* عندما اشتد الصراع الألماني الإنجليزي أثناء الحرب الأولى حول سوريا، ووصل القائد الألماني الصديق للدولة العثمانية «فالكانهاين» ووضع خطة ضرب إنجلترا في بغداد وفلسطين وشبه جزيرة العرب. . . اعترض على هذه الخطة كمال أتاتورك وهو الذي كان مكلفًا بالدفاع عن سوريا، وقام من تلقاء نفسه بعمل جنوني هو عزل نفسه بنفسه، بما يستحق في قوانين الحرب (الإعدام)، وهو يتباهى بذلك في مذكراته (ص٢٢) ويقول: « متحملاً جميع العواقب، ومخالفًا لكل الأصول والقواعد، وبشكل لا يخلو من العصيان، فقد أعفيت نفسي بنفسي من قيادة الجيش، وأنهيتُ وظيفتي»!!

وقد كان بمقدور أنور باشا رئيس الوزراء ـ بعد هذه الخيانة العسكرية الواضحة ـ أن ينال أتاتورك بالأذى، ولكنه لم يفعل ، مما يدل على أنهما من معدن واحد وإن اختلفت أطماعهما.

بل الأنكى من ذلك أنه عقب هذه الخيانة وصلت إلى جيب أتاتورك (خمسة آلاف ليرة ذهبية) من مصدر وهمي، علمًا بأن هذه الآلاف تساوي اليوم أربعة ملايين ليرة تركية، وهو مبلغ خيالي بالنسبة إلى القدرة الشرائية للعملة في هذا الزمان (انظر: مصطفى المثل الأعلى ص ١٥٢). ولا أحد يدري حتى اليوم سر هذه الآلاف الخمسة، وإن كان ثبوتها مجمعًا عليه من جميع المؤرخين له (وانظر أيضًا: الذئب الأغبر ص ٨٠)!

* وعندما تمكنت الجيوش الإنجليزية من زحزحة الجيوش التركية إلى الشمال، وكانت لا تزال بعيدة عن النتيجة الحاسمة، اتفق مصطفى كمال مع القائد الإنجليزي «اللينبي» سرا ، وبانسحاب فجائي يحرم الجيش التركي من ذراعي أو ركني الاستناد، ويؤدي بذلك إلى وقوع الجيش في يد الأعداء، وهذه الحادثة ثابتة، أما عن عملية الاتفاق السري فهي اجتهاد من بعض المؤرخين، ومنهم الضابط التركي السابق، صاحب كتاب «أتاتورك، الرجل الصنم» (انظر: ص ٦٨) وقد اعترف أتاتورك بأمره بالانسحاب دون مواجهة وإن كان قد أخفى اتفاقه السري بالطبع. (انظر: مذكراته ص ٦٧، ٦٨) وهو في مذكراته تلك يعتبر عمله هذا (عملاً جنونيا) لكننا نلتمس له تفسيرات أخرى نراها قريبة من التفسير السابق. . أعني تفسير الخيانة والاتفاقات السرية!

وإلى الآن لم تتضح حقيقة العلاقة التي ربطت بين أتاتورك، وبين كيرزون

الدبلوماسي الإنجليزي ، لكننا نعلم أن كيرزون كان يتبادل مع أتاتورك رسائل بالشفرة، على أساسها اقترح كيرزون فتح جبهة قتال ضد مسلمي قفقاسيا، وذلك بعد أن فتح الطريق أمام الشيوعيين بينما كان أتاتورك يلعب على الحبلين معًا: حبل البلاشفة، وحبل الإنجليز.

وكيرزون هذا هو الذي أيد استقلال تركيا العلمانية الأتاتوركية المعادية للإسلام في مؤتمر الصلح !!

وعندما رجع أتاتورك من معركة (صفاريا) ظافرًا، بعد أن كان مهزومًا وقد تم النصر بتمثيلية واضحة. طلب من البرلمان أغرب طلب يمكن أن يطلبه إنسان فيه أدنى وطنية. . لقد طلب مكافأة قدرها أربعة ملايين ليرة، كما طلب منحه لقب (الغازي)، وقد نجح في الثانية وأخفق في الأولى. لكن عبرة هذا الطلب هي نظرة أتاتورك إلى نفسه وكأنه مأجور وليس مواطنًا دافع عن أرض وطنه. (انظر : كتاب حياتي وذكرياتي، المجلد الثالث للدكتور رضا نور، وزير الخارجية أيام أتاتورك، الجزء الثالث ص ٨٧٣).

ويقول الدكتور رضا نور في (ص ٩٨٢) من كتابه السابق (وكان رضا نور نائب رئيس الوفد التركي في مؤتمر لوزان الذي أنهى تركيا الخلافة وأقر تركيا أتاتورك فقط) ـ يقول: « إن أتاتورك جذبني مع عصمت إلى أحد الأركان، حيث قال لنا: إن من صلاحيتكم التنازل عن (تراقية) ، بل إن من حقكم التضحية حتى بإستنبول ، أما الموصل وما حولها فلا تحاولوا شيئًا بخصوصها».

أي أن أتاتورك كان على استعداد للتنازل عن أي شيء في سبيل أن يحكم أية دولة، يمكن أن يتفضل بها أعداء تركيا الإسلامية ! وتطوي هذه الصفحات التي لا تريد أن تطوى !!

تَنفيذ كل طلبَات الإنجليز:

وفي يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٢م دعت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا إلى عقد مؤتمر في لوزان، لتقسيم أملاك الرجل المريض «الدولة العثمانية » في ظل زوال حكومة القسطنطينية الإسلامية ، وتمثيل حكومة أنقرة الكمالية.

وقد افتتح المؤتمر في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢م واستمر منعقدًا حتى ٤ فبراير ١٩٢٣م حين باء بالفشل وظل الحوار مفقودًا في العلن، وإن كان يجري من خلف الكواليس، إلى أن تقدمت حكومة أتاتورك بمقترحات ظاهرية، وإن كان الأمر قد عولج باطنًا، فأعيد فتح المؤتمر في ٢٣ أبريل من نفس العام، حيث لم يستغرق الأمر طويلاً

فاتفق المؤتمر على توقيع معاهدة لوزان في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٣م !!

وقد تضمنت المعاهدة سبع عشرة وثيقة، كما تضمنت بعض الرسائل المتبادلة ، وبعض الملاحق.

وكانت معظم المواد (الظاهرة) تنص على تجريد تركيا من كل أملاكها خارج حدودها الحالية بالمعنى القومي الإقليمي، وتنص على بعض الالتزامات المالية. . . (انظر: مؤتمر لوزان للدكتور فاضل حسين ص ١٢ وما بعدها).

وقد اعتبرت جماعة أتاتورك هذه المعاهدة انتصارًا، مع أنها كانت في الحقيقة واحدة من أسوأ المعاهدات الفاصلة في التاريخ.

ويكفي أن تكون ثمرة هذه المعاهدة ـ بالنسبة لتركيا ـ هي: ترك الموصل، وترك الجزر لليونانيين، والتنازل عن كل الحقوق حول مصر وقبرص، والتنازل عن طلب التعويضات من اليونانيين، وعدم تحصين المضايق، و السماح ببقاء اليونانيين في إستنبول واحتفاظهم بثرواتهم.

ومع ذلك كله فهذه النتائج هي النتائج المعلنة والظاهرة، أما النتائج الأكثر خطرًا فقد تمثلت في الاتفاقية السرية التي كانت سببًا في نجاح المؤتمر، وهي ما عرف بمعاهدة كيرزون، وهي تتضمن بنودًا أربعة قبلها أتاتورك ، وكان مستعدًا لأكثر منها، وهي :

١ - إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيـا من تركيا.

٢ - أن تقطع تركيا كل الصلة بالإسلام.

٣ - أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية في تركيا.

٤ - أن يغيروا الدستور العثماني الإسلامي إلى دستور مدني بحت.

وكانت هذه الشروط هي الثمن الذي رضى أن يدفعه ذلك «الذئب الأغبر» الذي قنع لنفسه بصورة (البطل الوهمي) الذي تعاون الاستعمار واليهود على اتفاق صنعها، ووضعها في إطار متخم بالظلال والألوان، حتى تضيع معالم حقيقتها. . !

لكن « رياح » التاريخ لا يمكن أن تصمد أمامها هذه الصورة المصنوعة من ورق، حتى ولو صدرت لحمايتها آلاف القوانين التركية!!

ذلك لأن قانون الله ثابت وخالد في الكون والناس﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الرعد: ١٧] .

التاريخ الصحيح لرحلة التهويد والتغريب

«في أكتوبر ١٧٩٨ دخلت الخيول الفرنسية الأزهر، وأعمل الجند الفرنسيون السيف في طلبته وشيوخه، ونهبت ومزقت مخطوطات عمرها عدة قرون».

ما قيمة هذه الحقيقة التاريخية اليوم؟ ألا تكفي هذه المدة الزمنية التي بيننا وبين سنة ١٧٩٨م لوأد أية قيمة لهذه الحقيقة التاريخية؟ أو لسنا نعيش الآن في غزوة أخرى، وقد عشنا منذ الغزوة الفرنسية إلى اليوم عدة غزوات شبيهة بها؟

الحقيقة . . . أنه كان في الإمكان أن تمر الغزوة الفرنسية كما مرت الغزوات . . ولكن قدر لهذه الغزوة أن يرتبط بها شيء مهم يتعلق به مستقبلنا. . . بقضية وجودنا التاريخي كأمة وكحضارة.

إن تناول الغزوة الفرنسية ـ من هذه الظروف بالذات ـ عمل يتعلق بهذه الظروف نفسها، ويتعلق بقضية خروجنا من هذه الظروف. . . وإذا كان للغزوة الفرنسية أثر إيجابي فهو أنها فرضت على العقل العربي والإسلامي هذا السؤال بإلحاح.

كيف الطريق إلى المستقبل ؟

وتتصدى للإجابة عن هذا السؤال مدرستان . . قد أصبحتا واضحتي المنهج والسمات.

الأولى : هي المدرسة الاستعمارية التي وصلت بالأمة العربية إلى حزيران ١٩٦٧م وترى في «التغريب» ـ الذوبان في الغرب ـ الحل الوحيد.

والثانية: هي المدرسة الوطنية التي حرمت بفعل ظروف استعمارية كثيرة من التعبير العملي عن رأيها، والتي ترى في «التحديث» . . . امتلاك كل المعرفة التي يتفوق بها الغرب لإنتاج كل ما تحتاج إليه أمة من الأمم لتحقيق هذا التحديث. . . (ويقدم الأستاذ محمد جلال كشك ـ رحمه الله ـ نموذجًا تحليليا رائدًا لرؤية هذه المدرسة من خلال كتابه الرائع: « ودخلت الخيل الأزهر».

وبإيجاز فإن المدرسة الاستعمارية ترى ضرورة «شراء الحضارة»، أما المدرسة الوطنية فترى ضرورة «صنع الحضارة».

وترى المدرسة الاستعمارية أن القومية والتقدم و«التحديث» والتحرر لا تكتسب معانيها وسلوكها إلا من خلال التعاون مع المحتل وبمعونته وإرشاده. وترى المدرسة الوطنية أن هذه المفهومات لا معنى لها إلا إذا كانت مرتبطة بسلوك وطني مقاوم للوجود أو النفوذ الأجنبي بكافة أشكالها.

وهكذا تتدرج كل القضايا في خطين واضحين.. .الخط الاستعماري والخط الوطني ... ومنذ غزوة نابليون والأحداث كلها تفسر وفقًا للانتماء أو للتأثر بإحدى هاتين المدرستين.

ونعود قليلاً إلى الخلفية التاريخية التي عاشتها مصر قبل مقدم الغازي الفرنسي بونابرت.. هل كانت مصر مستعمرة تركية؟ ولكي نجيب ـ عمليا ـ عن هذا السؤال لابد لنا من أن نتفق على معنى «استعمار»... الاستعمار ـ تاريخيا : حالة معينة من التطور الاقتصادي... تقف في قمة التطور الرأسمالي... فهل كانت الدولة العثمانية واقفة في هذه القمة ؟ بالطبع لا .. لقد كانت أفقر من بعض البلاد التي يقال: إنها خاضعة لها، وحق السلطان في تعيين الوالي... الوالي الذي لا يملك من الأمر شيئًا، والذي كان المماليك والعلماء ـ بل العامة ـ يملكون عزله في أي وقت، ودون إبداء الأسباب، وقبل الغزوة الفرنسية استقل مملوك فعلاً بمصر «على بك الكبير» ولولا خيانة زوج ابنته له لما استطاع العثمانيون مواجهته ... بل إن المماليك ظنوا أن الغزوة الفرنسية كانت بتدبير من السلطان العثماني، وواجهوا مندوبه البائس في مصر باتهامهم، فهل جاء نابليون الغازي لتحرير مصر من الأتراك المستعمرين؟

أليس هذا القول من اللعب بالألفاظ أو اللعب بعقولنا ؟ ومن كان يحكم مصر في ذلك الوقت؟

إن المماليك الذين ارتبطوا نفسيا مع المصريين بميثاق غير مكتوب يتلخص في الدفاع عن حدود البلد، كانوا هم الحكام الحقيقيين لمصر، وفي عين جالوت ودار ابن لقمان أدى المماليك دورهم في حماية مصر... فأخذوا الخراج وحكموا البلد، لكن عندما سقطوا في مرج دابق أمام السلطان العثماني رفض الفلاحون المصريون دفع الضرائب، وقالوا لهم :« ما نعطي خراجًا حتي يتبين لنا إن كانت البلاد لكم أو لابن عثمان فنبقى نوزن الخراج مرتين». وقد ظل المماليك أوفياء للميثاق حتى عصر مشايخ البلد الذي لمع في قاع انحطاطه مراد بك وإبراهيم بك، اللذان شكلا طبقة منتصرة داخليا في مجتمعها، وغير منتصرة وطنيا ضد العدو القومي.. فسقط ميثاق الشرف من أساسه.

وهكذا كانت السلطة من حق المماليك المطلق مقابل توفير الأمن الداخلي والخارجي للبلاد.. بحكم ميثاق الشرف غير المكتوب.

هذه هي الأرضية الاجتماعية للتي شكلت عنصر الوجود في مصر قبل الغزو الفرنسي ... ونحن نعتقد أن الطبقة العاملة في غير الزراعة كانت موجودة كالتجار وأرباب الصنائع الأخرى، فالحق أن هذا القطاع كان موجودًا... أيام الغزو الفرنسي والغزو الإنجليزي ... وأنه كان على نابليون ـ عندما وصل إلى الإسكندرية ـ أن يواجه هذا المجتمع بهذا التركيب.

* * *

وعلى الرغم من كل البيانات والمنشورات والتحليلات التي صاحبت وأعقبت الغزوة إلى يومنا هذا، كان نابليون صريحًا في تحديد مهمته عندما قال: «سأستعمر مصر» انطلاقًا لبناء إمبراطورية شرقية نابليونية... ومنذ دخول الحملة إلى الإسكندرية ـ بل قبل دخولها الإسكندرية في مالطة ـ أثبتت أنها حملة بربرية فهؤلاء الذين جاءوا لتحرير (المصريين) من المماليك كان أول ضحاياهم حاكم الإسكندرية (المصري) الذي رفض الحماية الإنجليزية ... فأعدموه بعد التعذيب والحبس والتشهير...

وبهذه الوسائل وغيرها.. حاول نابليون (تغريب) مصر ...والتمسك بالحقيقة الحضارية الخطيرة (الاحتفاظ بالدين والتقاليد هو الطريق الوحيد لمسايرة العصر).

وفي ثورتي القاهرة الأولى والثانية طرقنا بعنف أبواب الثورة الصناعية (التحديث) من خلال مقاومة المحتل.

ـ ولأن الحاجة أم الاختراع، فقد اضطر المدافعون إلى صنع البارود والمدافع وإنشاء معمل لإصلاح الأسلحة والمدافع، ومعملاً آخر لصنع القنابل... إلخ... ولولا مجيء محمد علي.. وانحرافه بالأمة عن الخط الصحيح والسير في ركب التغريب وشراء الحضارة المعلبة ... لتمكنا من الوصول إلى وضع أفضل .

وعندما صب نابليون نيران الثورة الفرنسية على الأزهر ، كان نابليون الذكيّ (الدجّال) يعرف هذه الحقيقة أكثر من صبيان المبشرين المعاصرين... لقد كان يعرف أنه بضربه الأزهر يضرب قيادة الأمة الصحيحة...يضرب تاريخها ومستقبلها الصحيح... يضرب وجودها كله.

أليس هذا قمة «التغريب» الحضاري الذي شوهد مثله قبل نكسة حزيران في سجون المتحضرين المتغربين؟

الحقيقة أن أية أمة من الأمم لابد أن تتوافر لديها إرادة التقدم لكي تتقدم، ولا بد أن يبتلى جسمها بألم، وتصطدم بإمكان الغرق. . . فتضطر إلى الاستماتة بحثًا عن الحياة.

وهذا هو الحل الحضاري الوحيد لمشكلة التقدم!!

تاريخنا وتفسيره

(النظرية والتطبيق في مرحلة الصراع الفكري)

الحاجة الماسة إلى قراءة تاريخنا من جديد

نعم . . . أصبحت الحاجة ماسة إلى قراءة تاريخنا من جديد . . وأصبحت الحاجة ماسة كذلك إلى كتابة هذا التاريخ من جديد.

وبين قراءة تاريخنا وكتابته ـ من جديد ـ تقف عدة أمور تتطلبها طبيعة واقعنا . . . والضغوط المحيطة بنا، وتجربة القرن العشرين، بكل أبعادها المحلية والعالمية، التي عشناها.

والأمور التي تتعلق بضرورة قراءة تاريخنا من جديد كثيرة ومهمة، أبرزها:

* إن هذا الجيل من أبناء العروبة والمسلمين لم يقرأ تاريخه بعد ، إنه لم يتح له ـ بفعل ظروف كثيرة ـ أن يقرأ تاريخه الحقيقي. . . لقد قرأه له غيره، ثم كتبه له، ثم أعطاه له . . على أنه تاريخه، وما هو تاريخه في شيء. . . إنه مغلوط لا يمت إلى النفسية الإسلامية ولا للإنسان الإسلامي ولا للأرض الإسلامية ولا للعلوم الإسلامية أو الفكر الإسلامي. . . إنه لا يمت إلى شيء من ذلك بشيء. . . بل إنه في الحقيقة تاريخ للمسيحية أو لتطور البيئة والإنسان المسيحي ألبس ـ كثوب مهلهل ـ للإنسان المسلم وللتاريخ . . . فالدين الذي هو المسيحية أو اليهودية ـ مناهض للعلم ـ بعد تحريفات أصحابها بالطبع . . . وبالتالي فكُتَّاب هذا التاريخ «الإسلامي» يكتبون بروح تؤمن بأن الدين ـ الذي هو الإسلام في هذه المرة ـ لابد أن يكون مناهضًا للعلم كذلك، وهم يسيرون في دراستهم وتحليلهم لوقائع التاريخ الإسلامي على هذا النحو.

والتاريخ المسيحي ينقسم إلى مراحل تفصلها حدود عقلية وزمنية واضحة، فهناك العصر القديم الذي ينتهي عند حدود القرن الخامس الميلادي، وهناك العصر الوسيط ـ العصور الوسطى ـ التي تنتهي عند حدود القرن الخامس عشر الميلادي، وهناك الحديث والمعاصر الذي يمتد إلى عصر المركبة الفضائية . ومع أن التاريخ الإسلامي لم يمر بهذه الدورة على هذا النحو الزمني، وإنما اختلفت دورته في أبعادها وملامحها مع هذه الدورة الصليبية ... . اختلفت في أسلوب الحياة والمدى الحضاري وطبيعة القيم المسيطرة وامتلاك أسباب الرقي الذي يعيشه الناس فعلاً. . . مع هذا التباين الشديد، فإن المؤرخين الصليبيين الذين انفردوا بقراءة تاريخنا، وبالهيمنة بمدارسهم وبمناهجهم علينا. . . هؤلاء المؤرخون لم يراعوا هذا التباين بالمرة، ولووا عنق تاريخنا لتطور تاريخ

المسيحية، أو بتعبير آخر : صراع العقل الأوربي ضد الكنيسة !!

إننا لم نقرأ تاريخنا بعد، وهذه تشبه أن تكون حقيقة من حقائق وجودنا المتسم بالقصور في كثير من نواحيه، إننا نقرأ تاريخنا بعد أن ـ يطبخ ـ لنا في وقود و بطريقة ـ ومزاج ومصالح ـ أناس لا ينتمون إلينا في شيء ولم يكن لقاؤنا بهم أكثر من لقاء في معركة أو انتصار وترقب لمعركة !!

لقد تم طبخ تاريخنا في مؤتمرات المبشرين والمؤتمرات الاستراتيجية الخاضعة للاستعمار الشيوعي أو الصليبي، ثم قدم إلينا على أنه التاريخ المنهجي أو الموضوعي أو الحقيقي لنا.

* لقد كتب هذا التاريخ «كارل بروكلمان» الذي يدين كل الحركات الإسلامية الصحيحة، ويصور تاريخنا تصويراً مليئًا بالسموم والالتباسات العقلية والتاريخية !

* وقد كتب هذا التاريخ «غوستاف لوبون» الذي يؤمن بأن غير الأوربي ـ إنسان قردي ـ لا يمكن ـ مهما يبلغ نصيبه من العلم والثقافة ـ أن تقترب رتبته الإنسانية من ـ الإنسان الأوروبي ـ سيد التاريخ وصانع دوراته كلها !!

* وقد كتب هذا التاريخ «أرنولد توينبي» الذي تنبأ بعودة الإسلام إلى قيادة الحضارة نظرًا للفراغ العقدي والنفسي المحيط بالبشرية، واعتبر ذلك من الأخطار الضخمة وتمنى ألا يحدث ذلك (راجع كتاب : الإسلام والغرب والمستقبل ـ الصفحة الأخيرة).

* وكتب هذا التاريخ ـ من هؤلاء ـ كثيرون ، نتعب، ونبعد عن غرضنا، حين نتتبعهم، لكن المهم في رأينا هو أن هؤلاء المخلوطين المموهين هم الذين حجبونا عن تاريخنا، وقرأوه لنا، وقدموا قراءتهم لتاريخنا على أنها الفهم الموضوعي والمنهجي والعلمي لهذا التاريخ، وأصابونا بعقدة نقص، ورمونا بنعوت مختلفة إن نحن رحنا نحاول الالتصاق المباشر بهذا التاريخ ، وهذه أول موجبات قراءة تاريخنا من جديد.

* **والأمر الثاني** المهم الذي يوجب قراءة تاريخنا من جديد : أن هذا التاريخ ـ العربي والإسلامي ـ ليس إلا فرعًا من فروع العلم الذي انبثق من الحقيقة القرآنية الخالدة . . . أعني العلوم الإسلامية ولا يمكن لدراس موضوعي لهذا التاريخ أن يفصله عن «الفقه» ـ مثلاً ـ لأن علم الفقه هو علم فروع الحياة وأجزائها المتناثرة؛ هوعلم السلوك في ضوء الإسلام. ومهما يكن اقتراب المسلمين أو إبعادهم عن دينهم ـ في الفترات المتباينة للتاريخ ـ فإن هذا العلم كان محركًا من محركات المجتمع الإسلامي، ومنشطًا من منشطاته، وراية من رايات طريق الحياة الإسلامية والعقل الإسلامي. . .

وأيضًا لا يمكن لهذا الدارس الموضوعي أن يفصل هذا التاريخ عن ـ علم الكلام ـ الذي كان مجالاً من مجالات العمل والصراع والحركة في الحياة الإسلامية، وقد ارتبطت بهذا العلم حركات كثيرة ، كان لها دورها في صنع التاريخ الإسلامي ولا يمكن الحديث عنها وعن دورها هذا دون فهم للأسس النظرية لحركتها . . كيف يمكن الحديث عن الخوارج أو الشيعة المعتزلة أو المرجئة أو الحركات الصوفية دون فهم لمبادئها؟!!

وكيف يمكن أن يكون هناك مؤرخ ـ حقيقي ـ للتاريخ الإسلامي ، بينما هو جاهل بأصول «الخارجية» التي قامت باسمها دول في المغرب العربي ـ مثلاً ـ كالرستمية؟ أو جاهل بأصول المعتزلة الذين سيطروا على فكر كثير من خلفاء العباسيين وعلى رأسهم الخليفة المأمون، أو جاهل بأصول الباطنية التي قامت باسمهم الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، ودول أخرى متعددة ، أو جاهل بأصول التصوف الذي فتح رجاله كثيرًا من بلدان الجنوب الإفريقي، وسيطرت نزعته على دول كثيرة كدولة السنوسيين في ليبيا.

وكما تتضح الأهمية في فهم علمي الفقه والكلام، يمكن أن تتضح الأهمية كذلك في فهم علوم الحديث والتفسير والأصول . . . وكيف لمستشرق ينطلق من نقطة التكذيب بالقرآن ونبوءة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كيف له أن يدرس إذن التاريخ الإسلامي ؟ وعلى أي أساس إذن سيدرسه؟

* **وأمر ثالث** ومهم يتعلق بضرورة قراءة تاريخنا من جديد . . . هذا الأمر هو: أن واقعنا الأليم بحاجة ماسة إلى هذه القراءة، فتاريخنا مليء بالصفحات الشبيهة بهذه الصفحة التي نعيشها. . . ولقد تاه المسلمون الذين عاشوا مثلنا كثيرًا، ولقد عذبوا كثيرًا، ولقد كانت لهم أفكار واتجاهات مختلفة. . . لكنهم ـ في اللحظة الحاسمة ـ عرفوا طريق الأمل . . . لكن كيف عرفوا هذا الطريق ؟ وكيف صهروا خلافاتهم في بوتقة واحدة ؟ وكيف أفلتوا من الموت ؟ . . . إن هذا كله يطلعنا عليه ـ بجلاء ـ تاريخنا . . . المنطلق والمنتمي إليه فكرنا وقيمنا وتراثنا.

تاريخنا والتفسير المزيّف:

ينقسم الدارسون الغربيون لتاريخنا قسمين : قسم يتحامل على التاريخ تحاملاً عظيمًا ظالمًا يتخطى كل أصول المنهج العلمي والموضعية في البحث . . . وقسم ينطلق من غاية محددة ماكرة فيكيل المدح الكثير لجزئيات تاريخنا ويصور تاريخنا كله، وكأنه تاريخ ملائكة وليس تاريخ بشر واقعيين، لهم عقول وعواطف وغرائز.

وكلا القسمين يلتقي عند هدف واحد هو تزييف تاريخنا، وتحويله إلى تاريخ بعيد عنا لا نكاد نحس فيه بأنفسنا ولا بامتدادنا ولا بمشكلات واقعنا.

وتاريخنا في الحقيقة هو تاريخ بشر ، بيد أن هؤلاء ليسوا بشرًا ينطلقون في سيرهم التاريخي من وحي عقولهم وحدها، بل إن لهم شمسًا أخرى تساعد مصابيح العقل على الحركة والعمل، وهي شمس الرسالة الإسلامية ، وهؤلاء البشر كذلك ليسوا بشرًا مجردين من الهدف، بل هم حملة رسالة إنسانية سماوية، ولهم دور محدد في خدمة البشرية هو دور الشاهد والموجه والمثال.

وباستثناء الرسالة والهدف اللذين تتميز بهما الأمة الإسلامية يعتبر سيرها التاريخي سيرًا بشريا عاديا.

قد يكون هؤلاء الناس الذين كانوا المادة الخام لصنع التاريخ الإسلامي قد اقتربوا من هذا الهدف في بعض فتراتهم، وقد يكون هؤلاء الناس قد انحرفوا عن هذا الهدف وسقطوا فيما تسقط فيه الأمم التي تسير بلا مشعل ولا هدف.

قد يكون هذا وقد يكون ذاك . . إنهم في هذا الأمر بشر واقعيون يمكن أن ينظر إليهم ككل البشر ويمكن أن تكتب حسناتهم، وتسجل سيئاتهم.

وهذه هي الأرض الطبيعية الواقعية للتاريخ الإسلامي، أما تسجيل تاريخنا على أنه تاريخ حيوانات متصارعة فهو ظلم لنا ولتاريخنا، وأما تسجيله على أنه تاريخ ملائكة فهو أيضًا تضليل لنا وتزييف لتاريخنا.

لقد كان تزييف التاريخ الإسلامي عملاً غير صالح، يهدف إلى غرض خطير «فبما أن التاريخ الإسلامي هو أحد الجوانب التطبيقية والصورة العملية للإسلام، فلذلك اشتعل بالسهام الموجهة له، والتاريخ الإسلامي ـ كما نعلم ـ هو تاريخ الشريعة الإسلامية التطبيقي الواقعي ، التى طالما كان لها الالتزام وهو الشكل الذي تحقق فيه الإسلام، وكل انحراف عن الطريق السوي أصاب هذا التاريخ كان نتيجة للانحراف عن الشريعة، فدراسة هذا التاريخ هي دراسة للإسلام من الناحية التطبيقية ، وهي دراسة للذين أخلصوا له وللذين أساءوا باسمه، سواء من خارجه أو من داخله»[١]، ومن هنا تأتي خطورة تشويه المؤرخين الغربيين وتلامذتهم لتاريخنا، لقد طبق هؤلاء المستشرقون مقاييس التاريخ الأوربي على تاريخنا، وحاكموا تاريخنا الإسلامي على أساس القيم المسيحية الكنيسية، كما أنهم فرضوا على تاريخنا كل تشويه الكنيسة، وكل حربها ضد العقل وضد الفكر، وكل طغيانها الذي أفقدها كل تأثير حقيقي على العقل والفكر الأوربي.

كما أن من بين ما فرضوه علينا استعمال مصطلحات الحياة الأوربية وتناقضاتها

(١) نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، للدكتور عبد الرحمن الحجي ص١٨ .

وردود فعلها، فهناك الديموقراطية، وهناك ردة الفعل المضادة وهي الاشتراكية، وهناك الشيوعية بتفسيراتها المادية، وهناك الدكتاتورية . . . إلخ.

وفي كتابة هؤلاء عمدوا إلى تجاهل الإسلام كمحرك حقيقي لهذا التاريخ، وصوروا هذا التاريخ تصويرًا مجردًا من هذه القيم ومن تأثيراتها وروحها وعملها في العقل الإسلامي وحركة سيره المادية والمعنوية.

وبين محاولات التشويه، إن بالمغالاة في المدح وإن بالمغالاة في القدح، وبين محاولات التجهيل بهذا التاريخ.

بين هذين العاملين الشديدي الأثر ضاع تاريخنا الحقيقي.

إني لأعرف معرفة تامة أن المناهج التعليمية في بعض البلدان الإسلامية ـ والعربية ـ لا يكاد يظفر التاريخ الإسلامي من خطتها وحجم مناهجها إلا بأقل كثيرًا من التاريخ الأوربي والتواريخ السابقة للإسلام وحركات النهضة أو العصور الوسطى المسيحية.

وهذا التاريخ الإسلامي، الذي يوضع في المناهج المدرسية، يخلو من كل العناصر الإيجابية في التاريخ الإسلامي، ويكاد يكون مجرد سرد للأحداث، ومجرد موضوعات مكررة، لا يخرج التلميذ منها في النهاية برصيد ذي شأن يذكر.

وبالطبع . . لم تقف محاولات إبعادنا عن تاريخنا عند حد التشويه والتجهيل، بل هناك محاولات تشكيك في هذا التاريخ وقيمته، وهناك محاولات تصوير ناقص لأحداث هذا التاريخ، كتصويره على أنه تاريخ سيف، دون أن يكون تاريخ حضارة، وتاريخ معارك وليس تاريخ فكر.

وبين كل هذه العوامل، والمدارس التي أشرفت على تنفيذها، ومع عقدة النقص واللاوعي اللذين اتسمت بهما الأقلام العربية. . فضلاً عن الانطلاقات المفتعلة والمزيفة التي حاولت هي الأخرى تطويع حقائق هذا التاريخ لقيم وأفكار ليست نابعة من الإسلام. . بين كل هذا. . أصبح تاريخنا عبئًا علينا، أصبح تاريخنا مستوردًا لا يمت إلى عقيدتنا ولا إلى تراثنا بصلة ذات قيمة.

وفي الحقيقية . . . أصبح تاريخنا ليس تاريخنا.

العرب خارج الحضارة:

إبان القرنين السادس والسابع الميلاديين كانت البشرية تنقسم إلى معسكرين: معسكر الحضارة الآيلة للسقوط، ويمثله محور الفرس، والروم، ومعسكر البشرية البدائية التي تخضع لقوانين وطبائع الفطرة وحدها، ويعتبر العرب أكبر نموذج ممثل لهذا المعسكر.

لقد كان محور ـ فارس الروم ـ يمثل المظهر المادي والفكري الأكثر تمثيلاً للعصر. والحق أن المعسكرين لا يختلفان كثيرًا في تعبيرهما عن القرن السابع الميلادي، تبادل الطرفان الهزيمة والنصر، فالقوة المادية متقاربة، كما أن الوثنية ـ في الحقيقة ـ هي المظهر الفكري المسيطر على كلا الطرفين.

ولم يكن ما عرف من «مسيحية» في الممالك الخاضعة لبلاد الروم أكثر من وثنية ذات وجه آخر تحفل بمظاهر الكهنوت المختلفة، وتقف فيها الوسائط والطقوس المشوهة لصورة التوحيد، والخرافات اليونانية، والمذاهب الفلسفية الجدلية التأويلية، وعبادة القديسين. . . وغير ذلك من المظاهر. . . تقف هذه كلها بديلاً صريحًا للوثنية الصريحة الواضحة المنتشرة في البلدان الخاضعة لفارس.

ولقد سيطر على البشرية انحلال خلقي واجتماعي وفوضى اقتصادية ، لم يكن من الممكن استمرار الوجود البشري معهما، ولقد كانت الضرائب المتنوعة الباهظة سببًا في خراب القرى والمدن ، كما كانت الرشوة وفقدان العدل وإهمال وسائل الإنتاج من قبل الحكام الذين أضاعوا حياتهم في مظاهر السلطة والحفاظ على عروشهم. . . كانت هذه كلها من أسباب اضمحلال مستوى الحياة في الدولتين الكبيرتين الممثلتين لحضارة العصر.

أما الانحلال الاجتماعي الذي تمثل في صراع الطبقات فحدِّث عنه ولا حرج. لقد كانت الهوية الطبقية تمثل بالنسبة للإنسان قدرًا يولد معه كما يولد معه نسبه إلى أبويه، فلقد كان ـ كذلك ـ من الصعب أن يغير من هويته الطبقية، لقد كان محظورًا على الأفراد أن يحاولوا تخطي المستوى الطبقي الذي نشأوا فيه، بل عليهم أن يقتنعوا بالمستوى الذي وجدوا عليه ويقنعوا به، أما أن يحاولوا منافسة سادتهْم فتلك كبيرة من الكبائر لا تغفرها السلطات الحاكمة الظالمة التي تحمي حكمها وظلمها بهذه القوانين التي أسرفت في ابتداعها.

وبين فوضى خلقية كانت سمة العصر وتعددت ألوانها متمثلة في المذاهب الفوضوية الجنسية التي ظهرت في ذلك الوقت ووجدت مروجين كثيرين.

وبين فوضى اقتصادية ، تمثلت في الفروق الطبقية والاقتصادية واستعباد طبقات لطبقات واستغلالها البشع لها.

وبين فوضى دينية تمثلت في مسيحية وثنية تعددت بين أصحابها التصورات العقدية وتضاربت التفسيرات والمناهج، ويهودية مغلقة مضطهدة . . تقف من البشرية موقفًا ابتدائيا يقوم على الكراهية والتعالي والسحق ووثنية مانوية ـ نسبة إلى ماني الذي ظهر

في القرن الثالث الميلادي ـ أو وثنية قومية أو بوذية أو برهمية وثنية أو عبادة لمظاهر الطبيعة المتنوعة.

بين هذه الفوضويات الثلاث: الخلقية ، والاقتصادية ، والدينية . . . عاشت البشرية هذا العهد الذي سبق ظهور الإسلام، وظهر كالحًا واضحًا على امتداد القرن السادس الميلادي والسنوات التي سبقت ظهور الإسلام من القرن السابع الميلادي !!

* * *

لقد كان العرب في هذا العصر بالنسبة للقوى الحاكمة والمتنافسة فيه يشبهون (كتلة الدول المتخلفة) التي لم تدخل بعد عصر الدراجة البخارية، بينما دخلت القوى الكبيرة عصر المركبة الفضائية.

إن العرب لم يحاولوا دخول (الحضارة) في هذا العهد . . . لقد يئسوا من الدخول، ولقد اكتفوا بالحياة البدائية التي لا تمتلك مقومات الانطلاق الحضاري والدخول إلى ميدان التاريخ، فليس عندهم نظم اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عسكرية، بل يدورون في فلك مُثُل عليا شعرية معبرة عن واقعهم الفكري والبيئي، من أمثال البيت المعروف:

وأحيانًا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

أي أنهم لا يتوانون عن الإغارة والكر والفر حتى ولو لم يجدوا إلا أخاهم . . . كما أن هذا البيت يصور الظلم كقاعدة اجتماعية وسياسية.

فهل يمكن أن يُنتظر تقدم حضاري من بيئة هذه منطلقاتها الفكرية ؟

أما المنطلق العقدي بالنسبة إلى العرب، فلم يكن إلا الوثنية الساذجة، وعبادة الجن و مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والكواكب الأخرى. . . ودع عنك ما عرف عنهم من أمراض التخلف كالوأد ، والخمور ، واحتقار المرأة، والزنا والعصبية القبلية ، والقتل لأتفه الأسباب، والحروب الطويلة العقيمة النتائج الواهية الأسباب ، كحرب داحس والغبراء وغيرها، لقد كان العرب منطقة فراغ وارتزاق بالنسبة للقوى الكبرى في ذلك العصر ، ولم يكن ما ظهر من وجود مملكتين على الحدود مع فارس والروم ـ الحيرة وغسان ـ تابعتين في سياستهما للدولتين ـ الحيرة مع فارس والغساسنة مع الروم ـ لم يكن وجود هاتين المملكتين إلا مظهرًا من مظاهر التبعية أكثر من مظهر وجود حضاري. . ولقد كانت المملكتان محددتي الهدف يقومان بحماية حدود الدولة التي تتبعها كل منهما من غارات هذه القبائل العربية الهمجية . . . فضلاً عن القيام بدور

الحماية للدولة الكبرى من ناحيتها تلك في وجه الدولة الأخرى.

إن مجرد التصفح للموسوعات التاريخية الكبرى التي أرخت لهذا العصر ، كتاريخ ابن جرير أو ابن كثير أو ابن الأثير أو غيرهم، سوف تدهشنا.

إننا سنجد مئات الصفحات تتحدث عن ملوك الروم والفرس، وصراع الوثنية مع النصرانية، ومحاولة السيطرة على اليمن أو الحبشة من قبل قوى تابعة للدولتين الكبيرتين. . . لكننا سوف لا نجد إلا سطوراً محدودة، تتحدث عن العرب . ألا يؤكد لنا هذا أن العرب كانوا (خارج الحضارة) !!

نقطة البداية في التاريخ الإسلامي :

التاريخ الإسلامي ـ بمعناه العام ـ يبدأ ويستمر في التاريخ مع كل الأنبياء . . . فكلهم ـ من آدم ونوح وإبراهيم وحتى محمد ـ عليهم السلام ـ كانوا دعاة إسلام، وكانوا يحاولون أن يشقوا طريقًا للإسلام (دين الله) في التاريخ . . . لكن التاريخ الإسلامي (بمعناه الخاص الشائع) يبدأ من ظهور محمد ـ عليه الصلاة والسلام.

ظهر الإسلام في آخر طور من أطواره ـ أي بمعناه الخاص ـ أول ما ظهر في مكة المكرمة، فلقد كلف الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، بالبدء بعشيرته الأقربين . . أي قومه في مكة التي نشأ وترعرع بها. . وعلى هذا أيمكن القول بإن نقطة بداية «التاريخ الإسلامي» قد انطلقت من مكة . . مهبط الوحي ووطن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام؟

ثم هاجر الرسول إلى المدينة ـ وهي من قرى الجزيرة العربية الكبرى ـ وفي المدينة وجد الإسلام الأرض الخصبة ووجدت النفوس المشرئبة للعقيدة الجديدة، المستعدة للموت في سبيلها ، ووجد الفرصة الصالحة ـ التي لم يجدها في مكة ـ لكي تبرز إلى الواقع العملي فكرة الدولة الإسلامية كدولة ذات طابع خاص متفرد، تستقي ملامح وجودها من القيم القرآنية ومن تطبيق الرسول الكريم لهذه القيم.

وقبل هجرة الرسول الكريم هذه لم يكن الإسلام أكثر من أفراد مشتتين مضطهدين يعيشون منبوذين مقاطعين مقاطعة مادية أحيانًا، ونفسية وفكرية دائمًا في مكّة، أو لاجئين سياسيين هاربين من بطش قومهم إلى الحبشة، أو في أحوال شبيهة بذلك في قرى الجزيرة العربية المتناثرة.

وعلى هذا أيمكن القول بأن نقطة البداية في التاريخ الإسلامي قد انطلقت من المدينة المنورة ؟

إن نقطة البداية في التاريخ الإسلامي في الحقيقة هي هذه وتلك معًا.. ولتاريخنا الإسلامي شقان: فهو كبناء (أيديولوجي) .. كرسالة سماوية .. كقيم حضارية .. قد بدأ في مكّة.

لكنه كبناء تطبيقي مادي، وكنظام متكامل، وكحضارة لها رصيدها من الواقع... قد بدأ في المدينة.

وهـذان الشقـان متكامـلان، وضروريان بالنسبة لتاريخنا الإسـلامي، فهذا التاريخ... مبادئ إلى جانب كونه أشخاصًا، وهو رسول، ورسالة، وقصة أفراد عظماء ومجتمع عظيم يحاول أبناؤه أن يكونوا صورة حية لتعاليم دينهم العظيم.

وعندما بدأت الرسالة الإسلامية وجودها المادي في مكّة لم يكن ارتباطها بأرض مكّة ارتباطًا لازمًا، أو ارتباطًا راجعًا إلى خصائص في مكّة كأرض، فلم تكن مكّة بالنسبة للدعوة أكثر من أرض ولد فيها الرسول ﷺ، وكان من الممكن أن يولد في غيرها من أرض الله.

ولما أبى مشركو مكة إلا أن يؤذوا مسلميها ويضطهدوهم، لم يجد المسلمون أي حرج في أن يتركوا مكة هذه، ويتشتتون في الأرض؛ لأن الهدف لم يكن «أرضًا» معينة، وإنما كان الهدف «قيمًا» معينة.. لم يكن الهدف أن تعيش «مكة» أو أن ترتفع رايتها، أو أن يحمي مجدها القومي، أو ترابها الوطني، بل كان الهدف أية أرض تعيش فيها مبادئ السماء ويجد فيها المسلمون الفرصة، كي تعيش القيم التي يعيشون بها و لها، والتي يعتقدون أنها الطريق الذي يجب أن تسير فيه البشرية.

فلما لمح الرسول الكريم، ولمح المسلمون، أن هناك أرضًا أخرى، ممهدة وأكثر خصوبة لتحقيق قيمهم العليا ورسالة السماء التي نيطت بهم.. لم يترددوا في أن يتركوا مكة وأن يضحوا فيها بكل أملاكهم، بل أحيانًا بأبنائهم وأهلهم، وأن يسرعوا في هدأة الليل أو انبثاقة الفجر إلى الأرض التي لاح لهم أن شمس الله سوف تسطع منها، منتشرة ـ بعد ذلك ـ في كل بقاع الأرض.

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مصيبًا كل الصواب، حين جعل من التاريخ الهجري، بداية التاريخ للمسلمين كتقويم عام يلتزمه المسلمون، ويتذكرون به على مدى التاريخ كله ميلادهم الحقيقي كأمة وكحضارة وكرسالة.

لكن دارس التاريخ الإسلامي لا يستطيع أن يتجاهل الركيزة الأولى التي انطلق منها هذا التاريخ، لا يستطيع أن يتجاهل «الرسول» الذي حمل الرسالة، ولا الأفراد العظماء الذين أحرقت جلودَهم صحراءُ مكة، ولا الذين عاشوا مشردين في الحبشة، لا

يستطيع أن يتجاهل القيم القرآنية التي نزلت في مكة تواجه أوضاع المسلمين فيها، وتواجه الأوضاع المشابهة التي يمكن أن تتكرر على مدار تاريخهم.

فتاريخنا الإسلامي ـ الخاص ـ في حقيقته يبدأ من هذه اللحظة التي نزل فيها قول الله سبحانه وتعالى على رسوله محمد بن عبد الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ في غار حراء:

﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ .اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ . الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ــ ٥] .

إن هذا التاريخ الإسلامي الذي بدأ من مكة كدعوة وعقيدة، ومن المدينة كدولة وبناء اجتماعي وحضارة. . . إن هذا التاريخ يمشي مع هذه العقيدة ومع الحضارة المنبثقة عنها ما قدر الله لهما أن يمشيا في التاريخ، فهو مرتبط بهما في كل الأرض التي كان عليها، وفي كل الزمان الذي يوجدان فيه. فهو معهما في الأندلس التي خرجت من يد المسلمين بأعمالهم، ولم يعد تاريخًا حيا. . وهو في الصومال، وفي السودان وفي إرتريا، وفي الهند وباكستان والبلدان العربية، وفي جزر البحر الأبيض المتوسط كصقلية وسردينيا وكريت.

هو مع العرب . . . منذ هذه اللحظة ،لحظة ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾.

وهو مع البربر . . . منذ اللحظة نفسها.

وهو مع الطورانيين من اللحظة نفسها كذلك.

وهو مع كل المسلمين مهما تختلف بهم الأوطان والأزمان والأجناس.

إنسَان التاريخ الإسلامي :

وإنسان هذا التاريخ هو الإنسان الإسلامي الذي يؤمن بالكتاب الذي بدأ نزوله منذ لحظة ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ، والذي يحاول خلق الرصيد الواقعي والعملي للقيم التي أرساها هذا الكتاب.

هذا الإنسان ـ صانع هذا التاريخ ومادته الخام ـ قد يكون فردًا في مجتمع مظلم مخالف في نمط حياته لقيم القرآن. وقد يكون انتماؤه الأرضي لبلد غير إسلامي. ومع ذلك فهذا الإنسان هو اللبنة الأولى لهذا التاريخ ما دام ملتزمًا بقيم القرآن، وما دام يحاول إيجاد رصيد عملي لها.

العَرَب ومكانهُم في التاريخ الإسلامي :

لقد شاءت إرادة الله أن تكون مكة ثم المدينة أرض الإسلام الأولى، فهل يعطي

ذلك وحده مكانة خاصة لمكة أو المدينة ؟

وهل تعتبر مكة أفضل من المدينة؛ لأن الأولى سابقة عليها في ظهور الدعوة على أرضها؟

في تصورنا أن الناس الذين يعيشون فوق أي أرض، لا يمكن أن يحملوا شهادات تفوق وامتياز لمحض نشأتهم فوق هذا المكان. وبالتالي ليس لأهل مكة أو المدينة امتياز لمحض الانتساب لهاتين المدينتين، ولا يمكن أن يكون مشركو مكة أفضل من مسلمي الحبشة أو النيجر، فالعبرة بالقيم ومحاولة تحقيق هذه القيم. وصهيب الرومي وبلال الحبشي هما من أبرز الأساتذة الأول الذين أسهموا في صنع هذا التاريخ الإسلامي، وهما أفضل من كل الذين كان لهم موقف سلبي أو عدائي أو متخاذل من الدعوة الإسلامية، من العرب أو من غيرهم.

والعرب جميعًا يخضعون لقانون التاريخ الإسلامي، لا فرق بينهم وبين غيرهم، فبمقدار إيمانهم بالقيم التي ظهرت منذ ـ اقرأ باسم ربك ـ ومحاولتهم تحقيقها تكون أفضليتهم، وليس لمحض انتمائهم الجنسي إلى النبي الكريم الذي نزل عليه الوحي، ولا لأن القرآن نزل على أرضهم، ليس لهم لمحض هذا أو ذلك أفضلية على غيرهم!

ولئن كانت المحاولات التي تعطي العرب أفضلية (مجانية) لمجرد الأرض أو الجنس، محاولات متناقضة مع مبادئ الإسلام نفسه... فإنها كذلك متناقضة مع سنة الله في الكون؛ لأنه سبحانه رفض دعوى اليهود الأفضلية، ورفض دعواهم ودعوى النصارى معهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.. ورد على هؤلاء وأولئك بالرد القرآني الحاسم.

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة : ١٨] .

من أمراضنا الحضاريـــة:

قد يكون من حق بعض الأمم أن تؤرخ ببعض المواقع التي انتصرت أو انهزمت فيها وسببت تحولاً حضاريا في تاريخها.. لكننا نحن المسلمين من واجبنا أن نرتبط تاريخيا بالقيم الإسلامية ونؤرخ بها.. لأنها وحدها القادرة على صنع التحول الحضاري في تاريخنا.

***

ومن أنكد الظواهر في تاريخنا ذلك الفصام الذي تم ـ على مشارف القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) ـ بين الإسلام والمسلمين... بحيث انفصل في

الكيان المسلم المضمون عن الشكل، والضمير عن العقل، والواقع عن النظرية ، والفرد عن المجموع، والمسجد عن المدرسة. . . وبحيث انقلبت المعايير في داخل الكيان الفردي المسلم. . . وفي داخل المجموع المسلم أيضًا.

«وعندما تنقلب أوضاع القيم في داخل الفرد ـ على هذا النحو ـ ينهار البناء الاجتماعي كله؛ إذ إن هذا البناء لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب؛ لأن الروح هي الدفعة الحقيقية التي تربط بين هذه الأجزاء وتعطيها كلها المضمون المتكامل والتأثير الحضاري المطلوب. . وسيكون بقاء الإيمان بهذه الجاذبية غير المشعة ــ أي في هذا المستوى الفردي المتحيز ــ شيئًا وقتيا إن أفلح في بقاء الفرد المحدد، فإنه لا يستطيع منح حضارة كاملة إطارها المشع الذي يكفل لها تأثيرًا وبقاء في ميدان السبق الحضاري».

لقد قدم الفيلسوف الرحالة «فولني» إلى مصر سنة ١٧٨٣م أي قبل قدوم الحملة الفرنسية على مصر بخمسة عشر عامًا، وكانت بلاد الشرق الإسلامي ـ كعادتها ـ حافلة بآثار الماضي الماثلة للأنظار. .. لكن أجيال الشرق الإسلامي في ذلك الحين كانت تحمل بين أحشائها أمراضًا حضارية لم تكشف لها الأيام عنها ، فلقد كان نابليون لم يصل بعد إلى مصر ليكشف لفلاحي مصر ومماليكها أنهم منذ راح«صلاح الدين» يتعرضون لغزو حضاري خبيث لم يكتشفوا أصابعه الخفية، وأنهم مجرد صور باهتة لحضارة كانت يومًا على يد بيبرس وقطز وصلاح الدين متفوقة وفعالة رغم الآثار التقليدية التي أحدثها معاوية والحجاج الثقفي!!

ولقد عاد « فولني » إلى بلاده فرنسا وكتب كتابًا أسماه (الأطلال).

لقد كانت حضارتنا ـ بحق ـ أطلالاً أو أشكالاً لا مضمون لها، أو كانت عقلاً وفنا دون روح. . و عندما لا يختلط «الأكسجين بالأيدروجين» بنفس النسبة المقررة فمن المستحيل أن تجد ماء يمنحك الحياة.

وبعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان زار مصر المؤرخ الفرنسي «جيبوتي» ونظر إلى الجامع الأزهر وإلى الآثار الإسلامية نفس النظرة الموضوعية التي نظرها «فولني»، لقد كان «فولني» على حق كبير. . وإليك الدليل:

لقد وقف نابليون بعد قدوم «فولنى» بخمسة عشر عامًا يستثير نخوة جنوده قبل نشوب الحرب في معركة إمبابة ويذكرهم بأن قرونًا من التاريخ تنظر إليهم من فوق الأهرام، وأغلب الظن أن كل جندي منهم نظر لنفسه على أنه حامي حمى التاريخ، وأن مقاليد الحضارة الإنسانية يجب أن تؤول إليه. . وكان هذا كفيلاً لأن يندفعوا بكل

قواهم في اتجاه النصر على مراد بك الذي لم يفكر في إضاعة وقته سدى بتوجيه مثل هذه اللافتات!

ودعنا نجدّ السير قدمًا نحو تحديد المرض الحضاري الذي نحن بصدده، ولا يدفعنا ما يسميه بعض أبناء حضارتنا «بتداعي المعاني» فنذكر توجيهات عمر للجيوش الإسلامية، وتعليمات النبي الكريم، ووقفة «طارق بن زياد» الشهيرة.. دعنا نغذّ السير بعيدًا عن هذه الذكريات المحزنة... وأن نذكر بعض مظاهر هذا المرض الخبيث.. مرض الانفصال في داخل الفرد المسلم بين الروح والعقل، وبين النظر والتطبيق، وحقا لقد عرف الغزو الصليبي ذو الأصابع الخفية الذي أتى بعد موت «صلاح الدين» .. لقد عرف جيدًا من أين تؤكل الكتف الإسلامية ، ولقد أكلها، بتأثير هذه الحالة المرضية.

لقد وجد في العالم الإسلامي ذلك المسلم الذي يقول: ما للدين ونظام المجتمع ؟ ما للدين والاقتصاد ؟ ما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة ؟ ما للدين والتقاليد؟ ما للدين والملبس؟ ما للدين والفن؟.. ماللدين والحياة؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض؟.

* * *

وبتأثير هذه الحالة المرضية كذلك وجد المسلم الذي يقول: أنا مسلم ما دمت أصلي وأصوم وأعتمر، ولكن لا عليّ أن آخذ نظامي الاقتصادي من أية فكرة على الأرض غير إسلامية، وآخذ أفكاري وتقاليدي من أي نظام على الأرض غير مسلم، ووجدت تلك المسلمة التي تقول : أنا مسلمة ما دمت حسنة النية.. ولكن لا عليّ أن أخضع في الملبس لهوليوود، وفي « تسريحة شعري» لصالونات اليهود، وفي تقاليدي الاجتماعية وعلاقاتي لتقاليد أوربا المنهارة.

وهذه الأسئلة في الواقع ظاهرة مرضية تحمل دلالة مهمة.. هي دلالة انفصال روح الحضارة عن جسد الفرد، وتحول كيان الفرد إلى كيان متبلد لا يستثار إلا تحت ذات الضغط الذي يستثير الحيوان ذا الحس الهامد.. وعندما يبلغ أفراد مجتمع ما هذه المرحلة تنعكس في حياتهم معاني الحضارة التي كانت إيجابية ومؤثرة.. تنعكس إلى معان شكلية لا قيمة لها في مجال التوجيه والتأثير والصمود الحضاري.. وإن «الحقيقة» بكل نفوذها تنقلب في حياة الفرد والمجتمع إلى «صورة» بكل نفوذها كذلك، ولا يمكن أن تسد صورة عن حقيقة مهما أعطيت من جمال وجاذبية. بل إن الحقيقة الضعيفة أو الحقيرة أقوى من الصورة المهيبة العظيمة.. ونحن نرى في المتاحف كل أنواع السباع والأنعام والطيور الجارحة، ولكننا لا نخافها لأنها جثث هامدة.. وإن الطفل الصغير لا يتهيب أن

يمسها بيديه بل أن يسقطها إذا شاء ؛ لأنها «صورة» وإن كانت مهيبة جليلة؛ وهو «حقيقة» وإن كان ضعيفًا هزيلاً[1].

ومن هنا نرى أن كل معارك المسلمين في الفترة الأخيرة كانت لغير صالحهم، لأنهم كانوا «صورة» مع رصيدهم من الهيبة والجلال وكان أعداؤهم «حقيقة» مع رصيدهم من الضياع والانحراف!!

لقد كانوا في فلسطين سنة ١٩٤٨م «صورة» سبعة جيوش عربية، فاندحروا أمام عصابات مغامرة تحمل في باطنها «حقيقة» عقيدة حضارية زاحفة.

وكانوا في سنة ١٩٦٧م صورة مائة مليون عربي، فاندحروا أمام «حقيقة» مليوني يهودي . . . وهكذا لابد أن تغلب الحقيقة الصورة مهما اعتمدت الصورة على الزخرفة والألوان.

واشهد معي هذه اللقطات ـ عساي وعساك نلمح الفرق بين الحقيقة والصورة ـ وما أكثر مشاهد «الحقيقة» في تاريخنا نحن المسلمين قبل أن تذهب حقيقة «صلاح الدين» وأن يسري فينا غزو الصليبيين ذوي الأصابع الخفية:

لقد رفع المشركون «خبيبًا» ﷺ على الخشبة وتناولوه بالرماح والأسنة حتى تمزق جسده، وهو قائم لا يشكو ولا يئن، ثم قالوا له : أتحب أن يكون محمد مكانك؟ لكنه يضطرب ويقول: والله، لا أحب أن يفديني بشوكة في قدمه.

وكان أبو طلحة مقبلاً على صلاته ، فإذا طائر يدخل في بستانه ثم لا يجد الطريق للخروج، ويميل إليه قلب أبي طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان؛ لأنه لا يحب أن يشغله شيء عن حقيقة صلاته وينازع قلبه!

وكان في حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين ، وأما الروم فقد كان عددهم يصل إلى خمسين ألف أو يزيدون، فإذا نصراني كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول: ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فيقول خالد ﷺ : والله، لوددت أنهم أضعفوا في العدد[2] !!

ألا ترى في هذه اللقطات الفعالية الممتازة لعنصر«الحقيقة»، والسلبية المطلقة لعنصر«الصورة» . . إن «خبيبًا» كان يحترق في أتون الحقيقة الإيمانية ولم تهزه «صورة»

(١، ٢) انظر: إلى الإسلام من جديد، لأبي الحسن الندوي، فصل (بين الصورة والحقيقة).

الرماح والسيوف أبدًا!!

وأبو طلحة احترق في أتون الحقيقة الإيمانية فباع من أجل بقائها في صلاته «صورة» المال !!!

لقد كان هذا الجيل قمة الالتحام والامتزاج بين المسلمين والإسلام.. أما ذلك الجيل الآخر الذي ظهر مع مطلع ما يسمى بالعصر الحديث ـ فهو الجيل الآخر المضاد.. جيل الفصام النكد بين المسلمين والإسلام.

قوّة الدَّفـع القُرآنيـة :

من الملاحظ أن «التاريخ الإنساني» وهو يسير في دوراته المنسجمة مع «التاريخ الكوني» يحمل في طياته بعض العناصر المتضادة... تمامًا كما يحمل الإنسان في داخله قوى الحياة ودبيب الفناء، ويظل هذان يعملان معا ويتجاوران إلى أن ينتصر الأخير منهما ويتحلل الجسم ويبدأ في أخذ طريقه كمادة خام تتشكل في ثوب جديد ... وعلى هذا النحو تماما تسير الحضارات في عملياتها الحيوية «البيولوجية» ، مع نفس الفرق الذي ذكرته، والذي يمنح التاريخ الإنساني شيئًا من الاختيار.

ويلاحظ فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية أن هناك فرقًا بين إطارين... إطار ما يسمى «بالمثال» وإطار ما يسمى «بالواقع»، ونحن لا نطالب الناس أن يكونوا جميعًا محمد بن عبد الله ﷺ أو أبا بكر أو عمر بن الخطاب... وإنما يكفي البشرية أن ترسم خطا هؤلاء وأن يصل كل فرد إلى القدر الذي يتناسب مع كفايته وقدرته على الاغتراف من منجم عظمتهم وإنسانيتهم... وهذا التصور كفيل بدحض جدليات هؤلاء الذين يطلبون من الإسلام ـ ما دام منزلاً من عند الله ـ أن يعمل في البشر بقوة السحر(١)، وأن يتخطى الضعف البشري ، وأن يتعامل مع ملائكة ، مع أن ميزة الإسلام الحقيقية أنه يتعامل مع البشر في كل حالاتهم، وأنه «شمولي» يتدخل في كل شئونهم ، ويعالج كل مشاعرهم وآمالهم وتصوراتهم. هبطت أم ارتفعت، ويقودها كلها في حنو ورحمة إلى الطريق القويم!

ومن عادة الذين يكتبون عن الدعوات أو يدعون الناس إلى منهج من المناهج أن ينزلقوا وراء الشعارات البراقة، وأن يندفعوا في طريق التمجيد الكامل لكل ما بأيديهم، ومن هنا تصطدم الجماهير التي تسير وراءهم بنوع من الانفصام بين القول والفعل، أو بين ما أسميناه «الواقع والمثال».

---

(١) انظر : مناقشة هذه القضية في كتاب : هذا الدين، للشهيد سيد قطب.

لكننا حين نتكلم عن الإسلام ـ ومن واقع تجربتنا الحضارية الفذة ـ نصرح بأن الإسلام لا يعد الناس بمدينة فاضلة «يوتوبيا» ولا هو يقدر على صنع «جنة» بشرية؛ لأن هذا يتنافى مع تصوره للفترة الزمنية التي يحياها الإنسان على الأرض.. إنها عنده «اختبار» وشقاء وكفاح و «شكر وصبر» .. إن كل ميزة الإسلام أنه يمنح الإنسان «إنسانية» ويقوده إلى أداء دوره السليم كخليفة لله في الأرض، وهذا الدور يتطلب جهدًا وعرقًا، لا لهوًا ولا عبثًا ولا انتظارًا لجنة زاخرة بأوهام الحالمين ووعود المذاهب الاقتصادية المتخبطة!!

على أن هناك شيئًا مُهِمًّا ينضم إلى مجموعة الحقائق التي ذكرناها.. هذا الشيء هو أن قوة الدفع القرآني في الحضارة الإسلامية كانت أكبر العناصر التي احتفظت لهذه الحضارة بأكبر قدر من الأصالة والحياة... لقد تعرضت هذه الحضارة ـ بحكم عامل الانفساح والتسامح الذي كان فرضًا من فرائض قرآنها ـ تعرضت لموجات تأثير خارجية أكبر من أن تتحملها أية حضارة أخرى.

لقد كانت حضارتنا ـ على امتداد قرون ـ وحدها في المعركة، كانت أمل الآملين والمثل الأعلى للحضارة الإنسانية ، ووسعت هي كل عشاق الحضارة والتحمت بهم ـ على اختلاف مشاربهم ـ التحامًا مباشرًا. وانظر معي هذه الصورة من صور الانفساح يرويها لنا «الخلف بن المثنى» (من أبناء حضارتنا في القرن الثاني الهجري).. يقول:

«شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم.. الخليل ابن أحمد صاحب العروض سنِّي، والسيد بن محمد الحميري الشاعر رافضي، وصالح بن عبد القدوس ثنوي، وسفيان بن مجاشع سفري، وبشار بن برد خليع ماجن، وحماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت شاعر يهودي، وابن نظير النصراني، وعمر بن أخت المؤيد مجوسي، وابن سنان الحراني الشاعر صابئي، فيتناشدون أشعارًا وأخبارًا».

وكانت الحضارة الإسلامية ـ إلى جانب هذا الانفساح والتسامح ـ تؤمن بنوع من «العقلانية» ساعد على خلق جو الانفساح المنشود، وإزالة ما يسمى بعلم الأسرار أو «اللاهوتيات الخاصة».. وكان لابد من أن تتعرض هذه الحضارة لاختبارات متتالية تكشف بها عن نوعية معدنها. ودعنا نذكر إذن أن خطوط الانحراف ضرورية، ودعنا نطمئنك في الوقت نفسه إلى أن مفكري الغرب ـ برغم أمراض الجسم الإسلامي التي نعترف نحن بها ـ يعترفون بأن الحضارة الإسلامية قد أفلتت من لحظة الموت، وأنها على وشك القيام بدور إنساني جديد ومهم.. بل إن كبار مفكري الغرب ـ الغرب

القوي المتجبر ـ يطمعون في أن يكون على يد هذه الحضارة إنقاذ البشرية كلها من براثن حضارتهم المادية المفلسة المنهارة.

أمراض حضَاريــــة :

لا زلنا نؤكد في مستهل هذه السطور ـ أن دراستنا هذه لا تمد الطرف بعيدًا إلى «صفين» أو «الملك العضوض»... أو «هارون الرشيد المظلوم» ونظرًا لإيماننا بما ذكرناه من أن قوى الحياة تلتقي بالقوى المضادة في جسم الحضارة.

نظرًا لهذا فنحن نؤمن بأن السبب في ورطتنا الحضارية ليس هو «معاوية»، ونعتقد أن ورطتنا ترجع في الحقيقة إلى عوامل قريبة منا، ويعتبر إصرارنا على بقاء هذه العوامل إسهامًا منا في تعميق الورطة الحضارية وتدعيمها.

وإني لأعتقد مخلصًا أن الذين حملوا «معاوية» ﵁ مسئولية انحداراتهم وورطاتهم هم من هؤلاء الذين يطرحون المسئولية على الآخرين.

وقد يكون حقا أن «معاوية» (رائد الملك العضوض) في الحضارة الإسلامية، ولكن من الحق كذلك أن «عمر بن عبد العزيز» قد استطاع أن يكون «خامس الخلفاء الراشدين» فما الذي منع الخلفاء غير الراشدين أن يكونوا «سادس» و «سابع» الراشدين المؤمنين؟!!

ومن باب وضع الأمور في نصابها أن نضع «الحجاج بن يوسف الثقفي» في موضعه كأبرز دكتاتور في الحضارة الإسلامية، لكن من باب «التبرير وطرح المسئولية على الآخرين» أن تعج حياتنا، وأن تنحدر شعوب أمتنا العربية في معظم معاركها بفعل دكتاتورية حكامها... ثم يراد منا أن نرضى بهذا الأمر؛ لأن «الحجاج بن يوسف الثقفي» واحد من أبناء حضارتنا !!

والأمر في الحق عجيب... نعم، عجيب أن يتشدق كل حاكم دكتاتور بالحجاج وينسى عمر بن الخطاب وابن عبد العزيز.

وهو كذلك عجيب أن يتشدق كل قائد فاشل مهزوم بأن الرسول ﷺ هزم في أحد، وينسى هذا القائد الفاشل «بدر والخندق وخيبر ومكة... إلخ». وقد يستمر هذا الحاكم في مركز الحكم عشرين سنة، ثم لا يفعل شيئًا، وينسى أن الرسول أقام دولة الإسلام في الجزيرة العربية كلها في أعوام لا تزيد على العشرين كثيرًا بالرغم من «أحد»، وأن «عمر» أقام دولة الإسلام العالمية الكبرى في عشر سنوات، وأن «إسرائيل»

قد صنعت من عصاباتها وشذاذ آفاقها دولة عصرية تكنولوجية في أقل من عشرين سنة!!

ونعود إلى أسلوب «التبرير وطرح المسئولية على الآخرين».

إن بعض حكام العالم الإسلامي وأصحاب النفوذ فيه يعيشون على حساب هذا المبدأ الخطير.. ولا تفوت فرصة للدعاية في جو الاتجار السياسي دون أن يلعنوا الحكام السابقين، وأخطاء الحكام السابقين، والاستعمار، ورواسب الاستعمار، وأن ينحوا باللائمة على «الجاهلية» التي سبقت عصرهم الذهبي حتى ولو كان عصرهم هذا امتدادًا قائمًا للجاهلية اللعينة.. إنهم يعيشون دائمًا على حساب الماضي ولو بلا حاضر، وبلا أمل في مستقبل أفضل.

وتظل الأمور تسير على هذا النحو، وقد تمر فترة من الركود تتيح لبعض هؤلاء الحكام الظهور بمظهر العمالقة، وقد يتاح لهؤلاء بناء مدرسة أو استيراد معدات مصنع أو النجاح في المساعي لدى البنك الدولي أو إحدى الدول الكبرى في الحصول على مزيد من القروض بفائدة أقل... وهنا تزداد الأمور تعقيدًا، ويتم الحصول على صفقة جديدة من الأسلحة، وحينئذ يدخل طور الزعامة في مرحلة جديدة يبلغ فيها الزعيم حد التأله، وتكال له الشعارات، وتؤلف له الأغاني والأناشيد ... ثم ...ثم وهذه أخطر أمراض الحضارة...يحدث امتحان مفاجئ أو احتكام لم يك في الحسبان.. وتشاهد الجماهير المسكينة «النجم، إذا هوى» فتدخل في أطوار الانفصام بينها وبين قيادتها، ويصف «توينبي» هذه الحالة فيقول: «وتفقد الزعامة المبدعة على طول المدى فتنتها للجماهير، وذلك بسبب تآكل طاقتها الإبداعية بفعل إخفاقها في علاج المشكلات التي تجابه المجتمع الذي تقوده، لكن تصر تلك الزعامة على التشبث بدورها القيادي المميز الذي لم تعد تصلح له بعد فقدان طاقتها الإبداعية، وها هنا تتحول الأقلية المبدعة إلى أقلية مسيطرة تستعين بالقوة العارمة للحفاظ على مركزها المرموق في المجتمع الذي تقوده عوضًا عن ولائه لها بدافع من افتتانه بها تحت تأثير عبقريتها»(١).

لكن لماذا تتطور الأمور بالحاكم إلى هذا الوضع؟ ... وهنا يمكننا العودة بسرعة إلى مبدأ «التبرير وطرح المسئولية على الآخرين»، فإن كثرة توارد الحكام الذين يجعلون من «الحجاج» مثلهم الأعلى، قد أحدث نوعًا من الغربة النفسية بين معظم حكامنا وبين شعوبهم.. فترك الشعب الأمر لهم، وطرح المسئولية عليهم دون مراقبة أو محاسبة، وساعدوهم على ذلك بوسائلهم «الاستخباراتية» و«المعتقلاتية» و «التعذيبية »!! ولا أظن

---

(١) نظرية أرنولد توينبى ، انظر : موجز دراسة للتاريخ .

أن حاكمًا مسلمًا في عصرنا الحديث - إلا من عصم ربك - يمكن أن يقف وأن يقول لشعبه:

«إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني»، ولا يمكن كذلك أن يطمع هذا الحاكم الموهوم في تجاوب خطير يدل على يقظة والتحام جماهيري كبير مثل رد الأعرابي المسلم:

«والله لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناك بسيوفنا»[1] . . .

ثم يرد الحاكم الممتاز بقوله «الحمد لله» ثم لا يحدث في الأمر تحريات أو بحث في أصول أسرته وجذورها . . ومحاولة الحصول على شبهة هنا أو هناك !!

وهذا الانفصام له نتيجتان: الأولى: هي «التبرير» الذي ذكرناه، ويتبعه التواكل والقدرية و «عدم الاهتمام»، وأما «قصور الطاقة الإبداعية» الذي جعله «توينبي» أول عوامل انهيار الحضارات فهو النتيجة الخطيرة أو الحاسمة لظاهرة الانفصام هذه.

وفي غيبة الشعب العربي أو الإسلامي يستطيع الحكام أن يناطحوا في الهواء، وأن يخترعوا البطولات والأمجاد . . وقد يثير هذا رائحة حضارية لا سيما إذا نجح هذا الحاكم في إثارة أو إشعال بعض جذوات الحضارة المحترقة - حتى ولو لحسابه فقط - فيستطيع بهذا توجيه القلوب إليه . . ويتعلق الشعب به - كأن الأمة قد عقمت - وتتم مرحلة تقديس الشعب لزعامته، ومرحلة مغالاة الزعامة بالإيمان بقدرتها - كرد فعل للشحنة الجماهيرية المزيفة، وتعبد الدولة نظامها ويصدها ذلك عن تطويره!!!

وعندما تستمر الأمور على هذا النحو . . تكون القافلة كلها في انتظار تحد بسيط تعجز عن الاستجابة له . . و«أرنولد توينبي» يصر على وجوب تكرار التحدي أو تواتره وفشل الاستجابة له - عكس نجاحها في حالة ارتقاء الحضارة . . و«توينبي» يؤمن بأن انقسام المجتمع على نفسه دليل انهياره . . . وأظننا قد ذكرنا قاعدة «الانفصام» كمرحلة سابقة على قصور الطاقة الإبداعية . . فنحن إذن متفقان . . ويبقى أن أتفق معه في النتيجة التي يصل إليها - وأومن بها، وهي أن الشعب والحكام في هذه الحالة يفقدان معا أمام هذا المأزق الحضاري الذي وضعوا أنفسهم فيه . . يفقدان معاً «ملكة تقرير المصير»!!! . . . وهذا ما يحدث لأمتنا !!

ويعتبر هذا المرض الحضاري - بهذه النتيجة - أول الأمراض الحضارية التي قررنا تسجيلها هنا . . وهذا المرض كما نرى متشابك قد يبدأ بالانفصال بين طبقات الأمة، وقد

---

(١) هذه القصة لم ترد فى كتب الحديث ، وإنما وردت لدى بعض المؤرخين فقط .

يبدأ بالتبرير، وقد يبدأ بما أسماه«توينبي» قصور الطاقة الإبداعية.

فأمراض الحضارة في الواقع أمراض معقدة تختلط فيها الأسباب بالنتائج، ويمكن صياغتها في أكثر من صورة.. لكنها كلها في النهاية مضاعفات لأزمة حضارية مهما يكن الخلاف في تحديدها..!!

المُسلِمُون بَيْن الجاهليَّات والإسْلام:

لم يعد ثمة شك في أننا نحن العرب والمسلمين بعامة، نسير في حركتنا التاريخية الحديثة والمعاصرة، من سيئ إلى أسوأ. وكل يوم يمر هو رصيد جديد يضاف إلى قائمة حسابنا في الفشل والانحراف عن خط الحضارة.

لقد أصبحنا نحس بأننا لا نعيش في الأيام.. بأننا ندور خارج حركة التاريخ، إن كل ما أصبحنا نأمله هو أن تحدث معجزة على نحو ما:

- أن ينقلب اليهود الذئاب إلى حملان وديعة..!!

- أن تترك الدول الاستعمارية في الشرق والغرب - فجأة - سياستها التآمرية وتخطيطاتها لابتلاعنا وسحقنا..!!

- أن يبرز - فجأة وعلى نحو سحري - صلاح دين جديد يتحمل العبء وحده.

- أما نحن العرب والمسلمين، فلا نريد أن نتقدم خطوات لإثبات جدية رغباتنا في تحقيق أهدافنا، وفي مساعدة حركة التاريخ.. وفي إبراز صلاح دين جديد!!

- لا نريد أن نفعل أي شيء إيجابي. لقد أصبحنا - بحق - قوة سلبية معطلة، نعيش عالة على حضارة العصر... ولربما - في القريب العاجل - أحس كل العالم بأننا - كالهنود الحمر - يجب التخلص منا لكي يشرق عصر جديد على هذه البقاع من الأرض، يعيش فيه معنى جديد للحياة... وإنسان جديد لائق بكرامة الحياة.

وفي ذلك الوقت، سوف يتقدم اليهود والصليبيون والماديون واللادينيون العلمانيون، لتقديم كل الخدمات التي تطلبها حركة التاريخ، تخلصًا من هذه البقايا التي تصر على العيش خارج حركة الوجود، وتنتظر في سذاجة الأطفال وغباء المجانين (خاتم سليمان) الذي يقدم لها - صاغرًا - كل الخدمات دون أدنى مقابل..!!

ومن حق الباحث أن يسأل:

- لم اختل الميزان - في يد الأمة العربية والإسلامية - إلى هذا الحد؟!

* هل هي ظروف تتصل بالسحق الحضاري الذي رمتها به الحضارة الغربية بشقيها؟

* هل هي ظروف تتصل بنوعية القيادات التي قدر لها أن تقود هذه الأمة في مجالات السياسة والثقافة والعقيدة؟!

* هل هو خلل حقيقي أصاب كيان الإنسان العربي والإسلامي نفسه؟!

ـ والحق أن هذه التساؤلات تشكل ـ وحدها أو مع غيرها ـ الإجابة الصحيحة.. لكن مع ذلك لا يمكن إطلاق هذا على نحو إجمالي سريع. إن لقضية سقوطنا أبعادها المتشابه وجذورها التاريخية والحضارية، ولها ـ عند تحليلها بحيدة ـ ظروف تتصل بالخلل الذي أصاب الجسم والنفس الإسلاميتين والعربيتين، بل الشيء المؤكد أن لقضية سقوطنا هذه ملابسات بالهيمنة الحضارية العالمية الأروبية بجناحيها الشرقي والغربي، فإذا صح أن هذه الحضارة الكاسحة قد جعلت من نفسها عملاقًا عالميا من حقه أن ينزع من كتاب البشرية كل الصفحات السابقة على وجوده. وإذا صح أن هذه الحضارة قد استغلت تفوقها العلمي والمادي، فبدأت تعيد تشكيل الإنسان على نحو جديد، لائق بمقوماتها وأساسها، وتعيد ـ كذلك ـ تفسير الكون والتاريخ وفقًا لنوع التفوق الذي حصلت عليه، وحاولت بكل وسائل النشر والإعلان تطبيق قوانينها المستقاة من نواحي تفوقها وطبيعة الظروف التاريخية التي عانتها من تجربتها، وخصائص القيم والمعتقدات والمفاهيم التي سيطرت عليها.. نعم ، حاولت تطبيق هذه القوانين على الجنس البشري كله، ونجحت في ذلك ـ بلا ريب ـ نجاحًا ساحقًا، وظهرت وحدها في الميدان كحضارة لا تدانيها حضارة، وعلم لا يوازية علم، وانتشر لها في بقاع الأرض رسل ومبشرون يوجهون الناس إلى القبلة الجديدة، وإلى الأستاذ الجديد، وأخذت الحضارة الإسلامية نصيبها من هذا السحق المدمر، وبات جليا لكل ذي عينين أن كارثة المسلمين في العصور الأخيرة، ليست هزيمة في حرب خاطفة أو غير خاطفة، وليست «نكسة» يخسرون فيها ما استوردوه من أسلحة جادت بها عليهم «الحضارة الأوربية الساحقة»..!! إذا صح كل هذا ـ وهو لا شك صحيح ـ فقد بات جليا أن قضية سقوطنا تتصل بالسحق الحضاري الذي فازت به الحضارة الأوربية المناوئة...وتتصل بالهيمنة العالمية أو بتعبير آخر «الكابوس» الأوربي الذي فرض نفسه على كل نواحي الفكر والسلوك، وحتى التصورات العقدية والإنسانية.

ولا بد لكي ننتشل الأمة الإسلامية .. أو بالأصح .. لكي تبدأ الأمة الإسلامية مسيرتها من جديد ـ من تقديم «مفهوم» خاص ومستقل، «وقوانين» خاصة ومستقلة،

و«أيدولوجية» ذات خصوصية حضارية في الشكل والمضمون، ويتوافر لها المناخ الصحي الذي يحميها من «كابوس» الحضارة الكاسحة، ويعطيها قوانين تخضع لهذه السطوة القانونية التي فرضتها الحضارة الأوربية على الجنس البشري كله متأثرة في ذلك بالظروف التي ذكرناها آنفًا.

* * *

ولقد كان شيئًا أشبه بالحركات المسرحية أحس به كل الذين استوعبوا تاريخ الغزو الحضاري الأوربي للعالم وللأمة الإسلامية.. نعم، كان شيئًا مسرحيا وهزليا أن نرى بعض الذين لا خلاق لهم من تجار الكلمة وأرباب الدهاء ينبرون عقب كل نكسة أو هزيمة تحيق بالعالم العربي ـ وما أكثر النكسات والهزائم التي منى بها في القرنين الأخيرين بالذات.... ينبرون بأصواب عالية جدا للأسف؛ ليقدموا للأمة بعض «المرطبات» أو بعض «المسكنات» أو بعض «الحلول الجزئية» التي يبررون بها فشلهم في الوصول إلى الحل الحضاري الوحيد ... ومن عجب أن هذه «الحلول» هي ذاتها مستوردة من التجربة الحضارية الأوربية بكل ما تشتمل عليه هذه التجربة من نواحي القصور الآتية من سيطرة نواح معينة على العقل الأوربي، حالت بينه وبين شمول النظرة، ومن سيطرة قيم معينة أو ظروف معينة على النوعية الحضارية الأوربية، حالت بينها وبين أن تفهم حقيقة الحضارة الإنسانية المتكاملة «بل أن تفهم مجرد التعريف الحقيقي للإنسان ـ كإنسان» .

ومن حق حاكم فاشل كالخديوي إسماعيل في مصر أن يسرف ما شاء له الإسراف، وأن تتكالب عليه الديون بفعل مبدأ «الربا» الرأسمالي الأوربي (غير الإسلامي) وأن تتدخل من جراء هذا الأيدي الأوربية في كل حركات مصر وسكناتها... ثم ... ثم يأتي الخديوي المذكور ليعلن أن الحل الوحيد لورطة مصر هي أن تكون « قطعة من أوربا » !!

وبالطبع فليس مقامنا هنا هو مناقشة هذه الحلول وأمثالها ... لكن الحقيقة التي لا نملك إرجاءها هي أن «الحلول الجزئية» وفقًا للفهم الذي نفهمه من هذا المصطلح هي السبب المباشر لضياع العرب في الآونة الأخيرة، ولا أظن أن الحل الإسلامي قد نال نصيبا رسميا محترمًا ككل الحلول التي قدمت إلى ميدان اللجج والدعاية المحلية.

ـ «فالقومية » قد أخذت نصيبها المحترم من محافل العرب الرسمية كبديل للإسلام وكعقيدة جديدة.. قد ترضى بوجود الإسلام صلاة وصيامًا، لكنها لا ترضى به لافتة

حضارية.

ـ و«الوطنية»... (مصر للمصريين وتونس للتونسيين)... إلى آخره. هذه الوطنيات قد قدمت إلى المائدة كحل حضاري.

- «و العلمانية» التي لا تؤمن براية أو «أيديولوجية» وتسمى نفسها مجتمعًا مفتوحًا أو مجتمعًا حرا أو «علمانيا» هي الأخرى قد أتيح لها فرصة التعبير عن نفسها رسميًا.

- «والعصرية» والدولة العلمية والمجتمع العلمي والشيوعية الدولية... إلى آخر هذا السيل من الألفاظ التي لاكها كثير من الذين يملكون القدرة على القول وعلى الفعل.

ـ هذه العشرات من الحلول الجزئية التي ترجع في تحليلها الأخير إلى مبدأ «الاستيراد الحضاري »الدال ـ بوضوح ـ على مدى «الضياع الحضاري» الذي أصاب أمتنا. هذه اللافتات قد عرضت بأصوات عالية. وقيلت لأغراض معينة في ظروف كثيرة. ثم ...

ثم ـ وهذه هي الحقيقة المرة ـ لا يزال معظم أبناء العرب والعالم الإسلامي كله نافلة من الناس ونكرة في المجالات العالمية، وأذيالاً للرايات الحضارية المتصارعة لا يملكون إلا التبعية ، وحسبهم أن يكونوا أتباعًا مخلصين لسادتهم في الشرق أو في الغرب.

ولماذا؟

لماذا يبدو «الحل الحضاري الإسلامي» صوتًا خافتًا لا يكاد يبين ؟ ولماذا تتكاتف كل الجهود على سحق هذا الحل ، وعدم طرحه على مائدة البحث الرسمي أو التفكير فيه بجد .. مجرد التفكير ؟

سيستطيع أن يفهم الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال كل من أتيح له أن يقرأ تاريخنا خالصًا من التفسيرات المفتعلة والمأجورة والمغرضة.

وسيستطيع كذلك فهمها، هذا الذي قرأ مخططات حكماء صهيون، ومحاضر مؤتمرات العالم الأوربي المتصلة بالشرق الإسلامي أو بالغارة على العالم الإسلامي.. وسيفهم الإجابة أكثر وأكثر.. هذا الذي أتيح له أن يبحث عن الحق المجرد، وأن يلمس وهو في الطريق إلى الحق تلك الأصابع الخفية التي كانت تقبع مستترة بالشعارات البراقة ووراء معظم الحركات والتنظيمات التي ظهرت خلال القرنين الآخرين، تحاول أن تصل

إلى حل لمشكلة الضياع العربي بعد أن آمنت العقلية العربية بضياعها الفكري والحضاري، وملت صورتها الكالحة التي أصبحت مظهرها الوحيد أمام جماهير الإنسانية الزاحفة نحو التقدم والتفوق.

لقد أصيبت هذه الحركات بنوع من العمى جعلها تتلمس كل طريق إلا طريق «المشروع الحضاري الإسلامي» وتجري وراء المواصفات الأوربية دون أن تحاول يومًا النظر إلى الأرض التي تقف عليها، وتفتش في كل حضارة قريبة أو بعيدة دون أن تتصل بتراثها وحضارتها الشامخين.

وصحيح . . . أن الحل العقدي والحضاري الإسلامي بقي كصوت الضمير يقرع الجماهير عند كل نازلة ، ويهتف بها من أعماقها كلما تخلخلت طبقات الأرض التي تقف عليها.

وصحيح. . . أن الحل الحضاري الإسلامي قد ظهر على نحو ما في بعض التجمعات والهيئات، وأنه قد نال شيئًا من العطف ـ ولا يزال ـ من بعض الذين صعدوا إلي منصة الحكم في العالم العربي ، ثم قدر الله بطريقة أو أخرى أن يتوهوا في زحمة التطورات القدرية. . !!

وصحيح أن أقلامًا إسلامية تتناثر هنا وهناك تدعو إلى الحل الحضاري الإسلامي، وتكشف النقاب عن وجه أعدائه، و تبين على نحو ما أهميته وفعاليته، وقد تدفعها «الحماسة» إلى محاولة تبديد بعض الظلمات وإضاءة بعض الشموع الهزيلة في ليل الأمة العربية والإسلامية الطويل، وربما احترقت الشموع دون أن تضىء شيئًا يذكر، وربما أعطت هذه الشموع المحترقة أعماقًا جديدة لليل الطويل. . كي يستبد ويستشرى!!!

* * *

إن «الحل الحضاري الإسلامي» حتمية تاريخية وكونية ، وفي تصورنا أن حركة التاريخ لا تقف موقف العداء لحركة الكون كله، وفي تصورنا كذلك أن حركة التاريخ والكون لا تقفان موقف العداء للحركة الدينية (التي هي الإسلام في رأينا ، باعتبار الإسلام الملائم الأكبر لحركة الكون والتاريخ منذ بزوغ شمسه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها).

وإذا كانت هناك حركة انسجام كبرى ـ في تصورنا ـ تسيطر على التاريخ الإنساني والتاريخ الطبيعي والتاريخ الديني. . إذا كان هذا، فإن أي خلل يصيب هذا الانسجام من شأنه أن يحدث خللا في الجسم الإنساني الذي فقد القدرة على إحكام هذا التوازن.

وحركات سقوط الحضارات ترتبط ارتباطًا تامًا ببعض الحقائق الكبرى التي كانت تشكل « مثالا» أو «خيالا» مهمًا تندفع إليه الأمم ذات البناءالحضاري. . فعندما تتعرض هذه الحقائق لعلميات ذبذبة واهتزاز تفقد معهما قدرتها على إشباع الأفكار اللازمة لاستمرار الحياة كالقدرة على الإبداع والقدرة على الاستقلال الفردي، والقدرة على التعبير، والقدرة على المواجهة الصريحة للحقائق. وعندما تشل الخلايا الخلاقة في الحضارات وتسبح المجتمعات في تيارات عامة ـ في أكثرها غوغائية ـ فإنها تكون رهن أخطاء فردية ـ والأخطاء الفردية حقيقة لابد من الوقوع فيها ـ ويصبح سهلاً أن تتورط هذه المجتمعات في أخطاء جسيمة تدفع ثمنها أجيالاً من عمرها، وربما لا تتمكن من العودة إلى إحكام التوازن والانسجام.

لكن ما الحل عندما يحدث هذا ؟

هناك طريقان:

هناك طريق «الخمر العتيقة التي توضع في إناء جديد» . . و هذا الطريق هو أسلم الطرق لانتشال الأمم من وهدتها. . إنه الطريق الذي ورد معناه في القول المأثور بأن «آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها» .

هكذا نهضت أوربا بعد سقوطها ، فظهرت فيها حركة إحياء وبعث للتراث الإغريقي والروماني، وانتشت العقلية الغربية بالخمر العتيقة، وبدأ عصر الإبداع الذي يغازل القمر الآن ويريد أن يستكنه إمكان التعايش السلمي معه.

وهناك الطريق الآخر . . إنه طريق الذوبان والأفول والاندماج في أية حضارة أخرى متفوقة . . هكذا سقطت كل الحضارات التي ابتلعها غزو حضاري كاسح، ومن هنا فإن كل الأمم صاحبة النزعات الحضارية. . أي تلك التي تريد أن تمنح العالم شيئًا جديدًا. . تحرص كل الحرص على نشر لغتها ودينها وثقافتها بل وعاداتها وتقاليدها وأزيائها، وهنا يصبح الجيش العسكري مجرد مساعد لهذا الكسح الحضاري، وتقع الأمة المغزوة أمام امتحان حضاري صعب وجهًا لوجه، وبقاؤها رهن عبورها هذا الامتحان.

إن طريق الوثوب الحضاري من خلال الخمر العتيقة التي توضع في إناء جديد (تعبير توينبي) هو الحل المواثم الوحيد للأزمة العربية والإسلامية في القرنين الأخيرين، وبدون هذا الوثوب الذي يستلزم صعودًا ضخمًا أمام الغزو الحضاري وغربلة واعية لكل وارداته.

أقول : بدون هذا الوثوب لن يبقى إلا الطريق الآخر.. طريق الذوبان والاندماج الذي حاول جرنا إليه كثير من عملاء الحضارة الأوربية من الشرقيين والغربيين على السواء... ولا يزال هؤلاء الخونة يبذلون جهودهم الفكرية والإعلامية في هذا الطريق المظلم.. طريق الانتحار الجماعي .. والغروب الحضاري!!

مجاهدون على الطريق

- محمد بن عبد الوهاب وأثره في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر.
- ابـن باديـــــــس.
- محمد فريد وجدي .
- بديع الزمان سعيد النورسي .
- أبو الحسن الندوي.
- الشيخ محمد الغزالى .

محمد بن عبد الوهاب
وأثره في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر

توطئـــة:

من الحقائق المقررة في (قضايا الحضارة) أنها لا تخضع لذلك الوضوح الحاسم الذي تخضع له قضايا التاريخ.

فبينما يستطيع المؤرخ ـ بأدوات البحث المعتمدة ـ أن يصل إلى تحديد قريب من الصحة لكل واقعة تاريخية يدور بحثه حولها.. فإن الباحث في الحضارة لا يستطيع أن يصل إلى هذا التحديد الواضح، وهو يعالج القضايا الحضارية؛ ولا سيما إذا كان الأمر متعلقًا بعلاقة (التأثير والتأثر) التي تربط موجة فكرية سابقة، بموجة أخرى لاحقة.

وحسب (عالم الحضارة) في هذا المجال أن يرصد السمات التي تميزت بها كل موجة؛ ثم يبحث ـ مستعينًا بالتاريخ ـ عن المعابر التي التقت عندها الموجتان، بحيث يقنع قارئه بخلو استنتاجاته من التكلف والتعسف ويضع يده على الخيوط المرئية والمستنتجة التي جعلته يقرر أن هناك تأثيراً وتأثرًا بين السابق واللاحق.

حقَائق تاريخيـة ثلاث :

وفي مقدمة بحثنا هذا نستطيع أن نضع أيدينا على ثلاث حقائق تاريخية مؤكدة. أولاها: تظهر على الطرف الأول «المؤثر» وهي أن مصلحًا إسلاميا قد ظهر في جزيرة العرب، على فترة من الجاهلية المستأنفة ـ و لد بالعيينة شمال غربي الرياض سنة ١١١٥هـ (١٧٠٣م) واسمه محمد، واسم أبيه عبد الوهاب؛ مجمع على مزاياه الموروثة والمكتسبة، وعلى خلائقه الفاضلة[(١)]، «وكان محمد هذا سباقًا في عقله وفي جسمه، حاد المزاج، فقد استظهر القرآن قبل بلوغه العشر، وبلغ الاحتلام قبل إتمام الاثنتي عشرة سنة[(٢)]» !!

وقد عاش محمد بن عبد الوهاب ـ موضوع **الحقيقة التاريخية الأولى** ـ حياة حافلة

---

(١) أحمد عبد الغفور العطار: محمد بن عبد الوهاب ص٣١، ط ٣، مكتبة العرفان، بيروت.

(٢) أحمد بن حجر أبو طامي : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص١٥ ، مطبعة الحكومة بمكة ١٣٩٥هـ.

بالتعلم والارتحال في طلب العلم، والجهاد في سبيل ما اهتدى إليه من حقائق رأى فيها صلاح حال الأمة الإسلامية، وسبيل عودتها إلي مكانتها التاريخية ... حتى وافته منيته سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) بعد أن شهد آثار إصلاحه في الجزيرة العربية، وبعد أن انتقل البدو ـ أمام عينيه ـ من حياة الجاهلية إلى حياة الحاضرة، وأنارت نجد والجزيرة العربية بدعوته العظيمة[١].

والحقيقة التاريخية الثانية ... حقيقة تظهر على الطرف الآخر «جانب التأثر»، ونحن نرى هذه الحقيقة في تلك الموجات الإصلاحية الإسلامية التي بزغت في أرض الجزائر؛ والتي بدأت تأخذ صفة تيار عام بعد أن كانت جهودًا فردية، وقد ظل هذا التيار العام ينمو حتى أصبح يمثل أقوى تيار في الجزائر، بحيث تمكن هذا التيار (السلفي) الذي كان مجرد جهود فردية من أن يتغلب على كل التيارات المنحرفة، ويتغلب على الاستعمار الفرنسي نفسه، ويعود بالجزائر إلى الإسلام عقيدة وإلى العروبة لغة... وليس هذا التيار سوى «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» صاحبة الفضل الأكبر في تحقيق استقلال الجزائر.

وتأتي الحقيقة التاريخية الثالثة: وهي حقيقة تتعلق بالظروف المتشابهة في النواحي العقدية والاجتماعية والفكرية في كلتا المنطقتين... فبينما كانت الجزيرة العربية ـ خلال القرن الذي ظهرت فيه حركة الإمام ابن عبد الوهاب، كما يحدثنا مؤرخوها الثقات كابن بشر وابن غنام والألوسي، مرتعًا للخرافات والعقائد الفاسدة التي تتنافى مع أصول الدين الصحيحة.. ويحج فيها إلى القبور، ويطلب من الموتى الحاجات، ويستغاث بهم لدفع الكروب[٢]... بينما هذا ... كانت الجزائر ـ خلال العصر الذي بدأت تظهر فيه إشعاعات حركة الإمام ابن عبد الوهاب خارج الجزيرة، أي: خلال القرنين الثالث عشر ـ والرابع عشر تعج بكثير من الخرافات وصور الوثنية وسيطرة الصوفية والمبتدعة على أرضها.

إنها ظروف متشابهة جمعت بين أرض الجزيرة في آسيا، وأرض الجزائر في إفريقيا... وكما كانت صور الوثنية والتخلف والظلام سببًا في كثير من مراحل التاريخ.. لظهور دعوات التنوير والتوحيد؛ كذلك كانت هذه الظروف داعية لكي تتلقف الأرض العطشى في الجزائر دعوة الإصلاح التي جاءتها من أرض الجزيرة العربية، لتردها إلى الكتاب والسنة مرة ثانية، كما حملتها إليها أول مرة.

* * *

(١) أحمد عبد الغفور العطار : محمد بن عبد الوهاب ص ١٠١.
(٢) انظر : الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد أبو طامي ص ١٩ .

أجل . . . تلك حقائق تاريخية ثلاث لا يكاد المؤرخ يصل إلى درجة من الشك فيها ؛ لكن هذه الحقائق ـ مع ذلك ـ لا تكفي (الباحث الحضاري) الذي يناط به بيان مدى إشعاعات الظاهرة (المؤثرة) في الموجة (المتأثرة) ، لكي يصدر حكمه بوجود علاقة (التأثير والتأثر) ؛ بل إنه مضطر أن ينهج منهج (عالم الاجتماع) الذي يجمع مفردات الظاهرة من حالات التوافق والتقارب المتناثرة هنا وهناك ليصدر ـ بعدها ـ رأيه . . . راجيًا في النهاية أن تكون النتائج التي انتهى إليها أقرب إلى اليقين ، وهذا ما نأمله بإذن الله.

عصر الإصلاح في الجَزيرَة العَربية:

كان القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر المسيحي بداية عصر الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وفي هذا القرن كان العالم الإسلامي يسير على النهج نفسه الذي سار عليه في سابقه من انفصال عن الحقيقة الإسلامية، ومن سيطرة مفاهيم مغلوطة على العقل الإسلامي، ومن تمزق سياسي وفوضى اقتصادية وهبوط اجتماعي. . . بحيث أصبح ـ كما يسميه المفكر الجزائري مالك بن نبي ـ في حالة (القابلية للاستعمار)(١).

إنها الحالة التي يتوافر فيها مواد خام بشرية تمتاز بـ(البطالة) و (الجهل) و(الانحطاط الخلقي) المتولد من انحطاطين: أحدهما: فكري، والآخر : نفسي.

ويصور هذه الحالة أبلغ تصوير الكاتب الأمريكي (لثروب ستودارد) فيقول: «في القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمق دركة؛ فاربدّ جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقيًا من آثار التهذيب العربي واستغرقت الأمم الإسلامية في اتباع الأهواء والشهوات وماتت الفضيلة في الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال»(٢).

«وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ، فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجفًا من الخرافات وقشور الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى

---

(١) انظر: شروط النهضة، فصل (معامل القابلية للاستعمار) ص ٢٢٩ (الطبعة الثالثة).

(٢) حاضر العالم الإسلامي ١/ ٢٥٩، ٢٦٠.

مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن، فصار يشرب الخمر والأفيون في كل مكان، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء، ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضربًا من المستهزئات. وعلى الجملة بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطًا بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يَدْهي الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين، كما يُلعن المرتدون وعبدة الأوثان» (١).

ونتيجة لهذه الحالة سيطر الضعف الحضاري والتفكك السياسي، بحيث لم ينته القرن إلا وكان الاستعمار يبحر بسفنه في طريقه إلى تلك المنطقة التي توافر لديها (معامل القابلية للاستعمار).

كانت روسيا تتقدم إلى العالم الإسلامي من أركان مختلفة، فقد زحفت على بلاد فارس، التي كانت مقسمة إلى أحزاب هي (الأفشار والزند والقاجار) كما زحفت روسيا أيضًا ـ على بعض أملاك الدولة العثمانية في أوربا، ولم يقتصر زحفها على هذين الركنين؛ بل إنها أخضعت سهول (القرغيز)، فعزلت خانيات التركستان الإسلامية وما وراء النهر، وخراسان الأوزبكية، واحتلت بلاد الكرج (جورجيا) متقدمة إلى ما وراء القوقاز،واستولت على جميع أملاك الترك شرق الدنيستر(٢).

أما فرنسا وبريطانيا فقد بدأتا في هذا القرن سباقهما لتقسيم العالم الإسلامي الذي أصبح يمثل (الرجل المريض).

وكانت الشرارة الأولى هي : الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م، وهجوم نابليون بونابرت ـ قائد الحملة ـ على الشام سنة ١٧٩٩م واستيلاؤه على يافا.

دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب وركائزها :

في هذه الظروف ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، فكان أول داعية خلال هذا العصر يضع يده على مواطن الداء الحقيقي، الذي يتمثل في طبيعة

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ١/ ٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) أطلس العالم الإسلامي ص ٢٨.

ما آل إليه بناء الأمة الداخلي فكريا وعقديا ونفسيا. . . فبينما كان العالم الإسلامي مستغرقًا في هجعته ومدلجًا في ظلمته على النحو الذي صوره «ستودارد» : « إذا بصوت ابن عبد الوهاب يدوي موقظًا النائمين، داعيًا المسلمين إلى الرجوع إلى سواء السبيل. . . فلم تلبث دعوته أن اتقدت واشتعلت واندلعت ألسنتها في كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي، ثم أخذ يحض المسلمين على إصلاح النفوس واستعادة المجد الإسلامي القديم والعز التليد، فتبدت تباشير صبح الإصلاح، ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الإسلام» [1]. . . ولم تكن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب إلا دعوة إلى العودة الصادقة الواعية إلى الحقيقة الإسلامية في مصدريها الثابتين الخالدين: الكتاب، والسنة الشريفة ، ودعوة ـ في الوقت نفسه ـ إلى التخلص مما خلفته قرون التخلف من شوائب أصابت بناء الإنسان المسلم الداخلي. . . فأصبح مسلمًا مشركًا ؛ يقرأ القرآن ويؤمن بالخرافات ، ويصلي لله، ويتقرب لعبيده. . . إلى غير ذلك من الشوائب التي كانت سببًا في انحطاط المسلمين.

وبالتالي ، وانطلاقًا من نواحي هذا الخلل، ركز محمد بن عبد الوهاب اهتماماته الإصلاحية على النواحي التالية:

أولا : تصحيح العقيدة الإسلامية في فكر المسلمين، وتطهيرها من مظاهر الشرك التي علقت بها، وبإيجاز: إعادة المسلمين إلى عقيدة (التوحيد) كما وردت في الكتاب والسنة، دون تشبيه أو تجسيم أو تعطيل أو تأويل . و(التوحيد) لا يكون كذلك ـ في الإسلام ـ إلا بتوحيد الربوبية ، فلا خالق ولا رازق إلا الله، وبتوحيد الألوهية، فلا دعاء ولا نذر ولا استعانة إلا بالله، وبتوحيد الأسماء والصفات ، فيوصف الله بما وصف به نفسه، واعتقاد أن الله ليس كمثله شيء . وقد بلغ من عناية الشيخ بالعقيدة حدًا كبيرًا، لدرجة أنه قام بتتبع مجالات تصحيحها، ومقاومة صور الإشراك في كل كتاباته وخطبه ورسائله. وكانت العقيدة هي المحور الذي تدور حوله كل اهتماماته، وذلك بالإضافة إلى الكتب والرسائل التي تكاد تفرد لقضية التوحيد ككتابه (التوحيد) الذي جاء في ستة وستين بابا. . سد فيها الشيخ كل منافذ الشرك، ورسالة (كشف الشبهات)، ورسالة (ثلاثة الأصول) ، ورسالة (القواعد الأربع)، وكتاب (فضل الإسلام)، وكتاب (أصول الإيمان) ومجموعة رسائله في التوحيد والإيمان التي بلغت ثلاث عشرة رسالة، وكتاب (الكبائر)، ورسائله الإحدى وخمسين التي وردت في تاريخ

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ١/ ٢٦٠ .

الشيخ ابن غنام الإحسائي، وفي الدرر السنية في الأجوبة النجدية.. والتي تناولت جوانب خمسة تتصل كلها بالعقيدة، كبيان أنواع التوحيد، وبيان معنى لا إله إلا الله، وما يناقضها من الشرك، والأشياء التي يكفر مرتكبها[(١)].

ثانياً : تصحيح عقيدة المسلمين ـ أيضا ـ في مجالات التوسل والشفاعة والاستغاثة.

ثالثًا : رفض الانحرافات التي أقحمت على الإسلام بتأثير جماعة (الصوفية) التي كانت من أقوى أسباب تخلف العالم الإسلامي.

رابعًا : إنكار زيارة القبور الشركية والبناء عليها، أو اللجوء إلى الموتى ـ مهما كان قدرهم ـ في تحقيق أمر ... لأن هذا وثنية تدخل في باب الشرك بالله. أما زيارة القبور دون شد الرحال إلى مقبرة خاصة، بهدف التذكر والاعتبار والدعاء للميت والترحم عليه فلا شيء فيه.

خامسًا: مقاومة الخرافات والبدع بكل أشكالها ، وأغلبها مما انتشر أيام الفاطميين في المغرب (٢٩٨-٣٦١هـ) ومصر(٣٦١-٥٦٧هـ)، ومن رواسب عصور التخلف . ومن هذه البدع التي أنكرها الشيخ: بدعة الاحتفال بالمولد النبوي، وبدعة المحمل، وغيرهما من البدع التي روجها الطرقية والشيعة.

سادسًا : فتح باب الاجتهاد ـ عند توافر وسائله ـ وعدم التعصب لمذهب معين، وضرورة أن يعود المسلمون إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة.

سابعًا: ضرورة إحياء فريضة (الحسبة) أي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء فريضة الجهاد التي خمدت في نفوس المسلمين.

* * *

تلك هي أبرز الجوانب التي ركز الشيخ ابن عبد الوهاب عليها.. باعتبارها الأصول التي تحيا بحياتها بقية أركان الإسلام وآدابه وفروعه.

وقد حرصنا على ذكرها لتكون الأصل الذي نقارن به اتجاه الحركة الإسلامية الإصلاحية في الجزائر.

---

(١) انظر: هذه الرسائل في (القسم الخاص للرسائل الشخصية) من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وتنظر كذلك بقية أعمال الشيخ في هذه الطبعة.

جذور دعوة الإصلاح الإسلامي في الجزائر:

ذكرنا أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا تزيد على كونها دعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء في القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فهي بهذا الإطار ليست بدعًا في كل حركات الإصلاح؛ بل هي تلميذة ومتبعة لحركات الإصلاح السابقة، كحركة الإمام أحمد بن حنبل(١٦٤-٢٤١هـ)، وحركة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)، ومحمد ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ).

وبالتالي : فإن لنا أن نستنتج أن كل موروثات الإسلام الصحيح الذي يطلق عليه ـ عادة ـ (الاتجاه السلفي) والتي كان لها بالتأكيد وجود كبير في الجزائر منذ دخل جيش التابعين الذي فتحها بقيادة أبي المهاجر دينار(٥٥ ـ ٦٢هـ).

هذه الموروثات النبوية الصحيحة قامت بدور كبير في التمهيد لانتشار دعوة الإصلاح الإسلامي في الجزائر خلال القرن الرابع عشر للهجرة، والتي كان رائدها الأول في التاريخ الإسلامي الحديث هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

ويلخص أحد الكتاب الجزائريين المعاصرين ـ صادقًا ـ حقيقة الدعوة السلفية فيقول: إنها لا تزيد عن كونها التطبيق الصحيح للحديث النبوي الشريف الذي ورد على لسان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في خطبة الوداع حين قال: «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»[١]. . . ويرى هذا الكاتب الجزائري : أن (السلفية) بهذا المعنى ذات امتداد أصيل في الجزائر، وأنها ما كان لها أن تظهر كحركة مستقلة تبدو وكأنها مذهب إسلامي إلا لأن الناس ابتعدوا عن حقيقة الإسلام، بعد أن ظهرت مختلف المذاهب البدعية التي تنتمي إلى ملل ونحل بعيدة عن الإسلام، والتي كان من بينها مذهب التصوف، الذي أسرف بعض أئمته وتغالوا في الدعوة إلى التحرر من التقاليد وإسقاط التكاليف. وزاد الأمر تعكرًا عندما ظهرت لكثير من أئمة التصوف طرق، أقبل عليها كثير من العوام. . فعندئذ ظهر رد فعل الفقهاء الذين ضاقوا ذرعًا بهذه التعاليم، وانضم إليهم المحدثون. . فاتهموا المتصوفة بالمروق عن الدين، وبأن تعاليمهم مستمدة من مذاهب غير إسلامية[٢].

ويرى الكاتب (وهو من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويشغل الآن منصب نائب رئيس المجلس الإسلامي الأعلى) أن تاريخ السلفية بالجزائر يعود ـ بعد

---

(١) المهدي البو عبد لي مقال (عبد الرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر) بمجلة الأصالة الجزائرية ، عدد صفر ١٣٩٨هـ برقم (٥٣).

(٢) المكان السابق .

الأجيال الأولى ـ إلى الفقيه الجزائري أبي الفضل النحوي، من علماء القرن الخامس الهجري، ودفين قلعة بني حماد، العاصمة الأولى لدولة بني حماد الزيرية الصنهاجية الجزائرية التي حكمت الجزائر بين عامي ٤٠٥ ـ ٥٤٧ هجرية.

وفي القرنين السابع والثامن للهجرة ظهر مصلح سلفي آخر انتشرت آراؤه الإصلاحية في الجزائر، وهو أبو الحسن علي بن عبد الحق الزويلي الشهير بالصغير.. ومع أن المغرب والأندلس بصفة عامة يغلب عليهم مذهب الإمام مالك.. إلا أن المصلح «الصغير» دعا إلى فتح باب الاجتهاد، متأثراً ـ فيما يبدو ـ بمعاصره الإمام ابن تيمية الذي عمت شهرته العالم الإسلامي.. وقد توفى الصغير سنة ٧١٩هـ، أي أنه عاصر ابن تيمية قرابة ستين سنة. وكان من تلامذة المصلح الصغير تلميذ سار على دربه وحمل دعوته، وهو العالم الجزائري الحافظ ابن مرزوق الحفيد ـ من علماء القرن الثامن ـ الذي كان يشيد بأستاذه، وقد رد على معاصر جزائري له يدعى قاسم العقباني التلمساني ـ كتب رسالة ينتصر فيها لمتصوفة زمانه.. وقد سمى ابن مرزوق رسالته: «النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص».. عقب هذا دارت معركة بين الاتجاهين السلفي والصوفي أرخت لها كتب النوازل (الوقائع) ككتاب: «الدرر المكنونة في نوازل مازونة»، وفتاوى أحمد بن يحيى الونشريس المجموعة في (المعيار). وقد شارك في المعركة كثير من الجزائريين منهم عبد الرحمن الوغليس فقيه بجاية[1] المشهور، وسعيد العقباني التلمساني، وعيسى الغبريني البجائي، ابن أحمد الغبريني صاحب كتاب (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء بالمائة السابعة ببجاية) (٢).

وخلال القرنين التاسع والعاشر للهجرة اتخذت الدعوة السلفية قاعدتها بنواحي بجاية في الشرق الجزائري، وكانت قرية تامقرة المنطلق الأساسي للدعوة، إذ كانت هذه القرية تضم منارة علمية جزائرية عالية المكانة، وهي: «معهد يحيى العبدلي»، وفي هذا المعهد نبغ العالم السلفي أحمد زورق بعد إقامته الطويلة بين تلمسان (بالمغرب الجزائري) والعاصمة قسنطينة، وما شاهد من شيوع الفوضى في العقيدة التي أدخلها العوام، وركب موجتها المشعوذون من محترفي التصوف، وقد ساعد أحمد زورق على النجاح استقامته ونزاهته في علوم الحديث والتفسير والفقه، فضلاً عن تأثيره في مجموعة من الطلبة الذين حملوا رسالته على رأسهم ابن علي الخروبي ـ دفين الجزائر، وهو ممن

---

(١) بجاية: مدينة بالشرق الجزائري كان لها ماض حضاري مزدهر، وفيها تعلم ليوناردو دافينشي، وكانت عاصمة الجزائر ووريثة القيروان مدة قرن من الزمان.

(٢) طبع هذا الكتاب طبعتين: إحداهما: جزائرية، والأخرى: لبنانية.. وعندي نسخة من الطبعة الجزائرية.

أخذوا الدعوة السلفية عن الشيخ أحمد زورق.

وقد ترك «الخروبي» تأثيره في أسرة جزائرية اشتهر معظمها بالسلفية، وهي أسرة الأخضري التي نبغ فيها عالم سلفي جليل هو «عبد الرحمن الأخضري» المتوفي سنة ٩٥٣هـ، والمولود ببنطيوس الزاب بالشمال الغربي الجزائري، وكانت له رسائل في الفلك ككتابه (السراج في الفلك) و (أزهار المطالب في علم الاسطرلاب) وتربو تآليفه في بقية الفروع على الثلاثين.

ولكي نعرف قيمة الدعوة السلفية التي قام بأعبائها عبد الرحمن الأخضري، فإنه يجب أن نتصور حالة الجزائر في ذلك العصر، أي: خلال القرن العاشر الهجري، فإن بجاية - العاصمة الحضارية للجزائر - كانت قد سقطت بيد الأسبان، وبدأت مدن الساحل الشمالي الجزائري كله تتداعى أمام أساطيلهم، كتنس، ووهران ،ودلس، وغيرها. وللأسف، فإن رجال الصوفية كانوا عونًا للغزاة ولرؤساء الإقطاع الظلمة، وتسببوا في مزيد من الانهيار:

وقد قام «عبد الرحمن الأخضري» بالتصدي لهم وكشف ضلالهم في عدد من القصائد إحداها تسمى (القدسية) وتحتوي على ٣٥٧ بيتًا، وفيها يقول عن الصوفية:

قد ادعوا مراتبًا جليلـــة ... والشـرع قد تجنبوا سبيلـــه
قد نبذوا شريعـة الرســول ... فالقوم قد حادوا عن السبيـــل
لم يدخلوا دائرة الطريقـــة ... فضلاً عن دائرة الحقيقـــة
لم يقتدوا بسيد الأنـــام ... فخرجوا عن ملة الإســلام
قد ملكت قلوبهم أوهـــام ... فالقوم إبليس لهم إمـــام
كفاك من جميعـهم خيانـة ... إذ ختلــوا الدنيـا بالديانـــة

إلى أن يقول:

من كان في نيل الأماني راجيًا ... وعن شريعة الرســول نائيًا
فإنــه ملتــبس مفتـــون ... وعقلـــه مختبل مجنـون

ثم يتعرض للمتصوف الحقيقي فيصفه بقوله:

واعلـم بـأن الـولـي الربانـي ... لتابـع السنـة والقـــرآن
والفرق بين الإفك والصـواب ... معرفة بالسنة والكتـــاب
والشرع ميزان الأمـور كلـــها ... لأصلـــها وفرعـــها
والشرع نور الحق منه قد بـــدا ... فانفجرت منه ينابيع الهـــدى

ثم ينتقل إلى وصف حالة البلاد إذ ذاك، فيقول:

هذا زمان كثرت فيه البــــدع ... واضطربت عليه أمواج الخدع
وخسفت شمس الهدى وأفلــت ... من بعدما قد بزغت وكمـلت

وقد حظيت هذه المنظومة بشروح قيمة، أهمها شرح الحسين الورتلاني صاحب الرحلة؛ لأنه ألقى فيه أضواء على حالة المجتمع الجزائري وأحصى تأثير العادات السيئة التي ألصقت بالدين.

وعلى خطى الأخضري ظهر أعلام آخرون غزوا الاتجاه السلفي وذلك خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، ومنهم الشيخ عبد الكريم بن الفلكون القسنطيني المتوفي سنة ١٠٧٣هـ، وصاحب كتاب (منشورات الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية) وهو كتاب من أحسن ما ألف في بابه، بل فريد في بابه، كما يقول الشيخ البوعبدلي. .وهو يبين هدفه من الكتاب في مقدمته، فيقول:« أما بعد، فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أطلت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسًا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسًا، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة. . وروائح السلب والطرد من المولى فائحة».

وقد ظهرت خلال العصر بعض المنظومات التي اقتفت أثر منظومة الأخضري(القدسية) كمنظومة عبد الرحمن بن محمد علي المجاجي، وظهرت بمستغانم منظومة للشيخ محمد بن حواء من علماء القرن الثاني عشر، وقد سماها (سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان) تعرض فيها لتراجم علماء الجزائر، وتكلم عن البدع المنتشرة.

ثم ظهرت رسالة للشيخ محمد بن عبد الله الجلالي. . . كتبها إلى زميله في الدراسة بفاس الشيخ أحمد التيجاني(١). . مؤسس الطريقة التيجانية عندما أبلغه أنه بصدد إنشاء الطريقة التيجانية، فأرسل إليه ينهاه ويحذره من مغبة ذلك، وينصحه بالاقتداء بالسلف الصالح والبعد عن الطرقية. . لكن ذلك لم يكن له تأثير في الشيخ التيجاني، ومضى في سبيله !!

ونحن نستطيع بعد هذا الذي أوردناه أن نقول: إن ثمة حقيقة مؤكدة هي أن كل هذه الجهود التي بذلت في الجزائر لعودة المسلمين إلى الإسلام الصحيح. . . حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة ــ والتي ألمحنا إلى بعضها ــ كانت أشبه بجهود فردية، ولم

---

(١) انظر: المرجع السابق.

تصل إلى مستوى(التيار العام) المؤثر؛ بل إن العكس هو الصحيح، فالتيار العام المؤثر والشائع كان تيار الطرقية الصوفية، و الخرافات والبدع، والاستغاثة والتوسل والشفاعة لغير الله، والتعصب المغالى فيه لمذهب الإمام مالك، لدرجة أن المغرب كله يكاد يخلو من المذاهب الأخرى، ومن المجتهدين المتصلين اتصالاً مباشرًا بفقه القرآن والسنة.

ونتيجة للسيطرة الطاغية التي يتمتع بها الصوفية، وغيرهم من المبتدعة، كان أكثر المصلحين الذين ظهروا خلال القرون المنصرمة يميلون إلى لون من (الإصلاح) لا يذهب بهم إلى درجة الصراع المباشر الواضح مع الصوفية، فكان بعضهم يعمد إلى القول بأنه إنما يريد تنقية الطرق الصوفية وتقويمها، وقد ألف « أحمد زورق » ـ الذي تحدثنا عنه ـ كتبًا من هذا القبيل مثل (قواعد التصوف) و (أصول الطريقة) و (كتاب البدع) . . كما أن عبد الرحمن الأخضري نفسه ـ صاحب المقطوعات الطويلة في تصحيح العقيدة ومقاومة البدع ـ يورد نظمًا نحس منه وكأنه يستميل الصوفية، فيقول:

وقال بعض السادة الصوفيـة مقالـــة جليلـة صفيـــة
إذا رأيت رجلاً يطـــــير أو فوق ماء البحر قد يسيـر
ولم يقف عند حدود الشـرع فإنـه مستـدرج وبـــدعي

وفي إطار هذا المستوى من الفردية والإصلاح الجزئي المحدود، يجب أن نضع كل المحاولات التي سبقت تيار السلفية العام القوى الذي سيطر على الجزائر، ممثلاً في جيل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفيمن سبقه من رواد مهدوا له بعد أن تأثروا بالدعوة الإصلاحية التي قامت في جزيرة العرب.

دخول حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الجزائر:

مع تلك التخوم التي تفصل بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة بدأت إشعاعات حركة الإصلاح في الجزيرة تنفذ إلى الجزائر عبر منافذ متعددة سوف نتعرض لها بالبحث.

وكان أول من حمل الدعوة إلى الجزائر المؤرخ الجزائري «أبو راس الناصري»(١) الذي قدر له أن يجتمع بتلامذة وأبناء الإمام محمد بن عبد الوهاب في موسم الحج، ويذاكرهم في أمور انتهى بعدها إلى الاقتناع باتجاه حركة الشيخ ابن عبد الوهاب، وكان ذلك بحضور وفد الحجيج المغربي الذي كان يرأسه ولي عهد المغرب آنذاك.

وقد أشاد المؤرخ «أبو راس» بآراء ابن عبد الوهاب عندما دوَّن تفاصيل رحلته للحج بعد عودته إلى الجزائر.

---

(١) الأصالة ،عدد (٥٣) مقال للشيخ المهدي البوعبدلي.

والحق أنه بعد «أبى راس» كان من الممكن أن تنفذ حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الجزائر في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة من طرق أقوى وأفسح مجالاً. . . إلا أن تطور الظروف على النحو الذي أدى إلى وقوع الجزائر تحت قبضة الاحتلال الفرنسي سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) حال دون ذلك.

نقول: إنه كان من الممكن حدوث ذلك التأثير لولا هذا الحدث الكئيب؛ بل إننا لنعتقد أن ذلك كان أمرًا توجبه طبيعة الأمور، ولا سيما أن تلك الحركة التجديدية الكبرى التي أصبحت تنتسب إلى ليبيا، وهي الحركة السنوسية، كانت حركة جزائرية الأصل، فإن إمام هذه الحركة السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي إنما هو جزائري ولد في بلدة مستغانم بالغرب الجزائري سنة ١٢٠٢هـ(١٧٨٧م) ولولا أن العثمانيين ـ من جانب ـ قد تربصوا به، وراقبوه على امتداد الحواضر المغربية كلها، ثم ظهر الفرنسيون منذ ١٢٤٦هـ فتربصوا به وبكل حركة تجديد ـ من جانب آخر. لولا هذا لكان أمرًا طبيعيا أن تكون الجزائر هي محضن الحركة السنوسية ولما اضطر السيد السنوسي إلى اللجوء إلى الصحراء وإلى واحة جغبوب من أرض ليبيا.

وإن التشابه في كثير من الأسس بين حركتي الشيخ محمد بن عبد الوهاب والسيد محمد السنوسي لا يحتاج إلى دليل. فالدعوتان ـ كما يقول الأستاذ العقاد: «تتشابهان في حماسة الدعوات وفي نبذ البدع والخرافات والرجوع بالإسلام إلى الكتاب والسنة، ولكنهما تختلفان بعد ذلك في أمور كثيرة»[1].

أما تعرف السيد السنوسي على الدعوة الوهابية، فقد تم له حين جاب بعض بلدان العالم الإسلامي كالمغرب ومصر وتونس، وحين ذهب لأداء فريضة الحج[2]، «حيث بقى مدة يأخذ من أساتذتها الوهابيين»[3].

ومع ذلك فنحن لم نعدم أن نجد في الجزائر خلال القرن الثالث عشر ـ بالرغم من كل الظروف التي وقعت تحتها ـ إشعاعات سلفية نفذت، إما عن طريق الاتصال بمدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة مباشرة، وإما عن طريق تأثير الدعوة السنوسية الجزائرية الأصل والقريبة من الحدود، وإما عن طريق الجامعة الزيتونية التي

---

(١) الإسلام في القرن العشرين ص ٨١، طبع نهضة مصر.

(٢) انظر: المهدية مريم المجدلية: الإسلام بين النظرية والتطبيق ص ١٠٦، مكتبة الفلاح بالكويت، ومحمد السلمان: رشيد رضا ص ٦٦ ، رسالة ماجستير بكلية العلوم الاجتماعية.

(٣) ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ١/٢٥٩، وانظر: كمال جمعة : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص٢١٦.

تعلم فيها كثير من الجزائريين، وقد ظهرت في قسنطينة بالشرق الجزائري ـ خلال هذا القرن ـ حملة ضد البدع والخرافات، وكان مركزها «نادي صالح باي» الذي ألقى فيه بعد تأسيسه مباشرة الشيخ«ابن الموهوب» سلسلة محاضرات ضد الخرافات والبدع.

كما ظهر بقسنطينة ـ أيضًا ـ العالم السلفي الشهير «صالح بن مهنا» الذي كان قد تخرج في الزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة . . . وبعد رجوعه انتصب للتدريس بمدينة قسنطينة وكتب رسالة يهاجم فيها شيوخ الطرق الذين يسميهم الناس الأشراف حينما بالغ في تعظيمهم بعض المنحرفين، وسمى رسالته: (تنبيه المغتربين في الرد على إخوان الشياطين) . . . ومما جاء في رسالته عن هؤلاء الأشراف: « أن من خالف السنة والشرع غير معتبر ولو كان مدعيًا للصلاح أو الشرف أو العلم.

وأن الشريف الفاسق لا يعتبر حتى ولو أنكر ذلك بعض الأراذل ممن قرأ مسألتين، وتعلم باب مسح الخفين»[1]!!

وقد أحدث صالح بن مهنا وكتابه ضجة كبيرة، وثارت عليه طائفة المتصوفة والدجالين، وألَّفوا في الرد عليه الرسائل والكتب، وسبوه بقصائد كثيرة.

طريق الجزائر إلى الإسلام الصحيح:

وفي سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٧م) استسلم الأمير عبد القادر الجزائري بعد مقاومة للاحتلال الفرنسي استمرت سبعة عشر عامًا، ضرب فيها أروع أمثلة البطولة الإسلامية التي أعادت ذكرى بطولات المسلمين الأول من فاتحي إفريقية والمغرب، وتحمل فيها من المشاق ما نوه به المؤرخون الفرنسيون أنفسهم.

وباستسلام الأمير عبد القادر فرضت فرنسا أبشع إجراءات الاضطهاد وأقسى أنواع الملاحقة للإسلام الصحيح واللغة العربية، وبذلت جهودًا كبيرة في سبيل طمس معالم الحضارة الإسلامية في الجزائر، سواء بواسطة المبشرين النصارى أو بواسطة إجراءات «الفرنسة» التي ترمي إلى إزالة كل ما هو إسلامي وعربي.

وفي الوقت نفسه سلطت فرنسا على الجزائر المسلمة قوافل (المتصوفة) ينشرون البدع والخرافات ويحاربون كل بادرة وعي إسلامي صحيح!!

وقد زاد الطين بلة أنه خلال السنوات الأخيرة من هذا القرن احتلت فرنسا تونس سنة (١٢٩٩هـ) واحتلت إيطاليا ليبيا في العقد الثالث من القرن التالي!!

ولقد بدا من خلال هذه الأسوار العالية المحكمة أن إسلامية الجزائر وعروبتها في

---

(١) البوعبدلي ، مرجع سابق ص ٣١ .

محنة شديدة، وكان يخيل لبعض المؤرخين أن تاريخ الجزائر سيتجه إلى الفرنسية والتغريب أكثر من اتجاهه إلى الإسلام والتعريب. أما الفرنسيون فكانوا يعتبرون الجزائر «ولاية» فرنسية إلى الأبد !!

* * *

لكن الحقيقة أن هناك منافذ مضادة ، إذا لم يكن المؤرخ العجل قادرًا على إبصارها، فإن الباحث الحضاري كان باستطاعته أن يلمسها وأن يحس بآثارها الهادئة البطيئة والحاسمة في الوقت نفسه!!

إنها منافذ تتصل بطبيعة الحضارة الإسلامية نفسها في الدرجة الأولى.

فإن فرنسا ـ على كثرة ما اتخذت من إجراءات ـ لم تستطع أن تلغي كل الإلغاء أداء المسلم الجزائري لركن من أركان دينه وهو الركن الخامس من أركان الإسلام «الحج».

ولما كانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ بقوتها وريادتها ونقائها ـ قد نشأت في البلد الذي تؤدى فيه شعيرة الحج، فقد أدى هذا الارتباط دورًا كبيرًا في نشر الدعوة على امتداد العالم الإسلامي كله.

فعن طريق «الحج»(١) انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الهند والبنجال بواسطة السيد أحمد شهيد بريلي وزميله الشهيد إسماعيل، والحاج شريعة الله البنجالي ، ونزار علي.

وعن طريق الحج انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في جاوا وأندونيسيا بواسطة الزعيم « توانكونان رنتجة» و « الحاج مسكين» و « البدري».

وعن طريق الحج انتشرت الدعوة في إفريقيا على يد الشيخ عثمان بن فودي.

وقد أوجز أحد الكتاب المعاصرين التأثير العام للحج في نشر دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب الإصلاحية ، فقال:

«انتشرت دعوة الشيخ في خارج نجد من أجل استيلاء الدولة السعودية على مكة المكرمة سنة ١٢١٨هـ، وأصبح حجاج البلاد الإسلامية يفدون إلى مكة المكرمة ويشاهدون علماء هذه الدعوة الحقة، ويستمعون خطبهم ومواعظهم وإرشاداتهم السديدة وتوجيهاتهم القيمة. . فتأثر بعض الحجاج بدعوة الشيخ فأخذ ينشر في بلاده التوحيد

---

(١) انظر: محمد كمال جمعة: انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة صفحات ٧٣، ٨٠، ٨٤، ٩٠، ٩٤، ٩٩، ١٠٦ وغيرها.

ويحارب الخرافات الشائعة في بلاده، فانتقلت بهذا مبادئ الدعوة إلى السودان والهند وسومطرة والعراق والشام ومصر والجزائر وجاوا وعمان وفارس»(١).

وهكذا فإن طريق الحج كان واحدًا من أهم الطرق التي عبرت من خلالها دعوة الشيخ إلى الجزائر، متخطية تلك الأسوار القوية التي أقامها الاستعمار الفرنسي!!

والطريق الثاني الذي اخترقت به الدعوة هذه الأسوار هو طريق معنوي لم يستطع الاستعمار الفرنسي أن يفهمه؛ لأنه لا يستطيع بتركيبه المادي الغربي أن يفهم بناء الإسلام ولا طبيعته الروحية.

إننا نستطيع أن نطلق على هذا الطريق المعنوي مصطلحات متعددة، وكلها صالحة للتعبير عن حقيقته... إنه الشعور الإسلامي الواحد أو هو (الأخوة الإسلامية) أو هو (الروح الإسلامية).. فالمسلمون علي العكس من كل أتباع الأديان الأخرى تنتظمهم مشاعر واحدة، حتى ولو فرقت بينهم أهواء الساسة، وإن المسلم ليتألم ويفرح لكل ما يصيب أخاه المسلم، مهما كان بعيدًا عنه... وهم يتبادلون التأثير والتأثر كما تنتشر الموجات الكهربائية.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة ـ بطريقة غير مباشرة «السير توماس أرنولد» فيما يتعلق بتأثير حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العالم الإسلامي كله فاعتبرها أول(عاملين) يؤثران في انتعاش الحياة الإسلامية في العصر الحديث، «فإن تأثيرها الديني ملموس في كافة أنحاء إفريقيًا والهند والملايو إلي الوقت الحاضر، وإن ما أثارته هذه الحركة من حماسة متقدة، وما سكبته في النظم الدينية القائمة من حياة جديدة، وما ينته في الدراسة الدينية النظرية وتنظيم العشائر المنسكبة من روح دافعة... إن ذلك كله قد عمل على إيقاظ روح الإسلام الفطرية» (٢) .

أما ثاني العاملين الذين ذكرهما «أرنولد» في مجال انبعاث النهضة الإسلامية الحديثة، فهو(عامل) يقول عنه: « إنه من نوع يختلف عن هذه الحركة جد الاختلاف، وهو عامل حركة الوحدة الإسلامية التي تسعى إلى ربط جميع شعوب العالم الإسلامي برباط مشترك من المودة والتعاطف»(٣).

أما الطريق الثالث فهو طريق يتصل بالطريق السابق، وإن كان أكثر مباشرة ووضوحًا.

---

(١) أحمد بن حجر أبو طامي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص٧٩.

(٢، ٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٣١ طبع نهضة مصر.

فبينما كانت الجزائر محاطة بسور الاستعمار الفرنسي ارتفعت في العالم الإسلامي دعوة أطلق عليها بعضهم اسم «الوهابية الجديدة»، كما أطلق عليها ـ أيضًا ـ دعوة «الجامعة الإسلامية» . . . مما يدل على الترابط بين الدعوتين. وكان قائد هذه الدعوة هو السيد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ) أحد المتأثرين بالشيخ محمد بن عبد الوهاب عن طريق أدائه فريضة الحج سنة ١٢١٣هـ، وعن طريق مجيئه إلى الهند وسماعه عن أثر الوهابيين، ولذلك اتهم من قبل أعدائه بأنه وهابي؛ بل روى أنه هم بالسفر إلى نجد لقيادة الحركة الوهابية[١] عن كثب. ويقول «جب»: « إن جهود جمال الدين كانت لها نتائج متينة راسخة. . إذ نشرت في كافة أرجاء البلاد الإسلامية المبدأ الوهابي القائل بضرورة التعلق بالصفاء المذهبي، وإعادة تأكيد المذهب السني القرآني»[٢].

وكان لجمال الدين الأفغاني تلميذان، وضحت فيهما دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أكثر منه، وكانا واسطتها إلى الجزائر خاصة على نحو لم يستطعه هو أو لم يسع إليه، وهما: الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ) والشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ) ـ وقد استطاعت هذه المدرسة (الأفغانية) أو مدرسة (العروة الوثقى) كما أطلق عليها بعضهم. . أن تحمل دعوة الإصلاح السلفي إلى الجزائر والعالم الإسلامي في وقت خلت فيه الساحة من المصلحين الأقوياء.

وقد كانت مجلة العروة الوثقى. . . ثم مجلة المنار من أكبر المجلات المدافعة عن اتجاه العودة إلى الإسلام الصحيح. وقد أتيح لهاتين المجلتين من الانتشار ما لم يتح لغيرهما، وكان الذود عن حياض دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب واضحًا فيهما، ولا سيما في المنار [٣] التي استطاعت أن تدخل إلى الجزائر وإلى بقية بلدان الشمال الإفريقي ، منذ سنتها الأولى حتى أنه في سنتها الخامسة ذكر أحد القراء في تونس أن العدد الواحد من مجلة المنار يدار على عشرات الناس في البيوت[٤].

ولعل أكبر دليل على حسن انتشار المنار في بلاد شمال إفريقية أن الشيخ محمد عبده حينما قام بزيارة إلى تونس والجزائر عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م) شاهد هناك الأثر الكبير الذي أحدثته مدرسة المنار ممثلة في مجلتها، وتأثير ذلك في نشر الأفكار الإصلاحية[٥].

---

(١) العقاد: الإسلام في القرن العشرين ص ٨٩.

(٢) نقلاً عن : محمد السلمان : رشيد رضا ، رسالة ماجستير ص ١٤٣ .

(٣) انظر : السلمان، رشيد رضا ص ١٩٠ وما بعدها.

(٤، ٥) المرجع السابق، ص٣٦٧، ٣٦٨ .

وهكذا ، فعن طريق هذه المعابر الحضارية الإسلامية، تحطمت أسوار الاستعمار الفرنسي الرهيبة، وظهرت حركة إسلامية صحيحة شقت طريقها وسط كل الظلمات والعقبات حتى أصبحت التيار العام المسيطر والمؤثر.

بوادر النهضة الإصلاحية الحديثة بالجزائر :

لم تنشأ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بهذه المبادئ الواضحة والقوية في عام واحد. وهو العام الذي احتفل فيه الاستعمار الفرنسي بمرور قرن على احتلاله للجزائر سنة (١٩٣٠م) احتفالاً أساء إلى الشعور الإسلامي، كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين!!

فالحق أن إساءات الفرنسيين للشعور الإسلامي كانت تتكرر في كل يوم من أيام احتلالهم للجزائر، كما أنه ليس من طبيعة الأشياء أن بلدًا يعيش في ظروف الجزائر تظهر فيه الدعوات المنظمة الواضحة المبادئ والأهداف طفرة وبدون إعداد جيد لخمائر الوثنية المنشودة.

ومن هنا يبدو صدق ما ذهبنا إليه من أهمية تأثير المعابر القوية الثلاثة السابقة، كما يدل على ذلك ـ أيضًا ـ بوادر النهضة الإصلاحية التي ظهرت بشكل فردي خلال هذه الفترة الصعبة قبل بروز جمعية العلماء الجزائريين.

كان الشيخ «عبد القادر المجاوي» (١٨٤٨-١٩١٣م) ـ (١٢٦٧- ١٣٣٢هـ) في طليعة هؤلاء الذين ظهروا خلال هذه الفترة متفاعلين مع قضية الإصلاح الإسلامي ـ كأساس لتحرير الجزائر من الاستعمار . ويطلق صديقنا الدكتور (تركي رابح)[1] على «المجاوي» عبارة «دائرة معارف» لكثرة تحصيله وغزارة علمه وتنوع معارفه ومشاركته في كل فن بطرف[2].

وقد عاش المجاوي للعلم والتعليم، فتخرج عليه عدد مهم من العلماء الجزائريين كان من بينهم الشيخ «حمدان الونيس» الأستاذ الأول للشيخ عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء.

وقد ترك «المجاوى» عدة مؤلفات سلفية منها شرح «منظومة اللمع في إنكار البدع» نظمها تلميذه السلفي المولود بن الموهوب، وحمل فيها حملة شعواء على البدع

---

(١) أخطأ الأستاذ محمد كمال جمعة صاحب انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فأطلق عليه اسم «تركي براع» ص ٢٤٤، والصحيح ما ذكرناه، وهو أستاذ بكلية الآداب جامعة الجزائر.

(٢) عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ص ١٠٦، نشر الشركة الوطنية بالجزائر.

والطرقية. ومن هؤلاء الشيخ أبو القاسم الحفناوي الشاعر والمؤرخ، وكان كاتبًا بليغًا وباحثًا مدققًا، مشتغلاً بالتعليم والتأليف إلى أن مات.

ومنهم الشيخ مصطفى بن الخوجة (١٨٦٥-١٩١٥م) ـ (١٢٨٢- ١٣٣٤هـ) وهو من خيرة أتباع الشيخ محمد عبده، وعلى رأس مدرسته في الجزائر، وقد ألف كتابًا عن حقوق المرأة في الإسلام أسماه : (الاكتراث في حقوق الإناث) [١].

ومن أبرز هؤلاء «عمر بن قدور الجزائري » الذي لقب برائد الدعوة إلى التضامن الإسلامي ، على الرغم من أسوار الاستعمار الفرنسي ، وتوفى سنة (١٩١٥م) - (١٣٣٤هـ) بعد حياة طويلة حافلة بالجهاد والشجاعة. وكانت له مقالات كثيرة نشرها في داخل البلاد وخارجها، ونشر بعضها في الأستانة بجريدة الحضارة، وبعضها في اللواء والمؤيد بالقاهرة. وقد دعا إلى مشروع أطلق عليه اسم «جماعة التعارف الإسلامي» ليكون نواة لتحقيق تضامن الأمة الإسلامية. وكانت لعمر بن قدور نظرات سديدة تدور في فلك المدرسة الإصلاحية، فقد كان يرى أن الجهل ـ أولا ، وتسلط الأجنبي ـ ثانيًا ، هما سبب ما أصاب الأمة الإسلامية من ويلات، وعنهما نشأ فريقان ابتليت بهما الأمة: فريق جامد متحجر، وهم العلماء الجامدون الذين قيدوا الفكر الإسلامي عن الاجتهاد والانطلاق وغلوا المسلمين في سلاسل الخرافات والبدع، وألقوا بهم عند أعتاب الأولياء جثثًا لا حراك بها يقعدهم عن العمل التواكل والزعم بالتسليم بالقضاء والقدر. أما الفريق الثاني: فهو فريق الشباب المتفرنج المؤمن بالحضارة الأوروبية[٢].

ومن هؤلاء المصلحين الذين مهدوا لظهور تيار جمعية العلماء الأستاذ محمد بن أبي شنب (١٢٨٦ـ ١٣٤٨هـ) ــ (١٨٦٩ـ ١٩٢٩م)، وهو من أهم الشخصيات المثقفة، المؤمنة بإسلامها الساعية إلى التمسك به، وبالحفاظ على اللغة العربية. . . وقد ظل يعمل في إطار بعث الثقافة الإسلامية الصحيحة ونشر اللغة العربية قرابة نصف قرن.

ومن أبرز زعماء هذه المرحلة الشيخ عبد الحليم بن سماية ١٢٨٣- ١٣٥٣هـ (١٨٦٦ ـ ١٩٣٣م)، ويقول عنه الدكتور رابح: « إنه من العلماء القلائل الذين نشروا الفكرة السلفية في الجزائر، وكان يدرس (رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده».

وقد ذكره الشيخ رشيد رضا في كتابه (تاريخ الإمام محمد عبده) على أنه ممن اجتمع بهم الإمام محمد عبده عند زيارته للجزائر سنة ١٩٠٣م[٣] . كما يتحدث عنه

(١) المرجع السابق ص ١٠٧، ١٠٨.

(٢) انظر مقال: عمر بن قدور، رائد الدعوة للتضامن الإسلامي، الأصالة (٥٨).

(٣) د. تركي رابح : مرجع سابق ص ١٠٨.

المؤرخ الجزائري المعاصر «عبد الرحمن الجيلالي» فيقول: «إنه كان أول من أسرع إلى استقبال الشيخ محمد عبده، وملازمته ليلا ونهارا، ومدحه بقصيدة نشر بعضها في مجلة المنار في عددها الصادر يوم ٦ ذي القعدة ١٣٢١هـ ، وقدم لها صاحب المنار بقوله: «إنها قصيدة عالم جزائري ؛ بل أشهر علماء الجزائر مدح بها الأستاذ الإمام وأرسلها إليه في القاهرة. . . فسرنا منها أنها آية من آيات صلة علماء الإسلام بعضهم ببعض في الأقطار المتباعدة» (١).

كذلك ينبغي أن نشير إلى المرحوم «عمر راسم» ونشاطه الإصلاحي، فقد كان هو الآخر متأثرًا بالشيخ محمد عبده والمدرسة السلفية (٢).

ولا شك أن هناك كثيرين غير هؤلاء ، قاموا بدور كبير، خلال هذه الفترة، حتى إذا ما جاءت سنة ١٩٣٠م - التي مثلت حدثًا غير عادي بالنسبة لشعب مسلم مقهور محروم من التعبير عن ذاته المسلمة ولسانه العربي منذ قرن كامل. . . حتى إذا ما جاءت هذه السنة، ووقف الحاكم الفرنسي «ينعي إلى الحضارة إسلام الجزائر إلى الأبد» دون اكتراث بمشاعر الجزائريين. . . قام المصلحون السلفيون يتحدونه، ويقول إمامهم ابن باديس:

شعب الجزائر مسلـــم وإلى العروبة ينتســـب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

وظهرت في ساحة الجهاد جمعية العلماء الجزائريين، تحارب الخرافات والبدع وتجمع الجزائريين على الإسلام الصحيح. . . لأنه - وحده - الطريق الصحيح.

مؤسسو جمعية العلماء والسلفية :

لكن السؤال الذي يفرض نفسه عند هذه النقطة - على الرغم من كل التأثيرات العامة والأساسية التي ذكرناها - هو : كيف وصلت السلفية الإصلاحية ، التي قامت حركتها الأخيرة على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى مؤسسي جمعية العلماء الجزائريين ؟ هؤلاء الذين قادوا الجمعية ووجهوها إلى ما آمنوا به. والحقيقة أن كثيرًا من تلامذة جمعية العلماء الجزائريين يسجلون انتماء الشيخ ابن باديس إلى مدرسة الإمام

---

(١) انظر : الجيلاني : جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية - عدد (١٣) من الأصالة الجزائرية.

(٢) تركي رابح : الأصالة عدد (٢٤) ربيع الأول ١٣٩٥هـ.

محمد بن عبد الوهاب بشيء من التلقائية، وكأنه أمر مقرر لا جدال فيه[1] . والأمر نفسه بالنسبة للمؤرخين الأوربيين[2].

لكننا مع ذلك نؤثر تتبع وصول السلفية إلى الجمعية وروادها عبر جداولها الخاصة إلى جانب الروافد العامة التي تحدثنا عنها.

والمعروف أن الشيخ عبد الحميد بن باديس قد تأثر أول ما تأثر بالفكرة السلفية عن طريق أساتذته في جامع الزيتونة بتونس، وذلك بعد سفره إلى تونس سنة ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) لإتمام دراسته في جامع الزيتونة.

وأبرز من أخذ عنهم الفكرة السلفية من أساتذة الزيتونة بتونس اثنان هما: الشيخ محمد النخلي القيرواني المتوفي سنة ١٩٢٤م، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور. و قد أشار ابن باديس نفسه إلى تأثير هذين الشخصين فيه في مقال كتبه في (جريدة البصائر) في عام ١٩٣٦م فقال:

«عرفت الأستاذ الطاهر بن عاشور في جامع الزيتونة، وهو ثاني الرجلين اللذين يشار إليهما بالرسوخ في العلم، والتحقيق في النظر، والسمو والاتساع في التفكير. أولهما: العلامة الأستاذ محمد النخلي القيرواني ـ رحمه الله ـ وثانيهما: الأستاذ شيخنا الطاهر بن عاشور، وكانا كما يشار إليهما بالصفات التي ذكرناها يشار إليهما بالضلال والبدعة، وما هو أكثر من ذلك؛ لأنهما كانا يحبذان آراء الأستاذ محمد عبده في الإصلاح، ويناضلان عنها ويبثانها فيمن يقرأ عليهما، وكان هذا مما استطاع به الوسط الزيتوني أن يصرفني عنهما. وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة، واتصلت بهما حتى حصلت على شهادة «العالمية» ووجدت لنفسي الاختيار فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر. على أن الأستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة فكان ذلك تمهيدًا لاتصالي الوثيق بالأستاذ النخلي»[3].

أما الرافد السلفي الثاني الذي أثر في مؤسسي جمعية العلماء فيتمثل في تلك السفرة الطويلة إلى المشرق العربي، والتي أدى فيها «فريضة الحج»، واجتمع خلالها بعدد كبير من رجالات الفكر والإصلاح في العالم العربي من بينهم الشيخ حمدان الونيس، شيخه السابق، والشيخ حسين الهندي العالم السلفي المجاور، الذي نصحه

---

(١) انظر: كتاب د. عمار طالبي : ابن باديس ، حياته وتراثه ، وكتاب د. تركي رابح عن عبد الحميد بن باديس ، وغيرهما.

(٢) راجع قولنا السابق من ستودارد، وارنولد.

(٣) البصائر ، عدد (١٦) السنة الأولى.

بوجوب العودة إلى الجزائر لاحتياجها الشديد إلى علمه وفكره، والشيخ «البشير الإبراهيمي» الذي تعرف عليه ابن باديس لأول مرة في حياته في المدينة المنورة حيث كان قد هاجر إليها في حدود عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ) ومنذ ذلك الحين ارتبطا بصداقة متينة كانت خيرًا وبركة على الجزائر والحركة الإصلاحية السلفية، التي برزت فيما بعد في حركة جميعة العلماء المسلمين الجزائريين[1]. أي أنه هنا في قاعدة السلفية الأولى في العصر الحديث ـ في المدينة المنورة ـ تمَّ عقد النية والاتفاق على إقامة الحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر بين مؤسسيها البشير الإبراهيمي ، وابن باديس.

مبادئ السلفية وركائز جمعية العلماء:

لعله من الحقائق المقررة أن التشابه ـ بل الاتفاق ـ في الأسس والمبادئ بين حركتين من حركات البعث والإحياء ـ إنما يقوم دليلاً قويا على تأثر اللاحقة بالسابقة.

وقد ذكرنا في صدر بحثنا خلاصة ركائز دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لهذا الغرض.

وفي هذا المقام نورد أهم الركائز التي قامت عليها الحركة الإصلاحية الجزائرية التي عرفت باسم جمعية العلماء، والتي كان لها الفضل في تحرير الجزائر من الفرنسيين وعودتها إلى الإسلام واللغة العربية.

ومن دراستنا لجمعية العلماء فكرًا وعملا ـ كما تدل على ذلك مصادرها ـ نستطيع أن نلخص الركائز التي قامت عليها في النقاط التالية : ١

أولا : إصلاح عقيدة الجزائريين:

فقد كانت جمعية العلماء تركز عملها بصفة عامة علي مقاومة الخرافات والبدع التي شوهت عقيدة المسلمين[2]، وتطهير عقيدتهم من مظاهر الشرك؛ سواء العلني منها أو الخفي.

وقد كان لإمام جمعية العلماء الشيخ ابن باديس دروس يمليها على تلامذته في جامع قسنطينة تحت عنوان (العقائد الإسلامية)، وكان يتبع في الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وصفاته منهج القرآن الكريم في الاستدلال لا منهج علماء الكلام

---

(١) د. تركى رابح : الأصالة عدد (٢٤) .

(٢) انظر : الشيخ عبد الحميد بن باديس : فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ص٢٧٢، ٢٧٣ .د. رابح تركى.

المتأثرين بالأساليب الفلسفية والإغريقية العقلية، أو أساليب الفقهاء الذين يستدلون بكلام أئمتهم أو قدماء أتباعهم بدل الاستدلال بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ (١).

وقد نشرت أجزاء من تلك الدروس بعد وفاة ابن باديس تحت عنوان (العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية) وهي تعطينا صورة واضحة عن طريقة جمعية العلماء في إصلاح العقيدة على النهج السلفي . وابن باديس يصف طريقته تلك بأنها : « الطريقة المثلى في الاستدلال على وجود الله وصفاته. فما يرجع إلى الغيبيات لا يكون إلا بالقرآن؛ لأن المؤمن إذا استند في توحيد الله وإثبات ما يثبت له ونفي ما انتفى عنه لا يكون إلا بآية قرآنية محكمة(٢).

ويعلق أحد الكتاب الجزائريين على منهج ابن باديس في إصلاح عقيدة الجزائريين، فيكشف النقاب عن حقيقة تأثره فيها بطريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويقول:

«هناك ملاحظة ينبغي الإشارة إليها قبل المضي في بيان ملامح فلسفة ابن باديس، وهي أن الإمام عبد الحميد بن باديس عالم مسلم يعمل في الدائرة الإسلامية. . وهو كذلك مصلح سائر على نهج المصلحين السلفيين من أتباع المدرسة الإصلاحية السلفية التي ظهرت في الشرق الإسلامي في القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) وكانت تنادي بضرورة العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى، وهو الكتاب والسنة بعيدًا عن بدع المبتدعين، وخرافات المنحرفين»(٣).

وفي رأي ابن باديس ـ وهو رأي الإمام ابن عبد الوهاب ـ أن العقائد السليمة هي قاعدة الإصلاح في المجتمع، وهو ينادي بأن حالة التدهور العام التي وصل إليها المسلمون في القرون الأخيرة إنما تعود إلى تدهور العقيدة لدى الفرد المسلم وتطرق الشرك الخفي إليها، وهو يعتبر ذلك «قاعدة الإصلاح»، ويقول: «فلنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك، وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات»(٤).

ثانياً : مقاومة الصوفية والمبتدعة :

ترتبط مقاومة الصوفية والمبتدعة بإصلاح العقيدة ارتباطًا وثيقًا ـ هكذا كان المنهج بالنسبة لحركة الإمام ابن عبد الوهاب أو بالنسبة لحركة جمعية العلماء الجزائريين.

فما نكب الأمة في عقيدتها التي هي مبعث تميزها وفخرها على الملل الأخرى إلا

(١) المرجع السابق ص١٩٩، ٢٠٠ .

(٢) انظر : مقدمة العقائد الإسلامية، للشيخ ابن باديس، جمع ونشر محمد صالح رمضان.

(٣) د. تركي رابح: مرجع سابق ص ٢٠٠.

(٤) انظر: المرجع السابق ص ١٢٣ (نقلا عنه).

هؤلاء المتصوفة وإخوانهم من سائر المبتدعة.

وكما كان لهؤلاء الصوفية والمبتدعة موقف مشين من دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب كان لهم - كذلك - الموقف نفسه من جمعية العلماء الجزائريين. . . بل إنهم ارتكبوا في الجزائر خيانة عظمى أخرى - بعد خيانتهم لله - هي أنهم والوا فرنسا ووقفوا معها ضد المسلمين الجزائريين دعاة الإصلاح والتحرير. فلابد أن تأخذ مقاومة هؤلاء قدرًا كبيرًا من جهود جمعية العلماء، وأن تصبح المعركة معهم سافرة واضحة وضوح المعركة مع المستعمر الفرنسي، ويرى الشيخ «محمد البشير الإبراهيمي» - الرائد الثاني لجمعية العلماء ورئيسها بعد ابن باديس - أن مقاومة البدعية والصوفية ،ورجال الدين الرسميين المنافقين هو «أول يد بيضاء أسدتها الجمعية للجزائر،حين قامت بتحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا، وتحرير النفوس من تأليه الأهواء والرجال، فإن تحرير النفوس والعقول هو الأساس لتحرير الأبدان وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلاً عبدًا. . وبذلك التحرير العقلي الذي أساسه توحيد الله تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة والمشارب المتنابذة والنزعات المتضاربة، وبذلك التحرير أيقظت الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والصحيح من المبادئ ، وبين الصالح والزائف منها، وبذلك التحرير أراحت الأمة من أصنام كانت تتعبدها باسم الدين أو باسم السياسة»(١).

ويكشف «الإبراهيمي» حقيقة بعض المنافقين والمبتدعة الذين تستخدمهم فرنسا لأغراضها، بأسلوب يذكرنا بأسلوب الإمام محمد بن عبد الوهاب. . . فيقول :«في أيام الحملة الكبرى على الحكومة الفرنسية ظهر (هؤلاء) بمظهر مناقض للدين، فكشفوا الستر عن حقيقتهم المستورة ، ووقفوا في صف الحكومة مؤيدين بها، خاذلين لدينهم وللمدافعين عن حريته، مطالبين بتأييد استعباده، عاملين بكل جهدهم على بقائه بيد حكومة مسيحية تخربه بأيديهم، وتشوه حقائقه بأسنتهم ، وتلوث محاريبه ومنابره بضلالتهم . . . وتؤيد سيطرته فتاويهم، وقد أخذوا في الزمن الأخير ببعض مظاهر العصر، وتسلحوا ببعض أسلحتهم بإملاء من الحكومة للدفاع عن الباطل، فكونوا جمعية ، وأنشأوا مجلة ، وجهزوا كتيبة من الكتاب ، يقودها أعمى - خذلانًا من الله، ليشترك عاقلهم وسفيههم في هذه المخزيات، وبحكم العضوية في الجمعية ، والاشتراك في المجلة ، بعدما كانوا يعملون فرادى، فيمتاز البريء منهم عن المجرم، ولو في دائرته الضيقة ومن أهله وجيرانه. . . دافعناهم - عندما ظهروا بذلك المظهر - بالحق فركبوا

---

(١) البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ١ / ٢٦، ٢٧، نشر دار المعارف ، القاهرة.

رؤوسهم ، فتسامحنا قليلاً ، إبقاء على حرمة المحراب والمنبر التي انتهكوها ، فشددوا إبقاء على حرمة الخبزة، فكشفنا عن بعض الحقائق المستورة فلجوا وخاضوا، وثاروا وخاروا ، فلما عتوا عن أمر ربهم رميناهم بالآبدة. . . وهي أن الصلاة خلفهم باطلة؛ لأن إمامتهم باطلة. . لأنهم جواسيس»[1]!!

ولم يكن الإمام عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ أقل حربًا للصوفية والمبتدعة من الشيخ الإبراهيمي؛ بل كان ـ رحمه الله ـ يتهمهم بإفساد الإسلام، وأنهم قد أخذوا أنفسهم بنسك الأعاجم، واخترعوا أعمالاً وأوضاعًا من عند أنفسهم ، وظنوا أنهم يتقربون بها إلى الله زلفى على غرار المشركين قبل البعثة النبوية[2].

يقول ابن باديس: «وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها، ونصب التوابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها، فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها؛ لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان محمد ﷺ يسعاه وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور » . كما يتهم رجال الطرق الصوفية بأنهم ادعوا لأنفسهم نوعًا من الربوبية حينما زعموا للعامة الساذجة بأنهم قادرون على المنح والعطاء، كما أنهم قادرون على المنع والحرمان وذلك بقصد استغلالهم وابتزاز أموالهم وصرفهم عن مكافحة الاستعمار الذي يحتل وطنهم إلى التمسح بأعتاب رجال الطرق الصوفية[3] الذين ابتليت بهم الجزائر في هذه الحقبة من أحقابها الطويلة.

ثالثًا : الرجوع إلى القرآن والسنة :

يقول ابن باديس : « إن دعوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما كانت إلا للقرآن وبالقرآن، وإن أئمة الهدى أنفسهم كانوا يدعون لاتباع الكتاب والسنة فهم دعاة اتباع لا ابتداع ، وما دعوا إلى التحزب لأنفسهم. . .كما أن الرسول ﷺ دعانا إلى اتباع سبيله في القيام بالشرائع في حياتنا العامة والخاصة، وتلك هي سنته التي كان عليها أهل القرن الأول والثاني والثالث، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم ــ عليه الصلاة والسلام» [4].

(١) عيون البصائر ١٩٨/١.　　(٢) د. تركي رابح : مرجع سابق ص ٢١٣.

(٣) المكان السابق، وانظر :ص ١٨٥. وينظر تفسير الشيخ ابن باديس لآيات :﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ [الإسراء:١٩]، وآية:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ . . ﴾ [النور: ٦٣] ، وآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ . . ﴾ [المؤمنون: ٥١] وغيرها.

(٤) انظر تفسيره لآية:﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : ٢٧].

رابعًا : تحذير الناس من الأحاديث الموضوعة :

دأب مفكرو جمعية العلماء على تفنيد تلك الأحاديث والآثار الشائعة المنكرة والموضوعة التي شوهت جمال الإسلام.

فإن الإمام ابن باديس ـ رحمه الله ـ يكاد لا يذكر عبارة السنة إلا ويحددها بعبارة «الصحيحة الثابتة»، وذلك تحذيرًا من كل ما روى عن النبي ﷺ من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ويقول في شرحه للآية ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [الإسراء : ٣٦] لابد أن نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي ﷺ من غير الحديث الضعيف لأنه ليس لنا به علم فإذا كان الحكم ثابتًا بالحديث الصحيح مثل : قيام الليل ثم وجدنا حديثًا في فضل قيام الليل يذكر ثوابًا عليه مما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه إذا لم يكن شديدًا على وجه الترغيب. ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه، وهذا هو معنى قولهم: الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال؛ أي : في ذكر فضائلها المرغبة فيها فقط لا في أصل ثبوتها.

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين»(١).

خامسا : محاربة الجمود الفكري الذي نتج عن إقفال باب الاجتهاد، وإحياء التفكير الإسلامي:

يقول ابن باديس ـ رحمة الله عليه ـ ذاكرًا فضل اثنين من أساتذته ومربيه : «وإني لأذكر للأول: «حمدان الونيس» وصية أوصاني بها وعهدًا عهد به إلي، وأذكر أثر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينًا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدد علي ألا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت، وأذكر للثاني «محمد النخلي» كلمة لا يقل أثرها في ناحيته العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية، وذلك أني كنت متبرمًا بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية وإصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله فذاكرت يومًا الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي :(اجعل ذهنك

(١) الأستاذ محمد خليل: نبذة عن حياة الإمام ابن باديس، الدعوة السعودية عدد (٦٨٣).

مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح) فوالله، لقد فتح الله بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها»(١).

سادسًا: رفض التوسل والاستغاثة، والاعتماد على النفس في التقرب إلى الله:

فقد كان الشيخ يؤكد في كل دروسه وكتاباته «أنه لا يجوز الاعتماد على غير ما يقوم به الإنسان من عمل صالح، ينتفع به في دنياه، ويتقرب به إلى الله في أخراه.. أما ما يتوسل به الجهلة بحقائق الإسلام، أو يضلهم به بعض المشعوذين فلا عبرة به في نظر الإسلام الصحيح»(٢).

تلك هي أهم الركائز التي قامت عليها جمعية العلماء وقد تكون هناك مبادئ أخرى... لكنها يمكن أن تندرج تحت هذه الركائز، كما أن طريقة عرض الأسس التي قامت عليها دعوة جمعية العلماء الجزائريين، قد تختلف من مفكر لآخر، وكذلك الأمر بالنسبة لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب... لكن المضمون في نهاية الأمر متفق ـ تمام الاتفاق ـ في الحركتين.

وعلى سبيل المثال : فإن أحد المفكرين الجزائريين يذهب إلى أن دعوة الشيخ ابن باديس ، التي هي دعوة الجمعية ركزت على ثلاثة أسس:

١ - إصلاح عقلية الجزائريين.

٢ - إصلاح عقيدة الجزائريين.

٣ - إصلاح أخلاق الجزائريين (٣).

لكننا عند التحليل العلمي للمضمون؛ بل عند قراءتنا لتفاصيل هذه الإصلاحات نجدها لا تخرج عما ذكرناه... وليس الخلاف إلا في أسلوب العرض.

كما أن من الجلي أن هذه الركائز هي ـ تمامًا ـ الركائز نفسها التي قامت عليها حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب؛ بل إنني لأرى التزام جمعية العلماء بهذه الركائز كان التزامًا يقترب من التزام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويفضل التزام مدرسة العروة الوثقى، وربما يفضل مدرسة المنار ورشيد رضا أيضًا، وليس هنا مجال تفصيل ذلك.

---

(١) المكان السابق.

(٢) الأستاذ علي مرحوم: لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، الأصالة عدد (٢٤) ، والجدير بالذكر أن الأستاذ علي مرحوم من تلامذة ابن باديس وأعضاء جمعية العلماء.

(٣) ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر، د. تركي رابح ـ مجلة الأصالة ، عدد (٢٤).

تشابه في الموضوع والمنهج والأسلوب:

وهناك جانب آخر - إلى جانب الاتفاق في الركائز- يدلنا أيضًا على مدى توافق الحركتين، وهو جانب الاتفاق في الكتابة موضوعًا ومنهجًا وأسلوبًا.

ولأن هذا المقام قد لا يتسع لنقل نصوص وفقرات كاملة من كتابات الشيخ ابن عبد الوهاب وكتابات زعماء جمعية العلماء الجزائريين كالشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، فنحن - إلى جانب الركائز التي ذكرناها والتي توضح الاتفاق التام بين الدعوتين - نشير إلى أنه من دواعي التأكيد على تأثر جمعية العلماء الجزائريين بدعوة الشيخ ابن عبد الوهاب أن كثيرًا من كتابات الشيخ ابن باديس والشيخ الإبراهيمي تبدو للقارئ وكأنها ترجمة أمينة لبعض كتابات الشيخ ابن عبد الوهاب وتلامذته وعلى رأسهم مدرسة العروة الوثقى والمنار .

أما اتفاق الكتابات في الخصائص والسمات؛ فهي حقيقية لا شك فيها، فإن القوة والجرأة والروح الإيمانية الواثقة غير الهيابة التي تبدو في كتابات الإمام محمد بن عبد الوهاب ؛ ولا سيما في رسائله وخطبه نجدها - كذلك - في كتابات مدرسة جمعية العلماء الجزائريين.

وإن الاعتماد على الدليل القوي المباشر الواضح المستقى من كتاب الله وسنة نبيه وسلوك الأئمة - نجده خاصة تنتظم كتابات الإمام ابن عبد الوهاب وجمعية العلماء الجزائريين، ممثلة في رائديها: «عبد الحميد بن باديس». . . و«البشير الإبراهيمي»؛ بل إن الموضوعات تبدو وكأنها تدور في فلك واحد وتعالج أوضاعًا واحدة، مع أن الظروف الزمانية كانت مختلفة.

وقد يرد على الخاطر أن «الأعداء» كانوا مختلفين - أيضًا - ولا سيما أن الاستعمار الفرنسي كان مسيطرًا على الجزائر، والمتوقع أن تحتل مقاومته درجة الاهتمام الأولى. . . لكن الحقيقة أن مدرسة جمعية العلماء لم تقع - إلى حد كبير - في هذا الخطأ الحضاري؛ بل إنها أدركت أن الاستعمار إنما هو نتيجة وليس العلة أو السبب، وإنما السبب هو ما أصاب كيان المسلم في عقيدته وفكره، والمنهج الصحيح هو علاج «العلة» أولا. . . ومن هنا صرفت أكثر جهودها في مقاومة «البدع والخرافات » وفي إحياء دين الأمة ولغتها، دون أن تغفل مقاومة الاستعمار كذلك.

ويضاف إلى هذه الخصائص - سمة أخرى واضحة في كتابات الإمام محمد بن عبد الوهاب، ومدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. . هذه السمة نستطيع أن نطلق عليها: عدم المدارة أو التكلف؛ بل المواجهة الصريحة بالألفاظ القوية التي

لا تحتمل تأويلاً ولا لبسًا. . . حتى وإن أغضب ذلك بعض الناس، الذين يريدون المداراة والتحايل منهجا للعمل الإسلامي.

ونورد فيما يلي بعض نصوص من كتابة الشيخ ابن عبد الوهاب، وكتابة مدرسة جمعية العلماء الجزائريين، لنستدل بمقارنتها على صدق ما استنتجناه من اتفاق بين الحركتين في المنهج والموضوع والأسلوب.

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب: «ولست، ولله الحمد، أذهب إلى مذهب صوفي أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم، بل أدعوا إلى الله وحده لا شريك له، وإلى سنة رسوله ﷺ التي أوصى بها أول أمته وآخرهم. وغير خاف ما أحدث الناس في دينهم من الحوادث وما خالفوا فيه طريق سلفهم، ووجدت المتأخرين أكثرهم قد غير وبدل»(١).

وفي رسالته إلى محمد بن فارس يقول: «اعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرة: **الأول**: الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له. **الثاني** : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة. **الثالث** : من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم. **الرابع** : من اعتقد أن غير هدى النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه. **الخامس**: من أبغض شيئًا مما جاء به رسول الله. **السادس**: من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه. **السابع**: السحر ،ومنه الصرف والعطف. **الثامن** : مظاهرة المشركين ومعونتهم على المسلمين. **التاسع**: ومن اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباعه ﷺ، وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى. **العاشر**: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به»(٢).

ومن رسالته إلى أهل المغرب . . . بعد أن ذكر بعض آيات القرآن الآمرة بوجوب اتباع سبيل الله وما أنزل سبحانه . . قال:

«إذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها الإشراك بالله والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات، وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القربان، والاستعانة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصح إلا لله، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها؛ لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان

---

(١) من رسالته السابعة والثلاثين : الرسائل الشخصية : القسم الخامس (طبع جامعة الإمام) بتصرف.

(٢) بتصرف من المرجع السابق ، الرسالة رقم ٣٢ .

خالصًا»(١).

ونكتفي بهذه النقول من تراث الإمام محمد بن عبد الوهاب محيلين القارئ إلى تراثه الضخم، و نذهب لنقتبس بعض النقول ـ للمقارنة ـ من تراث الشيخ عبد الحميد ابن باديس إمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

يقول الشيخ ابن باديس عند شرحه(٢) لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٧] الآيات ، يقول : « كما أن علينا أن نتبع سبيل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي جاء بها من عند الله تعالى وهي الإسلام ، كذلك علينا أن نتبع سبيله في القيام بشرائع الإسلام علما وعملاً في أبواب العبادات وأحكام المعاملات، وفي تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة ، وهذه هي سنته التي كان عليها، وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثاني من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم. وكما أن من عدل عن الإسلام ولم يسلك سبيله وقع في ضلال الكفر، كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل الإسلام يندم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان من تفريطه، كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة؛ إذ كل منهما قد ظلم نفسه وفرط في سبيل نجاته. فالآية وإن كانت في الكافر والمشرك فهي تتناول بطريق الاعتبار أهل الأهواء والبدع».

ويقول عند شرحه لآية: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء:١٩] يقول : « من الناس من يخترع أعمالاً من عند نفسه ويتقرب بها إلى الله مثلما اخترع المشركون عبادة الأوثان بدعائها والذبح عليها والخضوع لديها وانتظار قضاء الحوائج منها، وهم يعلمون أنها مخلوقة لله مملوكة له، وإنما يعبدونها كما قالوا: لتقربهم إلى الله زلفى، وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب التوابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها، فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها؛ لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد ﷺ وأصحابه من بعده ، فساعيها موزور غير مشكور».

ويقول عند شرحه لقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ

---

(١) الرسالة رقم ٢٧ من الرسائل الشخصية.

(٢) يلاحظ أن تفسير ابن باديس للقرآن كان في أصله دروسًا ألقاها في الجامع الأخضر بقسنطينة بالجزائر.

وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] .

يقول: «إن أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي ﷺ الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم، فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم. إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم. ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة إلا في كتاب الله فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه. أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عبادة الله وهم في أشد الحاجة إليه. وقد كان من نتيجة هذا ما نراه في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ومما ينبغي لأهل العلم ـ أيضًا ـ إذا أفتوا أو أرشدوا أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم؛ ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته ويعرفوهم منزلته ويجعلوه منهم دائمًا على ذكر وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب وأثر في النفوس، فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إن كنتم للخير تريدون» (١).

ومن الغريب ـ إلى جانب هذه النصوص التي تبين الاتفاق في الموضوع والمنهج والأسلوب بين الحركتين ـ أن أول جريدة أنشأها ابن باديس كان اسمها (المنتقد) وكانت جريدة تكاد تكون متخصصة في (انتقاد) الصوفية، وقد أوقفتها فرنسا عام ١٩٢٢م بعد ثمانية عشر عددًا من صدورها ، فخلفتها جريدة «الشهاب» . . . فلما قامت الجمعية رسميًا سنة ١٩٣١م (١٢٤٩هـ) كانت أول جريدة أصدرتها هي «السنة المحمدية» سنة ١٩٣٣م (١٣٥١هـ) ثم تلتها جريدة «الشريعة المطهرة» بعد أن أغلقت فرنسا الجريدة الأولى، ثم «الصراط السوي» ثم «البصائر».

أفلا تؤكد هذه الجرائد والمجلات ـ حتى من مجرد عناوينها ـ ذلك الاتفاق في «الموضوع» على الأقل !!

أما من ناحية «المنهج والأسلوب» فنستطيع أن نلخصه في جملة واحدة . . .إنه «المنهج القرآني».

---

(١) راجع : آثار ابن باديس لمؤلفه د. عمار الطالبي ١/ ٢.

فإن ابن باديس كان على منهج الإمام محمد بن عبد الوهاب ، يؤمن إيمانًا لا حدود له بدور القرآن الكريم في تكوين الجيل المنشود على غرار الجيل الذي كونه القرآن في العصور الأولى للإسلام، يقول ابن باديس في مجلة الشهاب: « فإننا نربي ـ والحمد لله ـ تلامذتنا على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم، وفي كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها».

أما كيفية تثقيف هذا الجيل القائد فيشرحها الشيخ الإبراهيمي بقوله: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا ـ بالمدينة المنورة ـ في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا»(1).

وبعـــد:

فإني أعتقد أني قدمت بين يدي «قضية عادلة» أدلة كثيرة، قد تكون في غنى عنها، لكني قدمتها خضوعًا للمنهج العلمي الذي نتعامل به مع الآخرين.

أما يقيني ـ الذي أومن به ـ فهو أن الحضارة الإسلامية كل لا يتجزأ ، حتى وإن اختلفت ألوانها وظلالها. وبالتالي... فإن موجاتها الموجبة والسالبة تتحرك وتتفاعل متبادلة التأثير والتأثر، متخطية ـ في الوقت نفسه ـ كل حواجز السياسة وكل ضغوط الواقع ، وكل الأسوار المصطنعة الطارئة.

إنها حضارة «واحدة» تستمد من عقيدة«التوحيد» كيانها الواحد المتعدد العطاء... وهذاما أومن به !!

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] .

ابن باديس .. المجاهد المجدد

ما زال الجزائريون حتى اليوم ، وبالرغم من كل النكبات التي تعرضوا لها يعبِّرون بكل لغات القول والفعل عن مظاهر التبجيل والحب والوفاء لرجل من رجالات الإسلام وعلم من أعلام البعث الإسلامي، وضمير من ضمائر اليقظة، وداعية من دعاة الحل الإسلامي الحضاري لأزمة الإنسان العربي الحضارية. . . نعم، ما زال الجزائريون يذكرون ذلك الرجل الذي انطلق من بين آلاف الظلمات الاستعمارية ، ومن خلف أسوار (الفرنسة) الرهيبة ليعلن للعالم بأعلى صوت:

«إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون هي فرنساولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ـ ولو أرادت ـ بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها. . . لا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة».

إن أحدًا لا يستطيع أن يمنح هذه الكلمات قيمتها التاريخية الحقيقية إلا إذا عاش الواقع الجزائري الحالي، ورأي عن كثب بصمات فرنسا الاستعمارية التي لا تزال تفرض نفسها بعد ثمانية عشرعامًا من الاستقلال.

بصمات تتجلي في (استعمار خلقي) يجعل من الخمر والميسر والعلاقات الجنسية الملوثة عادات شخصية تدل على التطور، وتعمق معنى الحرية الفردية.

بصمات تتجلى في (استعمار عقدي) يتمثل في تلك الخرافات التي انتشرت حتى طمست حقائق الإسلام كقوة حركية قادرة على استيعاب واقع الإنسان المسلم وقيادة طريق المستقبل.

بصمات تتجلى فى (استعمار لغوي) يتمثل في لسان ذلك الإنسان الجزائري الذي يبكي قلبه حين يريد أن يترجم عن خلجات فؤاده فيتعثر به اللسان، فلا يملك إلا أن يلعن الاستعمار. . . !!

هذه البصمات وتلك تتناثر هنا وهناك يعلنها الجزائري المسلم في أعماقه المسلمة العربية، ويترجم عنها بلسانه الذي يتأرجح بين العربية والفرنسية، ويحاول جهده التخلص منها كبقايا استعمارية، ويتجشم في سبيل ذلك ما لا يعلم مداه إلا الله. وكل ذلك الصراع مع كل هذه البصمات لا يزال يدور بعد ثمانية أعوام من نزوح فرنسا

رسميا عن الجزائر، ومن وجود نظام يجعل العربية لغة الدولة الرسمية، ويستعمل كل نفوذه لنشرها، ويحترم الإسلام، ويفرض له مكانته التي نرجو أن تنمو وتتقدم.

نعم، كل ذلك يدور في هذه الأيام ـ مع هذه الوضعية الأخيرة ـ فكيف أتيح لرجل من الناس منذ هذا التاريخ البعيد أن يكتب هذا الكلام في صحيفته العربية التي يصدرها رغم أنف الاستعمار!!

طاقة إسلامية:

من خصائص هذا الدين أنه قادر على الانبعاث من أشد ظروف الهزيمة المادية والنفسية، و«صلاح الدين» في التاريخ الإسلامي ليس فردًا بذاته، وإنما هو ظاهرة تاريخية تتكرر في مراحل الوجود الإسلامي كلما تطلب الأمر ذلك.

ولو أن هذا الدين يجري على سنن القواعد البشرية العادية دون أن تحميه من الخارج قوة تظهر له بين الحين والحين «صلاح الدين» يجدد ما كاد يندثر من أمره، ويرفع بين الناس راية حضارته، لأمكن أن تندثر حضارة هذا الدين منذ قرون عديدة!!

إني أرفع صوتي بهذا الكلام لأشير إلى حقيقة مهمة هي أني لا أريد أن أكتب عن ابن باديس إحياء لذكراه في النفوس، أو اعترافًا بفضله على الجزائر الإسلامية فحسب، وإنما أكتب عنه ليعلم الذين رأوا واقع هذه الأمة رؤية السائح المتفرج ـ ورأوا مشكلاتها الكثيرة ـ فلم يحاولوا رفع راية أمل ولا التضحية في سبيل كلمة حق، وإنما انطلقوا يزرعون بذور الهزيمة الأبدية ويروجون لأفكار التحلل والاستسلام... نعم، إني أتكلم عن ابن باديس ليعلم هؤلاء ـ إذا كانوا يجهلون ـ حقيقة ما يتمتع به هذا الدين من أصالة حضارية ، وليعلموا أيضًا سيرة رجل آمن بالعمل قبل القول وآمن بإسلامه وعروبته الإسلامية، وانطلق منهما على نحو إيجابي ثوري ينتشل شعبًا كان قصارى أمل بعض مثقفيه أن يجدوا أنفسهم في مستوى بشري متقارب مع الاستعمار السيد، ولم يكن أحدهم يحلم ـ مجرد الحلم ـ بإمكان وجود جزائر إسلامية عربية ذات كيان دولي خاص وذات رسالة في محيط العالم الإسلامي والعالم العربي على حد سواء !!

في قسنطينة :

ولد الإمام ابن باديس (الشيخ الرئيس) سنة ١٨٨٩م في مدينة قسنطينة ـ أكبر مدن الشرق الجزائري ـ وأبدع مدن الجزائر على الإطلاق من حيث الموقع الطبيعي، وأشهرها من حيث احتضانها القديم للثقافة الإسلامية، وإنجابها لكثير من قادة الفكر الإسلامي في الجزائر، وكذلك كثرة الآثار الإسلامية بها.

لقد كانت قسنطينة ـ طيلة عهد الاستعمار الفرنسي بالذات ـ طليعة مدن الجزائر كفاحًا في سبيل الثقافة الإسلامية والعربية. . وقد ساهمت بطائفة ممتازة من العلماء والمفكرين المسلمين كسيدي عمار بن شريط القسنطيني المفتي، وسيدي محمد الشاذلي القسنطيني، والشيخ الفاضل عبد الحفيظ الهاشمي الذي أصدر من قسنطينة في عهد الاستعمار أكبر جريدة عربية يومية (النجاح). . وقد صدرت في قسنطينة كذلك جريدة (المنتقد) بقيادة مجموعة من علماء الإسلام. . ومن قسنطينة كذلك صدرت (الشهاب) مجلة شيخنا ابن باديس التي كانت الصوت الأقوي والأكبر لجماعة العلماء المسلمين، ولحركة البعث العربي في الجزائر.

في قسنطينة هذه نشأ الشيخ ابن باديس وترعرع وتلقى علومه، ثم تخرج من الزيتونة عام ١٩١٢م ، ولم يلبث أن قام بالحج إلى بيت الله الحرام ـ شأنه شأن الأمير عبد القادر ـ حيث استغل هذه الرحلة الدينية فطاف بالمشرق والمغرب، وأتيح له أن يعرف من أمراض المسلمين الشيء الكثير ، فعاد إلى الجزائر عازمًا على الإصلاح وفق منهج إسلامي تكونت أبعاده في ذهنه من مجموعة من المؤثرات المهمة، صدر بعضها عن الواقع، وصدر بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ، وصدر بعضها عن الروح الإسلامية الجديدة التي أشاعها في سماء العالم الإسلامي الإمام محمد بن عبد الوهاب، والسيد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده؛ خاصة وأن الشيخ محمد عبده قد زار الجزائر سنة ١٩٠٣م وأصبح ذا تأثير كبير في نفوس المثقفين والوطنيين الجزائريين.

الكفاح الإسلامي الجزائري:

لكي نعطي حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسسها الشيخ الرئيس مكانتها التاريخية الحقيقية في قصة الكفاح الإسلامي الجزائري يجب أن نربطها ربطًا موضوعيا بقصة الكفاح الإسلامي في الجزائر كلها.

وفي الحق فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم تك إلا تجسيما حيا ومنظمًا لقصة كفاح الإسلام في الجزائر منذ سنة ١٨٣٠م.

ولسنا نتحيف حقائق التاريخ إذا ما ذكرنا أن (العنصر الإسلامي) كان هو العنصر الوحيد البارز في إنقاذ الجزائر من المصير الذي آلت إليه الأندلس.

وإذا ما استثنينا الطابع الإسلامي الذي امتازت به حركة الأمير عبد القادر، فإننا نجد كل بواكير النضال ضد فرنسا قد حملت البصمات الإسلامية. . ولئن كانت حركة «نجم شمال إفريقيا» التي ظهرت سنة ١٩٢٥م كأول حركة ثورية تنظيمية ضد الوجود

الفرنسي في الجزائر... لئن كانت هذه الحركة هي أول محاولة تنظيمية ضد فرنسا ظهرت في دور الكفاح التنظيمي، فإن هذه الحركة ذاتها كان العنصر الإسلامي محركًا قويا لها حتى إنها تماشيًا مع واقعها، قد أعطت نفسها اسمها الصريح منذ سنة ١٩٣٦م وأصبحت تدعى « الاتحاد الوطني للمسلمين المغاربة ».

على أنه في نفس التاريخ الزمني لقيام حركة نجم شمال إفريقيا ١٩٢٥م قد ظهرت جمعيات الإصلاح بوادي ميزاب وكان شعارها: الدين والخلق قبل الثقافة، ومصلحة الوطن قبل مصلحة الفرد.. ومواكبة لجمعيات الإصلاح ظهر « نادي الترقي» الذي كان نصيرًا كبيرًا للثقافة الإسلامية والعربية وداعيًا إليها بين الجماهير الجزائرية.

وفي نفس الموكب الإسلامي الذي يقود معركة إنقاذ الجزائر من براثن الفرنسية العاتية ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة الشيخ ابن باديس معطية كل الأهداف الجزائرية المبعثرة صيغتها التقنينية الواضحة التي تمثلت في :

* مقاومة الإدماج والتجنيس وإبراز الشخصية الجزائرية.
* فصل الدين الإسلامي بكل أجهزته عن سلطة الدولة الفرنسية الحاكمة.
* إتاحة الفرصة للتعليم العربي والثقافة العربية ليأخذا مكانتهما اللائقة بهما في الجزائر.
* تربية الشباب الجزائري تربية إسلامية ، وتكوين طليعة شبابية تقود بعث الجزائر بعثًا إسلاميا.
* العمل على توحيد كلمة المسلمين والقضاء على أسباب انحطاطهم.. هذه هي جماع أهداف جمعية العلماء التي انطلقت منها، وانطلق منها الشيخ ابن باديس في محاولة كفاحية لإعطاء الشعب الجزائري صفته التاريخية الإسلامية.. وسيرًا في الطريق إلى تحقيق هذه الأهداف، فقد قامت الجمعية بقيادة ابن باديس بتنفيذ الخطوات التالية:

* إنشاء المدارس العربية والإسلامية، وعلى رأسها معهد ثانوي بقسنطينة.
* إنشاء المساجد والنوادي الثقافية.
* إرسال البعثات العلمية إلى بلاد الإسلام المتقدمة.
* تأسيس الكشافة الإسلامية.
* تأسيس جمعية التجار المسلمين.

* تأسيس جمعية الفنون الجميلة والموسيقى العربية.

* إنشاء صحافة عربية وإسلامية!!

الشيخ ابن باديس ومنهجه الإصلاحي:

على امتداد ما يزيد على ربع قرن من الزمان من حياة الشيخ التي لا تزيد عن واحد وخمسين عاما كان الشيخ ابن باديس ـ رحمه الله ـ يقضي سحابة نهاره ومعظم ليله في « الجامع الأخضر» أو «سيدي قموش» أو «سيدي بومعزة» أو «مدرسة التربية والتعليم» بقسنطينة يعلم ويحاضر ويفسر القرآن ويغرس القيم الإسلامية بكل الطرق المستوحاة من منهج القرآن في التربية . . لقد آمن الشيخ بشيء عظيم. . . لقد آمن بأن مستقبل الجزائر الإسلامي يتوقف على تكوين قيادات شبابية تنصهر في بوتقة الإسلام، ويتاح لها أن تتصل بالإسلام من خلال منبعه الثَّر الصافي (القرآن الكريم) ،ومع أننا نلمح في هذه الطريقة أصداء (المنهج التعليمي) الذي انتهجه الإمام محمد عبده وخالف به طريقة أستاذه جمال الدين، إلا أننا ـ إعطاء للصورة حقها ـ نعترف بأن الشيخ ابن باديس كانت له جولات يغلب عليها الطابع الثوري. . ولقد تمثلت هذه الجولات في عديد من مقالاته ونظراته التربوية، كما تمثلت في ذلك المؤتمر الإسلامي الكبير الذي جمع فيه ابن باديس شعب الجزائر سنة ١٩٣٦م !! والذي يتاح له أن يدرس بعمق الوضعية الفرنسية في الجزائر سوف تتكشف له الأعماق الثورية لهذه المحاولات، وفي ذات الوقت سوف تتكشف له نواح كثيرة من نواحي ذكاء وعبقرية الشيخ ابن باديس.

إن الشيخ ابن باديس لم يقف عند حدود المحاضرات والدروس في قسنطينة، وإنما كان دائم التجوال والانخراط في كل التجمعات التي يستطيع من خلالها أن يغرس القيم التي يؤمن بها. . وتحقيقًا لأكبر أرضية يمكن أن تصل إليها هذه القيم فقد شجع الشيخ الصحافة العربية والإسلامية التي كانت تجد كل عنت من السياسة الفرنسية وعملائها. . ومن هنا فقد قام الشيخ نفسه بإصدار مجلة «الشهاب»، وجريدة (التقدم) كما ساعد في تحرير جريدة صديقه الشيخ البشير الإبراهيمي (البصائر) وفي مجلات (السنة)، و(الشريعة)، و(الصراط)، وجريدة (المرصاد). . وغير ذلك وتلك من المجلات والجرائد التي تسير مع طريق الشيخ وطريق جمعية العلماء المسلمين.

لقد كان الشيخ الرئيس يؤمن بتكوين (الفرد) إيمانًا مطلقًا ، و يرى أن (الفرد) أساس المجتمع الصالح، ومن هنا فقد عكف على الدروس والمحاضرات وعمل على الاتصال المباشر بتلامذته، وتكوين علاقات فردية يستشف من خلالها روح الفرد، ويتمكن من التأثير فيه . وهذا المنهج مع قربه من منهج الشيخ محمد عبده، لكنه كان

عماد منهج جمال الدين في نفس الوقت ، بيد أنه من جراء هذا المنهج الذي ألزم الشيخ به نفسه، فإنه كان يرفض أية جولات دعائية أو (مؤتمراتية) خارج الجزائر، وكل ما هو من هذا القبيل كان يحيله إلى صديقه الشيخ البشير الإبراهيمي. . . كما أنه من جراء هذا المنهج سالف الذكر لم يتوفر له أن يترك آثاراً علمية ضخمة، وكل الآثار بعده هي من صنع تلامذته الذين حضروا عليه دروس قسنطينة طيلة خمسة وعشرين عاما. . وربما كان من أبرز آثاره التي جمعها تلامذته بعده (تفسير ابن باديس) وهو تفسير عصري لبعض الآيات القرآنية التي ألقاها الشيخ كدروس في (حلقات الذكر)[1] التي كانت تعقد في (الجامع الأخضر). . . وقد جمعها تلميذه « أحمد أبو شمال» لكن حالت الظروف دون نشرها كاملة، ثم وفق الله الأستاذين : محمد صالح رمضان، وتوفيق محمد شاهين فقاما بنشرها خير قيام. . كما قام الأستاذ محمد صالح رمضان وحده بنشر بعض آثار الإمام الأخرى في كتاب أسماه (العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية)، ثم وفق الله أحد تلامذته أخيراً وهو الأستاذ محمد الطاهر فضلاء فجمع كثيراً من مقالاته وخطبه بين سنوات (١٩٣٢ـ ١٩٣٩م) ونشرها بعنوان (قال الشيخ الرئيس) وكتاب (التربية الأخلاقية عند ابن باديس) للدكتور (تركي رابح). . . ويعتبر الكتاب الموسوعي الذي قدمه الصديق الدكتور عمار الطالبي عن (ابن باديس حياته وآثاره) أضخم عمل قدم عن الشيخ إلى يومنا هذا.

وفي الحق لا تزال آثار كثيرة من آثار الإمام حبيسة أحابير كثير من تلامذته المنتشرين في أنحاء الجزائر الآن، ولا تزال بعض آثار الشيخ في حاجة إلى تحليل موضوعي. . ولعل هؤلاء الذين أتيح لهم أن يتنفسوا في مناخ الشيخ وأن يعيشوا في ظلاله ـ أطال الله أعمارهم ـ لعلهم يبادرون بإعطاء (ابن باديس) الفكرة و (ابن باديس) الثورة و (ابن باديس) التاريخ والحقيقة . . .وبعض ما يستحقه (ابن باديس) الظاهرة التاريخية الفذة من درس وتحليل وحفظ . . إنهم بذلك يمنحون شجرة الفكر الإسلامي بعض أوراقها اليانعة، ويمنحون الأجيال العربية والإسلامية الجائعة غذاءها الذي لا يصح جسمها إلا به.

رحم الله ابن باديس ، وأقال الأمة التي عمل من أجلها من عثراتها، وهداها إلى الطريق المستقيم.

---

(١) حلقات الذكر : هي دروس تعليمية وتربوية، وليست بالمعنى الصوفي السلبي.

محمد فريد وجدي
من زعماء التجديد الإسلامي في تاريخنا الحديث

توطئـــة :

ظهر محمد فريد وجدي مع بداية القرن العشرين المسيحي، حين كان الاستعمار الإنجليزي قد بدأ يوطد لنفوذه في العالم العربي، بدءًا من مصر، عن طريـق الغزو الفكري ، بعد أن انتهى من تثبيت أقدامه العسكرية.

وقد أعلن الحرب في صراحة على غير عادة الاستعمار وأساليبه ، بل على غير عادة الغزو الفكري بعد ذلك.

وقد فتح الاستعمار على المسلمين والإسلام عدة جبهات في ذلك الحين. . أهمها:

* الزعم بأن الإسلام لا يصلح في عصر العلم والمدنية، إذ هو دين البداوة، وكان المندوب السامي البريطاني في مصر «كرومر» وتلميذه «دنلوب» يحركان جيوش «المستشرقين» العاملين في الجامعة المصرية، وفي مراكز الإرساليات الأجنبية، والمستغربين العاملين في الصحافة (مسلمين ومسيحيين مصريين) في هذا الاتجاه ، بل كانا يتطوعان شخصيا بإلقاء المحاضرات وكتابة المقالات. . لتدعيم وجهة نظرهما الرامية ـ في محتواها الأخير ـ إلى فصل الإسلام عن الحياة، وعزله في شعور المسلم وسلوكه، وجعله دينًا تاريخيا، كما هو حال النصرانية في الغرب!!!

* الزعم بأن الإسلام ـ إذا صلح عقيدة وعبادة ـ فإنه لا يصلح نظامًا اجتماعيا أو اقتصاديا. . . أو آدابا عامة . . أو أخلاقًا. . أو أسلوبًا يحكم الأحوال الشخصية . . والعلاقات الاجتماعية.

وفي هذه الظروف ، وبتأثير من الضغوط الاستعمارية ، في الخارج فيما عرف بأسلوب البعثات ، والداخل في الجامعات والصحافة والكتب ـ ظهر «علي عبد الرازق» بكتابه (الإسلام وأصول الحكم) الذي يجعل فيه الإسلام دينًا لا دولة، ونظامًا تعبديا لا سلوكيا ولا حاكمًا للنظم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية. كما ظهر بعد ذلك طه حسين بكتابيه: (الشعر الجاهلي) و (مستقبل الثقافة في مصر) وقاسم أمين بدعوته لتحرير المرأة من الأخلاق والضوابط، وسلامة موسى، وشبلي شميل، والدكتور حسين

فوزي، وفرح أنطون وإسماعيل مظهر وغيرهم من الذين كونوا في أحقاب ما بعد كرومر المتابعة مدرسة الغزو الفكري.

* الزعم بأن اللغة العربية لا تفي بحاجات العصر، وأنها ـ شأنها شأن القرآن ـ لا تناسب إلا المجتمعات البدائية ... مجتمعات الخيول والرماح والسيوف والجمال، وليس مجتمعات «السيارات» و «الطائرات» و «الآلات المعقدة».

* * *

وفي وجه هذا الزحف ، وقف كثيرون على رأسهم محمد فريد وجدي، ومصطفى صادق الرافعي، والشيخ محمد عبده، وعبد العزيز جاويش، وشكيب أرسلان.. وغيرهم.

وعند تحليل مدى «الأصالة» و «الصدق» و «التوازن» في تلقي هذا الرعيل لهذه الصدمة... أو الزحف ـ يجب أن نكون علميين ومنصفين، بحيث لا نتطرف في رميهم بالإفراط... ولا بالتفريط.

وبالتالي ، فلست أميل إلى المنهج الذي يلزم نفسه به بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين، مثل «الدكتور محمد محمد حسين»، الذي لا يفتأ يدين بعض هذا الرعيل بالعمالة والتبعية والسقوط في أحضان المستعمر، متجاهلاً طبيعة الظروف التاريخية والسياسية التي واجه فيها هؤلاء الزحف الاستعماري، ومثله في هذا الاتجاه «الأستاذ أنور الجندي» و «الأستاذ محمد عطية خميس»، و«الدكتور علي سامي النشار» أستاذ الفلسفة الإسلامية المعروف.

وفي المقابل لست أميل إلى المنهج الذي يتغاضى عن أخطاء هؤلاء، تقديسًا لأشخاصهم، وابتعادًا ـ بقيادتهم ـ عن مجال الظن والشبهة.

إن المنهج العلمي الذي أراه ملائمًا، هو أن نضع الإطار التاريخي والظروف الحضارية والنفسية في الاعتبار... وفي الوقت نفسه نلتمس الأعذار للاجتهادات الخاطئة التي وقع فيها هذا الرعيل، على ألا نغفل إطلاقًا أخطاءهم، وعلى أن نقوم منهجهم تقويمًا موضوعيا، فنأخذ منه ما نأخذ، ونرفض ما نرفض في ضوء «التوازن» الذي تحقق لنا... بعد أن تخطينا ـ نحن الذين نعيش النصف الثاني من القرن العشرين المسيحي ، الرابع عشر الهجري ـ عنصر المفاجأة بنجاح، وبعد أن زال «الانبهار» بالحضارة الأوروبية من عقولنا، وبعد أن أصبحنا قادرين على وضع الأمور في موازينها الموضوعية التي أقرها ديننا الحنيف.

وبهذا الوعي أرى «محمد فريد وجدي» ـ رجلا اجتهد فأصاب في كثير، وأخطأ في كثير، وقاوم الغزو الفكري بأساليب لم ترق إلى أساليب المرحوم «مصطفى صادق الرافعي» الذي كان أكثر أصالة واتزانًا وتماسكًا. . . لكنه ـ على كل حال ـ قد أجهد نفسه في مجال الدفاع عن الإسلام، من نقطة إثبات صلاحيته لكل زمان ومكان. . ومواءمة الإسلام للعلم، وما كان خطؤه الكبير ـ رحمه الله ـ إلا أنه حاول إخضاع تفسير القرآن للعلم ، أكثر من إخضاع العلم للقرآن!!

نشأة وجدي وتربيته :

هو محمد فريد ـ واسمه هكذا مركب من اسمين ـ ابن مصطفى وجدي بن علي رشاد. ولد عام ١٨٧٥م الموافق عام ١٢٩٢هـ ، وهذا ما ذهب إليه «خير الدين الزركلي» في كتابه (الأعلام) ـ وذهب إليه أيضًا ـ «عمر رضا كحالة»، في كتابه «معجم المؤلفين» لكن رواية أخرى تقول بأنه ولد سنة ١٨٧٨م. . وهي رواية « محمد ذكر الدين » في كتابه (مشاهير أدباء العصر) ويوافق هذه الرواية ما ذهب إليه الأستاذ: «طاهر الطناحي» في مقدمته لكتاب (الإسلام دين الهداية والإصلاح) إذ يحكى الطناحي ذلك في هذه القصة التي ننقلها عنه فيقول: « كنت أظن فريد وجدي قبل معرفتي به سنة ١٩٣٠م أنه شيخ جاوز التسعين، لكني دهشت عندما علمت منه أنه لم يتجاوز الثانية والخمسين. . . ».

فإذا قمنا بعملية حسابية بسيطة طرحنا فيها «الاثنين وخمسين سنة» التي اعترف فريد وجدي بأنها عمره من عام ١٩٣٠م الذي حدث فيه اللقاء بين الطناحي ووجدي ـ إذا فعلنا ذلك أمكننا أن نعرف أنه ولد سنة ١٨٧٨ ميلادية.

وأنا أميل إلى هذا الرأي الأخير؛ لأنه مشفوع بقصة تؤيده ، ثم لأنه صدر عن معايش لفريد وجدي ومتتلمذ عليه. . وهذا من مقومات الرواية التاريخية.

ومهما يكن من خلاف في تحديد تاريخ ميلاد فريد وجدي . . . فإن مما لا خلاف فيه أنه ولد وترعرع بالإسكندرية وشهدت «الإسكندرية» أيام طفولته الأولى، ولأمر يعلمه الله كان هذا الثغر«الإسكندرية» ـ على خلاف ما يقدر له، أبا حانيًا لكثير من المدافعين عن الإسلام، الحاملين لواءه ، من غير طبقة المتعلمين في الأزهر .

ولمدة ستة عشر عامًا عاش فريد وجدي بين ربوع الإسكندرية يتعلم في المدارس الابتدائية والإلزامية المدنية. . تعليمًا أبعد ما يكون عن الدين وعن الدراسات الإسلامية. . ويشق طريقه فيه كما يشق طريقه أي تلميذ عادي . . وفي كنف ورعاية أبيه «مصطفى وجدي» الموظف في الحكومة المصرية عاش فريد وجدي حياة عادية لمدة

ستة عشر عامًا ، كما ذكرت آنفًا.

* * *

ولندع فريد وجدي نفسه يحكى ماذا حدث له بعد أن بلغ هذه السن . . يقول:

«كنت في سن السادسة عشرة طالبًا في المدرسة التحضيرية، وكان أبي مصطفى وجدي موظفًا في الحكومة المصرية، وحدث وقتئذ أن اختير وكيلاً لمحافظة دمياط ، فكان لابد من انتقالي مع عائلتي إلى هذه المدينة التي اشتهر أهلها بدماثة الأخلاق والتفقه في الدين وميلهم إلى الآداب. . . ولما نزلنا هذه البلدة مع أبي أقبل علماؤها وكبار أهلها يرحبون به، فكان يجتمع في دارنا عدد كبير منهم، وكانت تدور أثناء المجلس عدة مناقشات دينية وجدت فيها مجالاً للبحث والتفكير، غير أنني كنت إذا ناقشت العلماء في مسألة تتعلق بالكون والخلق أسرع أبي لقفل باب المناقشة، وأمرني ألا أخوض في المسائل الدينية أو أبدى فيها رأيًا، وكنت أمتعض لذلك، وأرى أن فيه حجرًا على العقل بلا مسوغ. وأخذت أبحث عن السبب الذي أدى بهم إلى الجمود، وقلت في نفسي: لابد أن يكون ما يدرسونه عقيمًا. . !!

ومن هنا شرع الشك يتسرب إلى نفسي حتى صرت لا أرتاح إلى رأي واحد. . وجعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية وسائر ما يتعلق فيها بعلم النفس، فاكتسبت علما غزيراً.

واتسع أمامي نطاق الحياة، وجال نظري في الكائنات جولات، أفادتني فيما أتناوله بالبحث والدرس حتى صرت لا أقتنع بفكرة دون أن أعنى بدرسها وتمحيصها ، معتمدًا في ذلك على تجاربي الذهنية التي مرت بي . وقد أفادني هذا المنهج استقلالا في الفكر واعتمادًا على النفس»(١).

ويمكنني أن أقول: إن هذا الحادث كان نقطة تحول خطيرة في تاريخ فريد وجدي.

وهذه القصة ليست بدعة في التاريخ، فقبل فريد وجدي وبعده كثيرون غيّرت مجرى حياتهم حوادث من هذا القبيل.

ولنستمر في سرد قصة «فريد وجدي» بعد الحادث الآنف الذكر. ولقد علمنا أنه

(١) نقلاً عن طاهر الطناحي، الهلال ، عدد (١٤٥).

انتقل إلى دمياط، وفي دمياط تحولت حياة فريد وجدي من دنيا الخمول إلى دنيا العمل الجاد والبحث العميق... لكن مدة إقامته فيها لم تزد على ثلاث سنوات... على الأكثر... وبعدها انتقل إلى السويس.. وسار في طريق البحث والاطلاع الحر ... وأتقن الفرنسية في هذه الفترة... ويلاحظ أنه لم يتعلم إلا تعليمًا متوسطًا من الناحية «الرسمية».

وراح يربي نفسه تربية استقلالية عصامية :« ولم يبلغ الواحدة والعشرين في السويس حتى أصدر رسالة له بعنوان (الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان)سنة ١٨٩٩م، وأصدر أيضًا ـ أثر ذلك ـ مجلة (الحياة) ثم كتب كتابه (المدنية والإسلام) أثناء إقامته في السويس أيضًا .. كتبه أولاً بالفرنسية تحت عنوان: (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية) ثم ترجمه إلى العربية تحت العنوان السابق ..» (١).

وهذا كله ولم يتجاوز فريد وجدي الخامسة والعشرين.... مما يدل على نبوغ مبكر وذكاء فطري أصيل.

وننتقل مع فريد وجدي إلى عاصمة مصر «القاهرة» التي سيعيش فيها بقية عمره ولا يتركها إلا مرتحلاً أو لمهمة من المهام... لقد انتقل فريد إلى القاهرة وعمل في وظيفة صغيرة بديوان الأوقاف... وبدأ يبني فيها آماله ومشروعاته التي رسمها في «السويس» ، لا نشك في أنه انتقل إلى القاهرة، ليجد فيها المجال الأرحب الذي يتسع لهذه الآمال والمشروعات... وفي القاهرة بدأ أول خيط من خيوط آمال «فريد وجدي» يتحقق .. لقد أنشأ مطبعة هو صاحبها، وهو الذي يمدها بالغذاء الدائم... عن طريق المجلات والكتب الكثيرة التي ألّفها، وتوفرت هذه المطبعة على طبعها.

ولم يأت عام ١٩٠٧م وهو في سن التاسعة والعشرين، حتى كان فريد وجدي علما من أعلام مصر ومفكريها الكبار... لقد أنشأ فريد وجدي في هذا العام جريدة خاصة به (الدستور) ، وهي جريدة يومية هو رئيس تحريرها، ولا يعاونه على أداء مهمته فيها غير «الأستاذ عباس العقاد» (٢). وهي بذلك جريدة من أغرب الجرائد التي ظهرت في العالم ، ولا سيما إذا علمنا أنها كانت تعيش على جهود صاحبها دون عون مادي من حزب أو هيئة ما.... وذلك ـ كما يقول الأستاذ العقاد ـ

---

(١) معجم المؤلفين ، والأعلام للزركلي.

(٢) حياة قلم للأستاذ عباس العقاد ، فصل (الصحافة).

«عجب من العجب».

وقبل أن يأخذنا تداعي الأفكار إلى ذكر مؤلفاته وأوجه نشاطه في القاهرة . . . نذكر أنه كان من بين أسرة فريد وجدي أخ شقيق هو الأستاذ «أحمد وجدي»، كان شابًا ألمعي الذكاء، كريم الخلق، مستقيم الذهن، مجتهدًا في كل عمل تولاه، وقد تولى عملا قليلاً في الصحافة ثم تولى عمله في المحاماة، لكنه لم تمهله المنية.

وكان هذا الأخ وبعض زملائه في المحاماة يترجمون ويكتبون أحيانًا في (الدستور) لكنهم انقطعوا جميعًا بعد الخلاف الذي حدث بين فريد وجدي ومصطفى كامل.

وكانت المطبعة التي فتحت باب الأمل أمام فريد وجدي تقبع في الدور الأرضي من مسكنه الكائن «بدرب الجماميز» إلى جوار ديوان المعارف العمومية. . . أما الدور الثاني فكان على قسمين: أحدهما مسكن فريد، والآخر: مكتب تحرير جريدة الدستور وإدارتها ،ويذكر أنه كان لفريد وجدي زوجة وفية تقلده في طباعه. . . ويرى أنها امتنعت معه عن أكل اللحوم منذ سنة ١٩١٤(١).

وهذا دليل على مدى موافقتها لزوجها في طباعه حتى الشاذ منها.

وهذه شذرات عن حياة «فريد وجدي» العامة . . . والجو الذي عاش فيه وقدر عليه أن يتعامل معه !!

* * *

ولنعد الآن إلى ما كنا بصدده من متابعة موكب حياة فريد وجدي وقد قلنا: إن فريدًا قد بدأ يأخذ مكانه في الشرق كقطب من أقطابه.

ولم يقتصر فريد على ما تخرجه مطبعته ، بل كتب بحوثًا إضافية في جريدتي المؤيد واللواء. . . وهي بحوث إصلاحية فلسفية «لم يكن يجاريه في كتابتها في مصر غير الشيخ طنطاوي جوهري. . . حتى عرفا لفترة ما بالمنافسة»(٢).

وكتب فريد أيضًا في كل الجرائد والمجلات السيارة وغيرها. . . كتب في الأهرام،

---

(١) استعنا في هذه الفقرات بكتابي العقاد: «حياة قلم» ، و«أنا» مع تصرف ، ونحن نحكي هذا لبيان مدى وفاء زوجته ـ فقط ـ وليس تأييدًا لنزعة الامتناع عن أكل اللحوم!

(٢) الطناحي، الهلال، عدد (١٤٠).

وكتب في الجهاد، وكتب في البريد الإسلامي، وكتب ـ بل حرر ـ في نور الإسلام، ثم الأزهر. . . مما سنعرض له فيما بعد بإذن الله.

وحسبنا أن نترك فريدًا الآن وقد أصبح علمًا من أعلام الفكر الإسلامي في الشرق يتتبع التاريخ كل يوم من أيامه، وكل عمل من أعماله ، ويعده الناس من أقطاب «التجديد» في الإسلام.

يقول العقاد عن أخلاق فريد: «هو فريد عصره غير مدافع . وتلك كلمة مألوفة طالما ألفتها الأسماع حتى رثت وبليت وأصبحت حروفًا بغير معنى، ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الأقلام في عصر واحد، كلهم من جماعة تعد بالعشرات إلا أننا نقولها عن محمد فريد وجدي لنعيد إليها معناها الذي يصدق على الصفة حرفًا حرفًا، ولا ينحرف عنها كثيرًا ولا قليلاً حتى في لغة المجاز»(١).

هذه كلمات قالها الأستاذ العقاد في كلمته التي نشرت في ذكرى «فريد وجدي» وأعيد نشرها في كتاب (رجال عرفتهم) ثم نشرت في مجلة (البريد الإسلامي) المصرية، وقد كنت أحس في هذه الكلمات تفننا من الأستاذ العقاد في مدح أستاذه فريد وجدي، على ما عرف عن العقاد من تفنن ، لكنني بعد دراستي المتواضعة لفريد تأكدت فعلاً من تفرده في عصر السرعة والسطحية. . . لقد كان وجدي فريدًا في أشياء كثيرة. . . فريدًا في العلم؛ فقليلون هم الذين تفردوا في كتابة دائرة معارف، معتمدين على أنفسهم وحدهم.

وكان وجدى فريدًا في الأخلاق، فقد تورع عن كل بدعة وجهر باستنكاره لهذه البدع، وتمسك بما يعتقده تمسكًا شديدًا ولم يقبل فيه أية مهادنة. . . وبينما كانت مجلته الحبيبة إلى نفسه (الدستور) تعاني آلام الاحتضار، وجاءها حزب (مصر الفتاة) يمنحها الغذاء والحياة شريطة أن يرفع صاحبها من عنوانها كلمة: «لسان حال الجامعة الإسلامية» لكن «فريد وجدى» أبى إباء شديدًا، ولم تمض أسابيع حتى كان يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق ليؤدي مرتبات موظفي الجريدة وعمالها. . .وهذا ثمن تمسكه بالمبدأ!!

وقد كان ـ غفر الله له ـ برغم تمسكه بالمبدأ حر الفكر، ويقول العقاد عن ذلك :

---

(١) رجال عرفتهم ، للأستاذ العقاد.

« إنني عجبت لحرية فكره مع اشتهاره بالتعصب والمحافظة، بل بالتزمت وأظن اليوم أن فرط الثقة بقوة الحجة والقدرة على الإقناع هو الذي كان يسوغ له أن يرى ويسمع كل رأي ويقبل كل تحد ويجيب على كل سؤال ، وكان من عاداته الوقوف لكل داخل عليه، حتى ساعي مكتبه ويقول: «هذا من أدب ديننا» وقد أخذ نفسه بسمت الأولين الصالحين فتورع عن كل ضلالة ولم يكن يرتاد السينما أو المسرح، وكان يعتذر عن شهود الحفلات والاجتماعات، ولم يعرف أنه اصطاف في إحدى مدن الشواطئ ، برغم أنه من الإسكندرية وسافر إلى الخارج»[١]. . . وقد كانت له ـ إلى جانب هذه الأخلاق ـ عادات تؤيد رأي الأستاذ العقاد في شذوذه وتفرده. . فقد كان من عاداته العزلة الشديدة كأنه راهب من رهبان الفكر. . . وكان يمشي على قدميه كل يوم قبل الأصيل متريضًا، وكان يمضي حيث تسوقه قدماه. . . بلا هدف أو غاية . . . واشتهر لذلك بالذهول «قد كان حتى وهو يمشي كأنه يمشي في عالم السريرة ولا يتمشي في عالم العيان، كأنما يعيش فوق المادة في عطفة من عطفات الروح. . . »[٢].

وكان من عاداته أيضًا أنه لا يحب الجلوس إلى مكتبه أثناء كتابته، بل كان يجلس إلى منضدة صغيرة في غرفة بعيدة عن مكتبه ، حتى لقد دفعت هذه العادة الأستاذ «طاهر الطناحي» أن يكتب عنه في مجلة (كل شيء) مقالا بعنوان «كاتب ـ بلا مكتب»!!

تأثـره وتأثـيره :

يعتبر الأستاذ فريد وجدي زعيمًا من زعماء العصامية في الفكر ، وإذا كان الشيخ محمد عبده قد تعلم في الأزهر، وإذا كان الشيخ «عبد العزيز جاويش» قد مر بنفس المراحل، وزاد عليها دراسته بدار العلوم وبأوربا. . . إذا كان ذلك شأن هذين الرجلين وغيرهما من زعماء التجديد في مصر. . . فإن «فريد وجدي» كان عصاميا بمعنى الكلمة، إذ إنه أولا : لم يتعلم تعليمًا منتظمًا إلا في المرحلة الوسطى، وهو ـ ثانيا : لم يتعلم ثقافته الدينية بالذات من أحد، اللهم إلا الكتاب. . . ولم يك كمحمد عبده أوجاويش متخرجًا في الأزهر ودار العلوم بل كان في هذا الباب بالذات أستاذ نفسه كما ذكرنا آنفًا.

---

(١) طاهر الطناحي ، الهلال، عدد (١٤٠).

(٢) رجال عرفتهم ، للعقاد.

ولهذا كله يبدو من الصعب أن نحدد هؤلاء الذين تأثر بهم فريد وجدي، لكن من البديهيات المعروفة أن فريدًا قد تأثر بالجو الإسلامي ، والذي كان سائدًا في بلاد الشرق كلها آنذاك. أعني بتلك الأنفاس العطرة التي أشاعها السيد جمال الدين الأفغاني واستنشقها الناس عطرًا وشذى. . . فكانت بردًا وسلامًا على الحركة الإسلامية ، مهما يكن من اجتهادات جمال الدين الخاطئة، دينيًا وسياسيا. . . وأيضًا يمكن القول بتأثره بجو الأسرة العلمى والديني، إذ كان أبوه رجلا فاضلا محبًا للعلم والعلماء. . . كما عرفنا سابقًا . كذلك لا يمكن إغفال تأثره بزعماء التجديد في الشرق على اختلافهم، وبزعماء الفلسفة الإسلامية من أمثال الفارابي والغزالي وابن سينا. . . وأما ثقافته العلمية فيروي أنه كان معجبًا ومتأثرًا بالكتاب الفرنسي «جان فينو» مدير المجلة العلمية ولا سيما بكتابه (فتح علمي ، الروح الخالدة) وتأثر بصديقه الشخصي مستر «ستيد» صاحب مجلة (المجلات) الإنجليزية، وتأثره كذلك بالعالم الكهربائي «فارلي» والعلامة اللاهوتي «سنتون مورس» ،والسير «ولين كروكس» صاحب كتاب (القوى النفسية) وغيرهم ، هذا عن تأثره .

أما عن تأثيره ، فيمكن القول على عجل بأن كتب ومقالات فريد قد ربت أجيالاً من المفكرين الإسلاميين والعلماء في الوقت نفسه.

وأكاد أجزم بأن الكاتب الإسلامي الكبير عباس العقاد قد تأثر بفريد وجدي أكبر تأثر. وأقل مقارنة بين اتجاه العقاد قبل اتصاله بفريد وبعده نعرف منها كم كان لفريد من فضل في توجيه العقاد في الدراسات الإسلامية المتطورة. والنظرة الفاحصة إلى مؤلفات العقاد ومدى تشابهها في المنهج والبحث بمؤلفات الأستاذ وجدي تصل بنا إلى النتيجة نفسها. . . والحركة الأخيرة التي ذاعت في الشرق الإسلامي كله ـ وهي محاولة المقارنة بين القرآن والعلم الحديث ـ بعض من تأثير الأستاذ وجدي في الفكر الإسلامي الحديث. . . فلقد كان ـ رحمه الله ـ يرعاها بكل قواه ويأخذ بيد السائرين في طريقها من أمثال الأستاذ عبد العزيز إسماعيل مؤلف كتاب «الإسلام والطب الحديث» فقد كان يراجع له بحوثه ويقدمها إلى المجلات وينشرها بعد تعريف بها في مجلة الأزهر التي كان يتولى تحريرها، وقد قدم وراجع له كتابه السابق الذكر ـ مع ما هناك من ملاحظات على هذه الحركة.

* * *

وكان المصلح المجدد فريد وجدي ـ رحمه الله ـ متعدد الملكات والمواهب، وليس أدل على ذلك من توافره على كتابة دائرة معارف ومن تفسيره القرآن الكريم. . . والقيام بهاتين المهمتين يتطلب شمولاً في الثقافة والإحاطة بكل فرع من فروع المعرفة على اختلاف ـ بالطبع ـ في هذا الشمول وتلك الإحاطة، وليس يشبه فريد وجدي إلا الأسلاف البواسل الذين أنجبتهم الفكرة الإسلامية من نظائر «ابن سينا والسيوطي والغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وغيرهم» ممن كتبوا في كل شيء وبرعوا في كل شيء. . . وليس يشبه وجدي حديثًا إلا الأستاذ المرحوم عباس العقاد، ونكاد نجزم بأنها نزعة طموحية أخذها العقاد عنه، بوعي أو بلا وعي ، إبان الفترة القصيرة التي قضاها معه كمحرر في مجلته (الدستور). . لقد كتب فريد في كل شيء . . . كتب فريد وجدي في العلم الطبيعي، وكتابه الشهير (على أطلال المذهب المادي) آية ناصعة في ذلك، وكتب في الفلسفة ، ومباحثه عن الإنسان والكون التي زخر بها كتابه (الإسلام في عصر العلم) دليل على دعوانا ، وكتب فريد في الأدب العام مقالة ، وقصة ، وقصيدة. فأما المقالة فقد ظل يكتبها في (الدستور) و (الحياة) والصحف السيارة الأخرى، وفي مجلة (الأزهر) التي كان رئيسًا لتحريرها، وكان يكتب في العدد الواحد منها عديدًا من المقالات. ولا أجد داعيًا للاستشهاد على كتابته المقال؛ إذ إنها قد استنفذت أكثر طاقته الفنية بحكم اشتغاله في الصحافة وتصدره للدفاع عن الإسلام والعربية.

وفي القصة كان لفريد وجدي باع طويل؛ إذ كان يصدر مجلته (الوجديات) التي تحوي قصصًا خيالية أشبه بالقصة العربية التي عرفت باسم «المقامات» والتي تبع فيها من الأسلاف «الهمذاني والحريري» وغيرهما.

وقد كان يريد من كتابته هذه القصص جذب الناس ـ والصغار بالذات ـ إلى الفضائل النفسية والأخلاقية وتعويدهم الخير . . وهي قريبة الشبه من النوع الذي كان يكتبه المرحوم « كامل كيلاني » أديب الأطفال ، إلا أن الأخير قد برع في هذا الفن، وتمكن منه لتفرغه له واقتصاره عليه.

وجماع القول أن مجلة (الوجديات) المنسوبة إلى فريد وجدي اسماً وصفة. . . هي الرصيد الأدبي ـ في القصة ـ الذي خطه يراعه المتعدد الملكات.

ولندع النثر كله ـ قصة ومقالة وبحثًا، ولنسأل سؤالاً عن شعره .

هل كان لفريد وجدي جهود في الشعر ؟ وهل يمكن أن يكون هذا الرجل العالم الباحث الذي يتعامل مع العقل وحده. . . هل يمكن أن يكون شاعرًا ، والشعر لغة العاطفة . . .؟

والحق أن فريدًا كان يكتب الشعر ، لكنني أرى أن كتابته للشعر من نوع كتابة الأستاذ العقاد. . . هي دليل على شمولية في الثقافة وعبقرية في التفكير، وتمكن من الملكة الذهنية وقدرة على توجيه هذه الملكة في كل خط يشاء صاحبها توجيهها إليه. . وهذه أريحية لا تتوافر إلا لقلائل يمكن أن تحصر أسماؤهم.

ومن الطريف ـ لتأييد ما أقول ـ أن فريدًا عرف عنه الكتابة في كل مكان وكل زمان، بلا خضوع للمزاج أو لعوامل التشجيع المصطنعة أو الطبيعية. وأدع الآن الأستاذ العقاد يكمل الصورة، ويوضح معالمها ، ويقول:

«كان فريد وجدي يكتب منفردًا كما كان يكتب بين جمع من الزوار والعمال، وإن سرعة قلمه بالكتابة لم تكن دون سرعة لسانه بالكلام، وإنه كان سريع النظم للشعر، كما كان سريع النسج للنثر البليغ وسهولة نظمه كسهولة نثره تدل على بساطة في الطبع سلمت من العقد المركبة، وتقابلت فيها الأعمال والظواهر بغير حجاب من خفايا النيات وعوج الأهواء، فلا تشق عليه سلاسة التعبير ولا سلاسة التفكير» . إن شعره نوع من القدرة الفنية كما قلت ، ولذلك نجده لسهولة تأليفه قريبًا من النثر إلا أن فيه الوزن والقافية . . هو خلو من «المعاناة» الفنية الصادرة عن الذات . . . ولذا اشتهر هذا الشعر بالخيالية المغرقة التي تهدف إلى نشر الأخلاق والتعويد على الفضيلة ، تمامًا كما هو شأنه في كل كتاباته النثرية الأخرى.

ونقتطف هذا الشاهد من بين الشواهد القليلة التي عرفت له، يقول في إحدى قصائده الخيالية التعليمية:

رمت المخاوف والمخاطـر	فرويت مالم يرو شاعـر
وجمعت ما بين البـــدا	وة والحضارة والمظاهـر
وشهدت ما لو قلتـــه	عدوه من عبث الخواطر
وخرجت من ذا كلـــه	بحقيقة تغني المكابـــر
هي أن الناس قــــد	سحرتهم فتن سواحـــر
ظنوا السعادة في التأنــق	والتطرف والتفاخـــر

وإقامــة الــدور الشــوا هق «والعلالي» والمقاصــر
والجــري أعقـاب اللـذ ائذ والتورط في الكبائــر
بين افتتان بالقشـــور ووقفـة حـول الظواهــر
أما السعادة فهي فـــي أن تفتق الحجـب السواتــر
وتحصل السرّ الـــذي شقـت لمطلبـه المرائـــر
وتنال من معناك مــا حرمتـه هـمـات قواصــر
أن ترتقي بالروح حيث الحق عالـي القــدر سـافــر
هذي السعادة كلهـــا فاظفر بهـا إن كنـت ظافـر

والقصيدة كما رأيت تنضح أبياتها بالحكمة المباشرة ـ غير الضمنية ـ وهي كافية الدلالة على صدق ما قلته، ولزيادة الإيضاح ننقل هذه الأبيات الأخرى التي يقول فيها:

ضــلّ أهل الألمعيــة في علاج المدينـة
هي من أقــدم عهــد علة العلم القويــة
هـي للجثـمان غنـــم وهي للروح بليّـــة
والذي قرّ عليه الـرأي من أهـل الرويـة !!
أنها شر ضـــــروري لخير البشريـــة !!

ولعل الصورة التي أردت إعطاءها عن شعر فريد وجدي ـ بلا محاباة على حساب الحقيقة ـ لعلها قد اكتملت في ذهن القارئ . وهي تعنيني كثيراً بقدر ما يعنيني أيضًا أن أستخلص منها النتيجة والدلالة ، وهي أن فريد وجدي كان إنسانًا راقي الذهن، غير عادي التفكير ، متعدد المواهب والملكات ـ غفر الله له .

* * *

وكان لفريد وجدي آراء ومعتقدات في الحياة ضمنها كتبه ومقالاته، ودافع عنها في كثير من كتاباته .. والحديث عن معتقدات وآراء أي إنسان على وجه الشمول والإحاطة حديث طويل لا يتسع له بحث كبحثي المتواضع . ولذا فسأضطر إلى تناول أبرز ما اشتهر به، وتحمس له الكاتب الكبير «فريد وجدي» ، وهو الجامعة الإسلامية.

لقد آمن وجدي بالجامعة الإسلامية إيمانا كليا . . . هذه حقيقة.

ولسنا في حاجـة إلى تحـديـد معنى هـذه الجامـعة فـي أذهـان دعاتهـا. . . ويقول العقاد: «كان فريد وجدي شديد الإيمان بالجـامعة الإسلامية على منهج قريب من مناهج الرسميين ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة، بل كان يخسر الكثير في أحرج أوقات الحاجة إلى المال. ومن ذلك أنه رفض الاتفاق مع حزب (مصر الفتاة) على اعتبار جريدته (الدستور) لسان حال الحزب في سياسته العثمانية بعد أن تكفل الحزب بالإنفاق على الصحيفة وسداد ديونها؛ لأن الحزب كان يشترط أن ترفع من عنوان الصحيفة ـ كلمـة: «لسان حال الجامعة الإسلاميـة» فلم تمض أسابيع ، حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق؛ ليؤدي مرتبات الموظفين والعمال» (١).

وإذا كنت قد اسـتنتجت من هذه الحادثـة ـ قبل ذلك ـ مدى تمسك «فـريد» بالمبدأ عمومًا، فإني أستنتج منها مدى إيمانه العمـيق بالجامعة الإسلامية خاصة. . . ذلك الإيمان الذي يرفض معه مجرد رفع لافتة بخصوصها، حتى ولو دفع ثمن ذلك غاليًا.

ولقد كان الصدى الحقيـقي الفعال لدعوة الجامعة الإسلامية التـي دعا إليها جمال الدين في مـصر هو الحـزب الوطني ، الذي قاده «مـصطفى كامل» وكـان من أعضـائه البارزين صاحبنا « محمد فريد وجدي » !!

* * *

لعلي قد وفقت إلى إعطاء القارئ صورة عامة ومستوعبة عن شخصية محمد فريد وجدي.

والحق أن ما ذكر عن حيـاة فريد وجدي الشخصيـة لا يكفي لإلقاء الضوء الكافي على حياة هذه الشخصية الموسوعـية، وما هي جديرة به من الاهتمام والتكريم. بيد أني لا أميل إلى التوسع في هذا الباب ، أولاً ـ لضخامة إنتاج فريد وجدي ، وثانياً : لمذهب فريد وجدي في البـعد عن الشخصيات والترجـمات الذاتية ، وميله إلى استكناه حـقيقة الإنسان من أعماله على طريـقة: «أصل الفتى ما حصّله»، ولكل إنسان في الحيـاة مهما يكن قدره ترجمة ذاتية تعكسها الأوراق الرسمية، ولكن ليس لكل إنسان مثل إنتاج فريد وجهوده في خدمة العلم والدين.

والمعرفة الحقيقية الجديرة بالعظماء هي معرفتهم من إنتاجهم وثمرات عقولهم؛ لأن هذا الباب هو باب تميزهم وانفرادهم عن سائر البشر.

---

(١) حياة قلم ، للعقاد ص ٦٦.

ولم تكد تغرب شمس يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٥٤م حتى ذهب محمد فريد وجدي ليلقى «الله»، الذي أفحم الملحدين المنكرين لوجوده بكتبه ومقالاته .

* * *

وقد ذهب فريد وجدي ليلقى نصيبه من الحساب والثواب، ويتعرض لتلك السمعيات الغيبية التي وهب حياته للدفاع عن وجودها وإثباتها ضد المتهجمين عليها. . ذهب ليراها بجسده وروحه. . . كما رآها من قبل بعقله وفكره.

وللأسف ، فإن هذا الرجل الذي طالما ملأ الدنيا نورًا وعلمًا وطبقت شهرته الآفاق ـ كما يقول الأستاذان العقاد وطاهر الطناحي ـ من العجيب أن يموت في صمت كما عاش ـ مع نفسه ـ في صمت .

وقد كتب لي بخط يده تلميذه وصديقه الأستاذ الفاضل محمد توفيق أحمد ـ أحد العاملين في حقل الفكر الإسلامي الآن بالإسكندرية ، وصاحب ورئيس تحرير (مجلة البريد الإسلامي) التي ينشرها الآن على حسابه الخاص بكل اللغات الحيّة جريًا على مذهب أستاذه فريد وجدي، وكان فريد وجدي يكتب افتتاحيات بعض أعدادها ـ كتب إليّ ما نصه :« كان رحمه الله ـ فريد وجدي ـ لا يبغى الشهرة ولا يتحدث عن نفسه، ولا يهتم بشيء قدر اهتمامه بنشر العلم، لم يمش في جنازته رحمه الله غير عدد قليل جدا من معارفه وأهله، وقد زرت ـ أي الأستاذ توفيق أحمد ـ بيت الأسرة للعزاء، فلم أجد أكثر من أربعة عشر شخصًا من أهله ومعارفه وجيرانه. ولكن الملائكة شيعته إلى حيث يكرمه الله في فسيح جناته. . وقد كنت أسمع منه قوله:

«اعمل ليراك الله وحده»(1)!!

* * *

وقد يكون أسيفًا في الوقت نفسه أن هذا الرجل الذي طالما أفاض على الصحافة من واسع علمه ألا ينال من تقدير الفكر الإسلامي إلا بضع كلمات هنا أو هناك. . وليست ثمة ـ بعد أكثر من عشرين سنة من وفاته ـ أية دراسة ظهرت في السوق عنه أو عن إنتاجه العلمي والديني.

---

(١) لم أجد أحدًا كتب عن وفاة فريد وجدي ولا سيما أن وفاته قريبة، فاتصلت بكثيرين كالأستاذ أنور الجندي، كما اتصلت بتلميذه وصديقه الأستاذ توفيق أحمد بالإسكندرية شخصيا، وقد أرسل إلي رسالة بخط يده منها ما ذكرته. وعنوانه : ٢٥١ مكرر باسبورتنج ،شارع الأمير إبراهيم بالإسكندرية.

ومن الجدير بالذكر أيضًا أن مجلة الأزهر، وهي التي قام على تحريرها حوالي عشرين عامًا وكان يكتب في كل عدد منها أكثر من ثلاث مقالات غير التحرير لم تكتب عنه ، ولا عن تراثه حين وفاته إلا نصف صفحة تقريبًا . . . على سبيل المجاملة . . . وإذا ما استثنينا عدة مقالات كتبها الأساتذة : أبو الوفا المراغي في (الأهرام) ١٧/ ٣/ ٥٤، وعبد الحميد جلال في (المصري) ١/ ٤/ ١٩٥٤م، ومحمد عبد الغني حسن في (الأهرام) ١٧/ ٢/ ١٩٥٤م، ومحمد يوسف خليفة في (الأهرام) الصادر في ١٠/ ٢/ ١٩٥٤م، وحسن عبد الوهاب في (الأهرام) ١٦/ ٢/ ١٩٥٤م، ومقالات نشرت بعد وفاته بمدة كتبها الأساتذة :عباس العقاد في (المجلة) وأنور الجندي في (الثقافة) ، وطاهر الطناحي في (الهلال).

إذا استثنينا هذا لم نجد رصيدًا للمرحوم فريد وجدي من الاهتمام بتراثه، لدرجة أن الكاتب المعاصر «الأستاذ أنور الجندي» يعده « من الأعلام المنسيين الذين يرجو أن يكتب عنهم» [1].

مواقف فريد وجدي الإسلامية :

يعد فريد وجدي واحدًا من أشهر الذين أوقفوا أقلامهم للدفاع عن الإسلام، سواء في الداخل أو في الخارج . . . والمعارك التي دخلها وجدي دفاعًا عن الإسلام أو عن التاريخ الإسلامي، معارك لا يمكن حصرها. ولكي أستطيع مراعاة حيز البحث . . . فإني أتناول بعض مواقف فريد وجدي المهمة، آملاً أن تعطي صورة شبه كاملة لجهوده في خدمة الفكر الإسلامي.

أولا : معركة ترجمة القرآن :

كانت فكرة ترجمة معاني القرآن التي حمل لواءها ابتداء الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر منذ سنة ١٩٢٩م من وسائل المخلصين للإسلام في مقاومة الغزو الثقافي والتغريب . وقد جرت معارك طويلة سنة ١٩٣٢، ١٩٣٥م، وسنة ١٩٣٦م حول هذا الموضوع : « أيجوز ترجمة المعاني أم لا ؟» وقد دعا محمد فريد وجدي إلى ترجمة معاني القرآن ترجمة صحيحة، حتى ينجو من تحريف المحرفين، وقال: «إن هذا العمل خير من أن يترك القرآن للمترجمين من متعصبة الأمم يحرفونه ويشوهون

---

(١) مقدمة كتاب: عبد العزيز جاويش، سلسلة أعلام العرب «للأستاذ أنور الجندي».

معانيه»، ونعى فريد على إصرار بعض العلماء على حبس الإسلام في دائرة العربية التي لا يحسن فهمها غير أهلها وتجريده من الأسلحة العالمية وهي اللغات الحية(١).

ويقول فريد وجدي للمعارضين لترجمة معاني القرآن : « إن وضع القيود غير المعقولة في مسألة نقله يقضي علينا بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى أعقابنا قرونًا طويلة.

ومعنى ذلك صد القرآن عن الجولان في الدورة الفكرية العالمية مع غيره من كتب الأديان وأسفار المذاهب . . .إن تعطيل القرآن عن الترجمة والزج به في معترك الأفهام إلى اليوم قضى عليه بألا يكسب أنصارًا من الأمم الغربية، فصار قاصرًا على الأمم الشرقية التي رضيت أن يكون حظها من دينها كحظ الببغاء» (٢).

وقد أصدر فريد وجدي كتابًا بعنوان (الأدلة العلمية على جواز ترجمة القرآن)؛ أي المعنى، بسط فيه كل ما يمكن قوله في هذه القضية، مستشهدًا بآراء العلماء والمفكرين الإسلاميين. وقد أفحم بمقالاته التي أنشأها بمجلة الأزهر وجريدة الأهرام وغيرهما المعارضين لترجمة المعاني القرآنية من أمثال الشيخ محمد سليمان والشيخ محمد مصطفى الشاطر القاضي بمحكمة شبين الكوم الشرعية.

وكان مما قاله في هذا الصدد :

«هل الورع أن يقف المسلمون جامدين مكتوفي الأيدي أمام أمثال هذه الحركات الفكرية التي تجتاح العالم اليوم، ليتوهم العالم كله أننا لا نملك سلاحًا نكافح به في ميدان هذا الجهاد الفكري في هذا العصر؟» .

«ويخيل إليّ أنه لو جمد الأزهر على النحو الذي يشير به الأستاذ محمد سليمان. . . ثم أقرّ العالم في أمر من الأمور الدينية لجاء فضيلته يصيح:

أين كان الأزهر والأفكار في إبان غليانها ؟»

وفي النهاية استشهد فريد وجدي بأقوال بعض المفكرين الذين اطلعوا على تراجم للقرآن من مثل « جوته» في قوله : « لو كان هذا الإسلام فنحن إذن فيه».

ومن مثل قول «برنارد شو» بعد أن اطلع على ترجمة للقرآن أيضًا:

---

(١) الإسلام في معركة التغريب لأنور الجندى ص ٣٤، ٣٥ .

(٢) الأهرام (٧٧) ١٤٣٢.

«إن الديانة الإسلامية كفيلة بأسو جراح الإنسانية ، وإن العالم المتمدن قد بدأ يفهمها على حقيقتها ، ولا أظن أنه يمضي عليه قرنان حتى يكون قد أسلم»[1].

وليت شعري لو لم يكن الأوربيون قد اطلعوا على ترجمات للقرآن ، أكانت تصدر عنهم تلك التصريحات الخالدة؟

إن الذين يقفون في طريق ترجمة معاني القرآن يريدون عن عمد أو غير عمد جعل الرسالة المحمدية رسالة محلية وطعنها بذلك في الصميم وإيقاف انتشارها في العالم.

ثانيًا: معركة المرأة :

كانت المرأة ولا تزال مثار صدام عنيف بين رجال الفكر وعلماء الدين. وقد جاء الإسلام يضع النقاط على الحروف في هذه القضية ويلبي نداء الفطرة السليمة.

ولكن ثمة أناس لا يعجبهم نداء الحق ولا صوت الفطرة ، ونظرًا لحاجات نفوسهم يقفون في الطريق، يضللون الجموع ويدفعون بكرامة الإنسان وشرفه إلى مهاوى الضياع والانحلال.

ومن أئمة هذه القافلة هذا الرجل المسمى «قاسم أمين» وفي سبيل إرضاء «اللورد كرومر» ، وعلى حساب الإسلام والكرامة الشرقية أصدر كتابه (المرأة الجديدة) كأنه ترجمة صادقة للوضع الأوربي المنحل وترجمة أصدق لكل ما يريده المستشرق وأعداء الإسلام من قذف المسلمين والكرامة الأسرية إلى الحضيض.

ولكن فريد وجدي ومعه مجموعة من الصالحين، وقفوا للموجة الزاحفة ، وإذا كان الواقع اليوم - في مصر - يقف إلى جانب «قاسم أمين» فما ذلك إلا لأن القوة الاستعمارية القاهرة كانت تقف في صفه وصف أعوانه. وهذه القوة نفسها هي التي تعمل عملها في الأمة الإسلامية ، لكن بطريق غير الطريق العسكري؛ أعني طريق «الغزو الفكري».

يقول فريد مترجمًا عن هذا الواقع الأسيف:

«ما كنا نقصد منه - من كتابه :المرأة المسلمة - إيقاف التيار الذي يندفع فيه خصومنا فذلك مستحيل في عصر السلطة القاهرة فيه للمدنية الغربية، والمندفعون في تيارها من الذين لا يرون الكمال إلا حيث الغلبة والقوة لكنا نقصد منه إلى إشهاد العالم

---

(١) الأدلة العلمية، فصل (الشيخ محمد سليمان).

إشهاد العالم أن معنا الحجة الناهضة والبينة القائمة» [1].

وفي كتاب يبلغ تعداد صفحاته (١٨٦) صفحة من القطع المتوسط راح فريد وجدي يتناول قضية من القضايا التي أثارها قاسم أمين ويرد عليه بالأسلوب العلمي الذي عهد عنه. وهناك أمر يظهر جليا في أمثال هذه الدعوات أو النعرات.

هذا الأمر هو ما يحلو لي أن أسميه بالخلط؛ الخلط بين العلم كقيمة عالية وبين غيره من المبادئ التي يجب أن يقف عندها المرء. يقول المسلمون مثلاً: إن المرأة بحكم الفطرة أقل من الرجال، وإن وظيفتها الأساسية البيت. فيقولون: أنتم تحرمون على المرأة حق الحياة والعلم، والعجيب هو ما يمكن أن يتساءل عنه في العلاقة بين الفطرة أو الكرامة وبين العلم. ولم يقل أحد من المسلمين بأن العلم حرام على المرأة، اللهم، إلا المختلقين المزورين. وقضية الفطرة ووظيفة المرأة الأساسية يوضحها «فريد وجدي» بأسلوبه المنهجي العلمي فيقول:

«بما أن كل مجتمع مكون من اتحاد هذه العناصر الثلاثة ، وهي العمل والعلم والعدالة، فيكون القدر الحقيقي للرجل والمرأة هو كنسبة ٣-٣-٣ إلى ٢-٢-٢ أي كنسبة ٢٧ إلى ٨ وبهذه الشروط لا يمكن أن توازن قوى المرأة قوى الرجل ، فخضوعها له أمر لا مناص منه. فهي أمام الطبيعة والعدالة لا توازن ثلثه، فيكون التحرير الذي يطلبه بعضهم باسمهن هو تسجيل الشقاء عليهن تسجيلاً شرعيًا إن لم أقل: تسجيل العبودية» [2].

وبمثل هذا الأسلوب العلمي أدى الأستاذ وجدي واجبه في حراسة حدود الله ومبادئ دينه.

ثالثًا : القرآن والشعر الجاهلي:

في إبان المعركة الاستقلالية الفكرية التي كان يخوضها شعب مصر تحت راية «الحزب الوطني» تارة و«سعد زغلول» تارة أخرى. وبينما كان الغزو الفكري يحاول القضاء على اللغة العربية وإحلال الإنجليزية مكانها. وبينما كان «كرومر وهانوتو ودنلوب» وغيرهم يظهرون حقدهم الصريح على الإسلام ويرمونه بالتخلف والرجعية، ويقللون من قيمة القرآن وأثره، بينما كان هذا في مصر، ظهر فجأة وبلا مقدمات رجل اسمه «طه حسين» وهللت لهذا الرجل أبواق كثيرة كانت كلها تعمل صراحة لصالح الاستعمار وتتناول بيدها معونته، وظلت هذه الأبواق تهلل له حتى جعلته «عميد الأدب

(١) كتاب المرأة المسلمة لفريد وجدي ص ٥١، ٥٢ .

(٢) نقلا عن طاهر الطناحي ، الهلال، عدد (١٤٥).

العربي».

ولا أدري ولا يدري أحد لماذا أصدر طه حسين كتابه (الشعر الجاهلي) ينسف فيه الثقة بالقرآن وبقصصه التاريخية، ويحاول أن ينسف أيضًا كل الشعر الجاهلي، وهو سجل العرب وجوهر فخرهم كما تفخر الأمم بآثارها؟!

ومن فضل الله على هذه الأمة أنه يقيض لها دائمًا من يدافع عن كتابها وكرامتها وكرامة تاريخها. وقد قيض الله كثيرين لكشف حقيقة طه حسين.. هذا الذي سرق كتابًا «لمرجليوث» وجاء يتيه به، ويظن أنه أتى بما لم يأت به الأوائل.

ولقد كتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ردًا بليغًا على طه حسين، جمعه في كتابه (تحت راية القرآن) ورد عليه أيضًا أمير البيان شكيب أرسلان، ورد عليه أيضًا الأستاذ فريد وجدي في كتابه:(نقد كتاب الشعر الجاهلي)، والشيء الذي استحوذ على اهتمامي في هذا الكتاب هو نقد الأستاذ وجدي لمنهج طه حسين الذي جاء يدل به على العرب.(وهذا المنهج الحسيني هو منهج التجريد من الدين والقومية ورفض أي منهج آخر إلا منهج ديكارت الذي يقوم على الشك، كما قال طه حسين في الصفحات الأولى من كتابه) . وقد كان الأستاذ وجدي فطنًا فرد عليه بقوله:«فإن كان المانع الأنفة من الاتباع - أي التجرد - فالاتباع حاصل لديكارت . فهل من مرجع للأنفة من اتباع محمد، وعدم الأنفة من اتباع ديكارت، وهل فرق في التبعية من أن يقال: هذا قرآني وهذا ديكارتي[1]؟».

هذه هي حقيقة المعركة مهما قيل بعد ذلك عن التجرد أو عدم التجرد، إنها المعركة بين القرآن والاستشراق، معركة بين الإسلام والمسيحية ، بين القرآن والإنجيل . وصدق الأستاذ الرافعي حين قال:

وكم ذا بمصر من المضحكات و حسبك طه حسين بها
ولكنه ضحك كالبكا على علمها وعلى كتبها

رابعًا : القصص القرآني :

وتنضم إلى المعركة السابقة - وبإيحاء شعوري أو لا شعوري - من آراء المستغرب «طه حسين» تلميذ المستشرق مرجليوث - تحت تأثير هذا الإيحاء ظهر الأستاذ «محمد أحمد خلف الله» برسالة جامعية، يحاول بها أن ينال درجة «الدكتوراه» وبما أن رسالة الدكتوراه لابد أن تأتي بجديد ، وبما أن الإسلام حسب «التكتيك الاستعماري » يمثل

(١) نقد كتاب الشعر الجاهلى، لفريد وجدى ، صفحات متعددة .

التأخر والتخلف، فلا بد أن يكون هذا الجديد هجومًا على الإسلام ودستوره الكريم، وإذا كان «طه حسين» قد تناول القصص القرآني بالتشويه والادعاء، فإن المتعالم الجديد (خلف الله) قد أكد هذا المعنى في رسالته الجامعية المرفوضة. وكما أدب الله طه حسين بيد «الرافعي وفريد وجدي» فقد أدب (خلف الله) بيد كثير من علماء الأزهر وبيد الأستاذ «وجدي» الذي انبرى له بالأسلوب العلمي المعروف عنه، وفند كل مزاعمه وحطم كل تشدقاته، وقد حفلت مجلة الأزهر بعديد من المقالات التي كتبها الأستاذ وجدي حول هذا الموضوع. ونقتبس من رده العام ـ قبل الرد التفصيلي ـ هذه السطور نموذجًا حيًا على نوع هذه الردود ، يقول وجدي :

«في عهود المرسلين السابقين كان الناس وهم في حاجة شديدة إلى التخلص من الصفات الحيوانية بالخضوع للتعاليم السماوية لا يقنعهم بصدق المرسلين في دعواهم إلا حدوث الخوارق على أيديهم. وكان الخالق الحكيم يوالي الجماعات البشرية بالرسل مزودين بالقدرة على إحداث تلك الخوارق فهل بعد أن أعلن أجلاء العلماء الماديون في أوربا من أمثال «وليم كروكس» مكتشف إشعاع المادة،و«رسل ولاس» و«وليم جيمس» وغيرهم ، بعد أن أعلنوا في القرن العشرين أنهم قد اكتشفوا عالم ما وراء الطبيعة. هل بعد هذا يسوغ لعاقل أن ينكر المعجزات التي أيدت المرسلين في دعواتهم الدينية باعتبار أنها تناقض العلم؟» (١).

ولا يزال المسلمون بقيادة فريد وجدي، وأمثاله يكافحون هذه الهجمات المتكررة على الإسلام وعلى القرآن من كل جانب وفي كل ميدان. لا زالوا كذلك حتى كشفوا عن حقيقتها . وهي في طريقها بإذن الله إلى الإيضاح التام.

خامسًا : حملة كرومر على الإسلام:

إن الزمرة الحاقدة لا تستطيع كتمان حقدها على الإسلام مهما تصنعت من «دبلوماسية» ومهما تظاهرت بالمنهجية العلمية. . وهذا الحاكم الإنجليزي لمصر. برغم أنه أقام علاقات كثيرة مع كثيرين من أقطاب الإسلام في مصر. وبرغم أن حزب الأمة المصري تعاون معه. . . برغم هذا كله فإن طبيعة الحقد أبت عليه إلا أن يسخر من الإسلام. وأن يحمل على هذا الدين حملات متكررة تارة في كتابيه الشهيرين: (مصر الحديثة)، (الخديوي عباس) وتارة في تقاريره السنوية التي كان يرسلها إلى إنجلترا وتنشر في سجلاتها.

يقول كرومر فيما يقول من افتراءات:«إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ولكنه

(١) مجلة الأزهر ، عدد محرم سنة ١٣٦٧هـ .

فاشل كنظام اجتماعي، وقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ولكنه مع ذلك لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة المجتمع الإنساني».

ويقول: «إن الإسلام دين مناف للتجديد، ولم يكن صالحًا للزمن والمحيط الذي وجد فيهما. وإن المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدين إلا بعد أن يتركوا دينهم».

هذا هو ما يقوله كرومر، وهذا مبلغ فهمه للإسلام. ثم أخيرًا هذا هو هدفه من كلامه ومن دبلوماسيته.. هدفه ترك المسلمين لدينهم صراحة. مهما تلفَّع بأردية بلاغية مزيفة.

ولقد تصدر جنود الله للدفاع عن الإسلام، وظهرت الطليعة المجاهدة تضم أسماء «محمد عبده، رشيد رضا، مصطفى كامل، وفريد وجدي، المنفلوطي، والرافعي... إلخ».

ولقد أظهر فريد وجدي كيف أن كرومر: «إنما قصد تشويه سمعة المسلمين العرب والمصريين في العالم الغربي انتقامًا منهم. وأن هدفه هو التشفي من السخط الذي واجهه، وأن حملته على الإسلام إنما تهدف إلى هدم الرابطة التي تعد القوة الأولى في مواجهة الاستعمار. وأن الإسلام لم يكن في يوم من الأيام مناقضًا للمدنية العصرية أو حائلاً دونها. وهو لا ينقاضها لكنه لا يقبلها كلها بل يرفض زيفها، وأنه إذا كانت المسيحية قد وقفت مانعًا أمام المسيحي وبين المدنية والحضارة. فإن الإسلام ليس مانعًا، بل إن الإسلام لم يعرف في عصر من عصوره سلطة البابا على الأمم المسيحية عندما كان يصنع القوانين التي لها قدسية الأوامر المنزلة»(١).

ولقد صدرت رسالة صغيرة للأستاذ وجدي ومحمد عبده ورشيد رضا يردون بها على كل المنتقدين للإسلام وأسماها: «الإسلام والرد على منتقديه».

سادسًا: مع المستشرقين:

ثمة هجمات كثيرة متكررة حاول بها المستشرقون النيل من الإسلام وتعاليمه، لكن الإسلام كان يأبى إلا أن يهزمهم، وإن للمستشرقين لخزعبلات كثيرة تكثر عن الحصر.

لقد زعم المستشرق «هانوتو» أن الإسلام دين متخلف جامد لا يصلح للحضارة ولا يساير التقدم، وزعم «لاماس» أن محمدا ـ عليه أزكى التسليمات والبركات ـ لص

---

(١) الإسلام في معركة التغريب لأنور الجندي ص٦٣.

نياق[1]، وزعم الأستاذ «أسياه يومان» العالم الجغرافي الأمريكي أن الإسلام غارة حربية شنها محمد على الإنسانية، وزعم الأستاذ «أندريه هرفيه» أن الإسلام دين جامد يشل العقول.

ويبدو أن الكيد للإسلام سيستمر ما دام شعار الإسلام «الشهادتان» يردده كل يوم أكثر من خمس سكان العالم.. وقد كان فريد وجدي رحمه الله يتصدى لكل هذه الافتراءات الاستشراقية ويرد عليها في مجلة (الأزهر) ـ بالذات ـ وفي غيرها كجريدة (الجهاد) التي كان يحررها « توفيق دياب» . ونظرًا لأن فريد كان يجيد الفرنسية فقد كان يتتبع ما ينشر في العالم بهذه اللغة عن الإسلام ويرد عليه في حينه، وينبه المسلمين إلى مايحكيه أعداؤهم عن دينهم القوي الخالد.

لقد كان رحمه الله سيفًا إسلاميا مسلطًا على رقاب الحاقدين على هذا الدين إن في الداخل أو في الخارج.

رحمه الله رحمة واسعة؟

مؤلفات فريد وجدي وآثاره العلمية :

في هذه السطور سنعرض لمؤلفات فريد وجدي على طريقة الجمع والحصر.

وثمة ملاحظات أحب أن أبديها وأنا بصدد ذكر مؤلفاته:

أولا: أن ما وصلت إليه من إنتاج فريد وجدي هو ذلك الإنتاج الذي يوجد مطبوعًا الآن.. والمعروف أن للأستاذ فريد وجدي مؤلفات نفدت بمجرد ظهورها ولم تطبع بعد ذلك.

وقد لا تكون دار الكتب المصرية أو مكتباتها الفرعية قد فازت بشيء منها. ولزيادة الحيطة أنقل هذا الدليل الحي من صديقه ،وتلميذه الذي ما زال حيًا أطال الله عمره وهو «الأستاذ توفيق أحمد» ، محرر مجلة (البريد الإسلامي التي) تنشر باللغات الحية من الإسكندرية ، أنقل ما نصه:

«الذي أعلمه أن للأستاذ وجدي بعض المؤلفات نفدت بمجرد ظهورها وهي على شكل رسائل من (٦٠) ورقة تقريبًا، كانت في مكتبة المرحوم والدي، ولكني لا أذكرها الآن على التحديد»[2].

---

(١) مثل هذا التعبير الصادر عن القسيس لامانس يدل على مدى الانحطاط الذي ينحدر إليه هؤلاء المستشرقون، ومثل لامانس الحاقد كثيرون .

(٢) نص رسالة خطية من الأستاذ توفيق أحمد أرسلها لى .

ثانيًا: أن كثيرًا من جهد الأستاذ وجدي قد تناثر في كثير من المجلات والجرائد ولم يجمع في كتب، كما فعل صديقه «مصطفى صادق الرافعي» في كتابه «وحي القلم» أو تلميذه «العقاد» في كتابه «ساعات بين الكتب» مثلا. . . !!

ثالثاً: وسأحاول في حدود الاستطاعة مناقشة بعض إنتاجه، وإبداء الرأي فيه، وذكر ما ورد من أقوال المفكرين والنقاد، إن كان هناك شيء من هذا القبيل. مع ملاحظة أن هذا العرض لا يعني تأييدي لكل أفكار فريد وجدي ـ رحمه الله.

١ ـ الإسلام في عصر العلم:

هذا الكتاب يقع في حوالي الألف صفحة من القطع المتوسط، أصدره المؤلف سنة ١٩٠١م، ويتكون من ثلاثة أجزاء في طبعته الأولى، وجزئين في طبعته الثانية. وهدف الكتاب كما قال صاحبه في مقدمته: «إقامة صرح مشيد للدين الإسلامي في هذا العصر الذي اشتهر بزعزعة أركان الأديان وهدم صروحها وتقويض أساطين المعتقدات ونسف تصورها». وقد تناول الكتاب عدة مباحث عن الإنسان. وعن شخصية النبي محمد ﷺ، وفيه مبحث عن ما وراء المادة، ومبحث عن إعجاز القرآن. ومبحث عن كروية الأرض ودورانها. ثم زيادة بيان تحت عنوان: ما هو الإسلام؟ وفصل عن الكرامات. وفصل عن خوارق العادات وأسبابها العادية. وباب عن الدين والمتمدينين وصراع مع المدنية الغربية وفتنتها واستحلال الربا. ثم ملحق في طبعته الثانية يصيح فيه بالمسلمين أن يفيقوا. ويناقش فيه موارد الفساد الاجتماعي، ورأي «دارون» في الدين، ويلاحظ أن الطبعة التي في أيدينا هي الطبعة الثانية. والكتاب طبع عدة مرات، وقد أنشأه المؤلف وهو في سن الثالثة والعشرين.

٢ ـ على أطلال المذهب المادي:

هذا الكتاب وضعه المؤلف في حقيقة العلم والفلسفة واعتراف أساطينها بالجهل عن بلوغ أقصى شأوهما واستعدادهم لتهذيب مدركاتهم عند ظهور ما يناقضها خلافًا لأدعياء العلم الذين يتخذون الظنيات منها تكأة للتكذيب بكل ما عداهما. وفيه حصر شامل لما فتح على الناس من ثمرات المباحث النفسية، والتنويم المغناطيسي، والمسائل الروحانية، وآراء كبار العلماء فيها. والكتاب أربعة أجزاء ويقع كله في نيف وستمائة صفحة من القطع المتوسط. والكتاب يعتبر فريدًا في بابه، بيد أنه لم يخل من عدة أخطاء، لعل أهمها اعتماد فريد وجدي ـ في الرد على الملحدين على الحواس من نوع حججهم. بينما هو في أول الكتاب قد بين خطأ الاعتماد على الحواس والبرهنة عن طريقها. . . ثم هناك عدم نموذجية في الترتيب جعلت الكتاب في طبيعته التي

في يدي ـ وهي الطبعة الأولى ـ أشبه بكتاب من كتب السحر الصفراء. أي أنه لا علاقة إطلاقًا في الكتاب. . . بين المضمون والشكل.

٣ ـ المصحف المفسر :

يقول فريد وجدي في سبب تأليفه له: إنه في سنة ١٣٢٣هـ حاول قراءة القرآن بتدبر وفهم، فأعوزه أن يجد من التفاسير ما يبلغه أمنيته من أقرب الطريق. والمطولات لا يتسع لقراءتها وقت أمثاله من المشتغلين بفروع كثيرة من العلم.

ولقد راعى في تفسيره استخلاصه من الآراء المجمع عليها لدى أئمة المفسرين. وقد راعى ـ أيضًا ـ العناية باللغة. وتفسيره في الواقع عبارة عن تفسير مفردات تفسيرًا لا بأس به، خصوصًا في عهد كعهدنا تسوده السرعة والسطحية ـ ثم أيضًا تفسير المعاني على قدر الاستطاعة . وإن كان يؤخذ على فريد وجدي عدم إظهار روح القرآن الإشعاعية، كما فعلها بعده بعضهم، وكما فعلها قبله محمد عبده ورشيد رضا . ويؤخذ عليه كذلك بعض السطحية في تفسير المعاني ومحاولة جمعها في سياق واحد لتؤدي معنى واحدًا. . ولزيادة الإيضاح ننقل هذا النموذج:

(**ألم**) الأحرف التي في أول السور قيل: إنها رموز. وقيل: هي أسماء الله. وقال الأكثرون: إنها أسماء السور.

(**القيوم**) أي الدائم القيام بأمر الخلق وحفظهم.

(**الفرقان**) القرآن لأنه يفرق بين الحق والباطل.

(**انتقام**) النقمة عقوبة المجرم، وفعله : نقم ينقم ونقم ينقم نقمًا أي عاقب ونقم عليه أو منه أمرًا: أنكره عليه وعابه. . . إلخ.

وكذا نرى البساطة الشديدة في تفسير المعاني والمفردات مما يجعله أشبه بتفسير (جيب) وهو من هذه الناحية يعتبرجديدًا بعض الجدة. ومعلوم أن هذا كان هدف فريد وجدي من كل أعماله الدينية والعلمية وهو أن يوصلها إلى الناس بالأسلوب الذي يتفق وروح العصر ومزاجه. ولهذا بالذات اختارته جريدة (الجمهورية) لتطبعه كتفسير ميسر يستفيد منه رجل الشارع وأوساط المثقفين ومن لا يملكون الوقت للتعمق.

٤ ـ الإسلام دين خالد ، أو «الإسلام دين الهداية و الإصلاح»:

هذا الكتاب أصدرته مطبعة الاعتماد بالقاهرة، وقد وقعت ـ والحمد لله ـ في يدي الطبعتان الأولى والثانية ـ والطبعة الأولى منه قد طبعت سنة ١٩٤٠م وتقع الطبعة الثانية، وهي التي سأتحدث عنها ـ في حوالي (٢٦٠) صفحة من القطع المتوسط. وهذا

الكتاب إذا ما استثنينا بعض فصول منه قد وقع في الطبعة الثانية في حوالي (٨٢) صفحة، وهذا الكتاب نفسه قد طبعته دار الهلال بإشراف وتقديم الأستاذ طاهر الطناحي بعنوان: (الإسلام دين الهداية والإصلاح).

والحق أن الكتاب من ناحية الشكل في طبعته واسمه الجديد قد تغير تغيرًا جذريا فلقد نظمه ورتبه وبوبه الأستاذ «طاهر الطناحي»... ثم أعطته طبعة وإخراج دار الهلال مزيدًا من الرونق ، فأخذ هذا الكتاب حقه من الذيوع والانتشار، وإنا لنأمل أن يكون نصيب كل كتب «وجدي» مثل نصيب هذا الكتاب.

وطبعة دار الهلال قد صدرت في نوفمبر سنة ١٩٦٢م ووقعت في مائتين وعشر من الصفحات ذات الحجم الصغير.

وقد تناول فريد وجدي في الصفحات المحذوفة من طبعة دار الهلال قضايا عديدة منها: قضية الدين وأهميته كعنصر من عناصر الاجتماع، وكلام في بيئة الأمة الإسلامية و أهمية الدعوة الإسلامية، التي انفجرت في جزيرة العرب فحررت النفوس والعقول والقلوب، وقضية شروط الانضمام إلى الأمة الإسلامية، وآخر عن ميزات هذه الأمة، وآخر عن مثلها العليا ومنطقها الاجتماعي وحوافظها الاجتماعية وأسباب تدهورها.

والحقيقة أن كثيرًا من هذه الأبواب قد نشرته مجلة الأزهر تحت عنوان «مهمة الدين الإسلامي في العالم» ... فمن حق طاهر الطناحي أن يحذفها من طبعته الطلية الفنية، ومن حقه أن يغير بعض العناوين وأن يحذف منه بعض ما تبعد صلته بالموضوع. وبعد هذا فطاهر الطناحي كان أمينًا في نقله وفيا لأستاذه وصديقه.

ونكتب كلمة عن الكتاب أيا كان اسمه وأيا كانت طبعته. ولقد تناول فريد في هذا الكتاب مسائل الدين والوحي، وما يتطلبه الناس من الدين ومسائل الإسلام، وسلطان العقل والعلم، وشريعة الإسلام وحدودها وأثر الإسلام في العالم. ثم دفع فريد شبهات عن الإسلام أثارها المستشرقون، وتناول في آخر باب قضية الرق، والمرأة في الإسلام... والكتاب بهذا يعتبر خيطًا من الخيوط الممتدة التي سار عليها فريد منذ وهب حياته لهذا الدين ـ رحمه الله.

٥ ـ الإسلام دين المدنية «المدنية والإسلام» « الإسلام دين العلم والمدنية» :

وهذا الكتاب دخل مكتبة فريد وجدي الإسلامية منذ عام ١٨٩٨م، وهو يقع في مائة واثنتين وستين صفحة من القطع المتوسط. تناول فيه المؤلف قضية الإنسان وتكاليف الحياة والدين والعلم (مكرر في «على أطلال المذهب المادي» ضمنًا، ومكرر في «الإسلام دين عام خالد» ضمنًا) وقضايا حرية العقل وحرية العلم ومطالب النفس وتطهيرها

وتهذيبها بالعلم وتصحيح الاعتقاد في ماهية السعادة والمطالب الجسدية والواجبات العائلية وأهمية العمل والجد. . . إلى آخره.

وأكثر موضوعات الكتاب هي الشغل الشاغل لفريد وجدي طيلة عمره. وهي شغل كثيرين معه تفاعلوا مع الدين والعصر معًا.

٦ ـ دائرة معارف القرن العشرين:

وقعت على طبعتين ـ فقط ـ لدائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) لصاحبنا فريد وجدي. أما الطبعة الأولى فعشر مجلدات كل مجلد منها يقرب من سبعمائة صفحة بقليل. وعلى هذا فصفحاتها تقل عن سبعة آلاف بقليل من القطع المتوسط، وقد صدرت سنة ١٩٢٢م، أما الطبعة الثانية فتقع في عشر مجلدات أيضًا كل مجلد ثمانمائة صفحة، عدا السابع فصفحاته (٩٦٠) صفحة، والعاشر (١٠٥٦) صفحة، ومجموع صفحاتها (٨٤١٦) صفحة وهي مطبوعة بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين.

وقد ظهرت أكثر مادة دائرة المعارف في معجمه الأول وهو المعروف (بكنز العلوم واللغة) سنة ١٩١٧م، وتعتبر طريقة البحث في دائرة معارف وجدي طريقة تفرد بها، سواء أخذ عليها المفكرون شيئًا أم لم يأخذوا، فالمهم أنها تختلف في منهجها عن دوائر المعارف الموجودة في حوزة الأمة العربية. وطريقة البحث فيها هي : كتابة الحروف الأصلية للكلمة أي أصل المادة الاشتقاقي المجرد أعلى الصفحة أما أسفل الصفحات فيتناول المادة بالشرح متناولاً معها كل مشتقاتها «كمحمد». ويخص محمداً ﷺ بالذكر وبعشرات الصفحات. . . وحمود وحامد وأحمد وحماد وحمادة . . . إلخ ويحكي عن كل واحد من هؤلاء كل ما يجمعه عنه سواء كان علما طبيعيا أم تاريخيا أم دينيا.

وللأستاذ (محمد حسين هيكل) مآخذ على دائرة المعارف نحب أن نتناولها بشيء من التعقيب فهو يرى أولا: أن دائرة المعارف التي توضع على الطريقة العلمية الصحيحة لا يقوم بها رجل واحد بل يشترك جماعة من بادئ الرأي في وضع الخطة ويستعينون بكل عالم [1]. . . إلخ.

وهذا الكلام غير موضوعي، إذ المهم ليس هو أن يصنع العمل العلمي شخص واحد أو مائة، بل المهم العمل نفسه وقد يصنع شخص ما لا يصنعه مائة. ولو أن الأمر كما يقول هيكل لحطمنا كل إنتاج أسلافنا البواسل من أصحاب الموسوعات العلمية كالأصفهاني والسيوطي والطبري بحجة أنهم وضعوها وحدهم، ولم يشترك معهم

(١) في أوقات الفراغ لهيكل فصل (دائرة معارف وجدي).

جماعة من أهل الرأي. فلندع هذا المثلب الذي تخيله الأستاذ هيكل. ولنذهب إلى مثلب آخر يأخذه هيكل على فريد وجدي ويقول فيه بعد استعراض أشياء: «مثل هذا الإيجاز المخل والإسهاب الممل وعدم الأخذ بنهج معين، وعدم الاعتماد على قواعد علمية وعلى معلومات ثابتة شائع في أكثر أجزاء دائرة المعارف» (٢).

وهذا المثلب نسير فيه إلى حد كبير مع الأستاذ هيكل، لكن للأستاذ وجدي مندوحة ترجع إلى أنه رجل «معجمي» يحب أن يكتب كل ما يصل إلى علمه في دائرة معارفه. وقد يكون علمه في ناحية أقل كما يكون غزيرًا في ناحية أخرى.

لكني مع هذا ـ كما قلت ـ قد لاحظت أن الدائرة تفقد شيئًا من التنظيم في وضع المعلومات. . . هذا التنظيم الذي نجده مثلاً في دائرة كدائرة معارف «البستاني» العربية. ومهما يكن من أمر هذه الهنات فإن دائرة المعارف تعتبر عملاً خياليًا بالنسبة لعصر كعصرنا. وهو مجهود لم تقم به بعض الأمم فضلاً عن الأفراد.

ولا يزال فريد وجدي كلما ذكر اسمه ذكرت معه عبارة «مؤلف دائرة المعارف»!!

٧ ـ كنز العلوم واللغة:

هذا كتاب أذكره بعد دائرة المعارف لارتباطه بها، ولأنهما شقيقان اعتبر ثانيهما امتدادًا لأولهما. ويعتبر كتاب (كنز العلوم واللغة) ـ كما ذكرت ـ الأساس الذي بنيت عليه دائرة معارف فريد وجدي. وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩١٧م فجمع أشتاتًا من العلم واللغة تعمل كلها على خلق الإنسان المثقف العميق الدراسة. وقد تتلمذ على هذا الكتاب كثيرون، منهم الأستاذ طاهر الطناحي باعترافه في تقدمته لكتاب (الإسلام دين الهداية والإصلاح) كما تتلمذ عليه ألوف من أبناء التربية والتعليم آن ذلك، إذ إن الوزارة قد قررته على أبنائها في مرحلة التعليم الوسطى.

والحديث عن الكتاب بعد هذا يبدو حديثًا عن دائرة المعارف، والحديث عن دائرة المعارف قد سبق إيراده !!

٨ ـ الحديقة الفكرية في إثبات الله بالبراهين الطبيعية:

يقع هذا الكتاب في ثمان وثمانين صفحة من القطع الكبير. . . وهو محاولة استكناه ما في الكون وما في داخل النفس، ومعرفة ما فيها من إعجاز يدل على عظمة الخالق المبدع. وأهم أبواب الكتاب هو باب «شبه الملاحدة من الماديين ووجه فسادها»، وقد استغرق هذا الباب معظم صفحات الكتاب. ومن خصائص الكتاب الظاهرة حسن

---

(١) في أوقات الفراغ لهيكل فصل (دائرة معارف وجدي).

العرض وبراعة التصوير والروحية الصافية المنتشرة بين سطوره كلها.

٩ ـ الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان:

ويقع هذا الكتاب في أربع وثمانين صفحة من القطع المتوسط، وهو يتكون من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة. وقد تحدث فريد في المقدمة عن الإنسان وأحواله على وجه العموم. وتحدث في الفصول الأربعة عن عجائب الأكوان، وغرائب الإنسان «الفسيولوجية» ، ومملكة الحيوان وأعجب أنواعها، ومملكة النبات وبدائع غرائبها. ثم كانت الخاتمة تعقيبًا عاما على هذه الموضوعات كلها.

ويتسم الكتاب بنفس الخصائص التي يتسم بها كتاب الحديقة الفكرية، غير أن موضوعاته تبدو أكثر ارتباطًا بالإطار العام الذي يتحرك في قافلته فريد وجدي؟

١٠ ـ المرأة المسلمة:

كان هذا الكتاب عملية رد وتفنيد لما ذكره قاسم أمين في كتابه (المرأة الجديدة).

فهو كتاب أملته الظروف، وتقيد فيه «فريد» بما جاء في كتاب قاسم أمين على جهة الرد والتفنيد كما قلت. . . ولهذا فمن الصعب محاولة نقده منهجيًا. والكتاب بعد هذا، يقع في مائة وست وثمانين صفحة من القطع المتوسط، تناول فيها فريد قضايا كثيرة وردت في كتاب قاسم أمين أيضًا؛ كقضايا تعليم المرأة والاختلاط ، وعمل المرأة، وحدودها الفطرية. وكل هذه الموضوعات تناولها بالأسلوب العلمي المعهود عن فريد وجدي. والكتاب في رأيي من أحسن ما كتبه فريد إشراقًا وإيضاحًا وقوة.

وما أحوجنا في هذا العصر بالذات إلى ترجمته وطبعه مرات كثيرة !!

١١ ـ الأدلة العلمية على جواز ترجمة القرآن:

يقع الكتاب في تسع وسبعين صفحة، وهو شبه تذييل أصدرته مجلة الأزهر كملحق لعددها الصادر إبان معركة ترجمة القرآن، سنة ١٣٥٠ هـ، وقد تناول فيه آراء المعارضين لفكرة ترجمة معاني القرآن وأبان ما فيها من تخبط بأسلوب علمي، ثم ذكر الفائدة من ترجمة معاني القرآن مستشهدًا بأقوال علماء الغرب الذين اطلعوا على ترجمات القرآن.

١٢ ـ نقد كتاب الشعر الجاهلي :

يقع في مائة واثنتين وخمسين صفحة من القطع الكبير، وفيه يسير فريد وجدي مع الدكتور طه حسين، يوضح زيفه ويكشف حقيقة دعواه، ويبين بجلاء كيف أن القرآن هو الكتاب السماوي الموثوق به وبقصصه وتعاليمه. وكيف أن الشعر الجاهلي

شعر أيضًا في معظمه أصيل، ونسبته إلى الجاهلية نسبة صحيحة. والكتاب تعقيب على آراء طه حسين يشبه كتاب المرأة المسلمة في أنه هو الآخر من إملاء الظروف وبوحي حوادث الساعة. وقد أخذ عليه الأستاذ الرافعي في رسائله «لأبي ريا» أنه بعد وأغرق في الرد على طه حتى إن القارئ يخيل إليه كثيراً أنه ليس كتابًا للرد على طه ، وهو زيادة علم وثقة من فريد ـ في رأيي ، إلا أن طبيعة فريد عمومًا كانت تأبى التركيز وهذا مما أخذ عليه في كل كتاباته.

١٣ ـ مقدمة المصحف المفسر :

هي شبه نشرة تلحق بأخواتها (الأدلة العلمية على جواز الترجمة) وتقع في حوالي (١٣٠) صفحة من القطع المتوسط، وقد أظهر فيها فريد منهجه في التفسير ودافع تفسيره.

١٤ ـ دستور التغذي :

وهو كتاب مترجم عن كبار علماء الصحة في ضروب الأغذية ومقاديرها الغذائية ونفعها وضرها لبنية الإنسان ومبلغ ما يجوز أن يأخذه الإنسان. وفيه مقالات أخرى عن الأمراض وأسبابها وكيفية الوقاية منها. وكان للآداب الإسلامية الصحية تأثيرها الواضح في الكتاب.

١٥ ـ كتاب المعلمين:

وقد شرح فيه المنهاج الدراسي للمدارس الأولية، وقد رام المؤلف من اشتغاله بهذه الدروس أن يتولى تلك النفوس الناشئة بمعلومات تصلح لتقويم شخصياتهم الغضة. والكتاب يقع في مجلدين.

١٦ ـ شرح لمنهاج المدارس الإلزامية :

عدد صفحات هذا الكتاب تبلغ مائتي صفحة من القطع الكبير. وقد تناول فيه كل مادة، وبين منهج تدريسها ليعين بذلك طائفة المعلمين على أداء مهمتها الاجتماعية الجليلة، حسب قوله.

١٧ ـ الإسلام والرد على منتقديه :

هي نشرة بسيطة اشترك فيها فريد مع محمد عبده ورشيد رضا في الرد على منتقدي الإسلام ، ويبدو أنها قد جمعت هكذا لاتفاق موضوعها ، وقد أحببت ذكرها حصراً للموضوع فقط.

١٨ ـ الوجديات «الحياة» :

هي عبارة عن مجلة شهرية كتب فيها فريد وجدي مقامات خيالية أسماها الوجديات ليسير على أسلوب مقامات الحريري والهمذاني. ويقصرها فريد وجدي على المواعظ الاجتماعية وتقريب المثل العليا، التي تطبع على النظام بصبغة الدين أو بصبغة الأخلاق المثالية، وكان لها قراء كثيرون يطلبونها كلما طالت غيبتها، وقد صدر منها طبعتان أو ثلاث طبعات، وكان اسمها أولاً : «الحياة»، ثم ثانيًا : «الوجديات».

وقد وقفت الوجديات هذه مرة بضع سنوات ثم صدرت، وفي صدرها هذه الكلمة لفريد :«كنا ننشر منذ سنتين مقامات أدبية نضمنها حكمًا أخلاقية وآدابًا اجتماعية وأصولاً فلسفية، وكنا نصور فيها مثلاً عليا للحياة الفاضلة . . . ولسنا أول من أبدع هذا النوع من الأدب فقد سبقنا إليه فطاحل كتاب الأقدمين؛ بديع الزمان الهمذاني، وأبو القاسم الحريري، وجار الله الزمخشري، وجلال السيوطي وغيرهم، ثم تلاهم في العصر الحديث الشيخ ناصيف اليازجي اللغوي المشهور في سورية، فرأينا أن نحتذي حذوهم بوضع هذه المقامات». وقد أعيد طبع ثماني عشرة مقامة من هذه المقامات سنة ١٩٢٨م، وجمعت كلها في كتاب موجود بالقلعة بالقاهرة.

١٩ ـ الدستور :

أصدر فريد وجدي جريدته اليومية (الدستور)، وتعتبر(الدستور) اللسان الثاني للحزب الوطني بعد (اللواء). وكان فريد يقوم على تحريرها لا يساعده في ذلك إلا الأستاذ عباس العقاد، وظلت طوال عمرها نظيفة لا تعمل لحزب أو تسعى في ركب رئيس أو وزير. وكان ظهورها بوسائلها المعروفة منذ سنة ١٩٠٧م أمرًا يدعو إلى العجب. وقد ظل فريد يعمل فيها إلى أن باع في سبيلها كتبه بثمن بخس وانتهت كما ينتهي كل كائن حي.

٢٠ ـ مجلة نور الإسلام ، فالأزهر:

عمل فريد بمجلة الأزهر منذ أواخر سنة ١٣٥٢هـ حتى أواخر سنة ١٣٧١ رئيسًا لتحريرها. وكان يكتب في كل عدد منها أكثر من مقال، بالإضافة إلى التحرير.

وأخيراً:

لقد كانت لفريد وجدي هفوات نرجو الله أن يغفرها له، فإنها ـ فيما نعتقد، كانت اجتهادات خاطئة، من رجل مخلص لدينه. . لم يرتزق به. . وإنما بذل الكثير في سبيله.

فمن هذه الاجتهادات تعجله ـ كالشاعر أحمد شوقي ـ في مدح «مصطفى كمال أتاتورك» الذي أثبتت الأيام عداءه الواضح للإسلام والمسلمين.

ومن هذه الاجتهادات رأيه في «الروح» وإمكانية تحضيرها، واستنتاجه من ذلك أدلة على تأكيد بعض القضايا الدينية.

ومن سلسلة اجتهاداته الخاطئة تكلفه المشاق في سبيل التوفيق ـ الذي لا لزوم له ـ بين العلم والدين. فالقضية لا تحتاج إلى كل هذا العناء.

وإن تاريخنا ليحفل بكثير من الفلاسفة الذين تنكبوا الطريق في بعض القضايا... لكن تراثنا لم يلفظ هؤلاء لمجرد اجتهادات خاطئة، فالخطأ من طبيعة البشر. فليس فريد وجدي نشازاً في ذلك، بحيث يستحق أن نطوي صفحته بلا مبالاة.

وإنما يكفينا أن نشير إلى الخطأ، ونرمي القشرة الخارجية، ثم نطعم أجيالنا الجائعة حبة الحنطة الجيدة.

بديع الزمان سعيد النورسي
(وقفة موضوعية في وجه العلمانية والإلحاد)

ليس يعنينا ـ ونحن نتحدث عن النورسي ـ أن نكتب تاريخ حياته على النسق المعروف في كتابة التراجم ، وإنما الذي يعنينا أن نرصد مراحل جهاده، وأطوار فكره، وتطور وسائله الدعوية، ومواقفه الفكرية ؛ لنقدم ملخصًا لجهاده، في مواجهة أكبر كارثة واجهها المسلمون في القرن العشرين، وهي كارثة سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م، بواسطة رجل اليهودية والصليبية، المنافق الأكبر، «مصطفى كمال» ـ عليه لعنة الله ، وما تبع هذا السقوط من تحول تركيا عن الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني ، ومن دولة إسلامية تحكم بالشريعة الإسلامية إلى دولة تتبجّح بالعلمانية ، وتُحكَم بالقوانين الوضعية ، وحتى الآذان للصلاة قرر « أتاتورك» تحريمه باللغة العربية، وحوّل ـ عليه لعائن الله هو ومؤيديه ـ المساجد إلى إسطبلات واستراحات للجنود، وأرغم الناس على لبس القبّعة ونزع الطربوش، وأعدم العلماء والدعاة أفرادًا وجماعات ، وقطع صلات تركيا ـ فعليًا ـ بالعالم الإسلامي، ولم تبق إلا الصلة الدبلوماسية الشكلية، وأمر بتزييف التاريخ العثماني ، الذي كانت مساحة الخلافة العثمانية في معظمه تقترب من خمسة عشر مليون كيلو متر، فانحسرت المساحة في عهد (البطل أتاتورك!!) إلى مليون كليو متر!! ، ومع ذلك يكاد هذا (الرجل الصنم) مصطفى كمال. . . يؤله ويعبد لدى بعض الوثنيين العلمانيين.

ومع كل ذلك صدرت القرارات التي تأمر بسَتْر التاريخ الملوث والخياني، وتحاكِم على كشف أيّ صورة من صور خيانته وانحرافاته، وصودر حق البحث العلمي، ومُنع الباحثون من الحصول على الوثائق المتصلة به،حتى بعد مرور خمسين سنة على تاريخها،حسْبما تمليه القوانين الدولية. وكان ذلك ـ بالطبع ـ انطلاقًا من أن تاريخه، لو عُرِف على حقيقته، لكشف للناس عن موسوعة من المخازي والفضائح، لا حصرِ لصفحاتها !!!

لقد واجه بديع الزمان سعيد النورسيّ هذه الغارة (الكارثة) بمقدماتها، ثم بمراحلها المختلفة. . . وحتى وفاة أتاتورك نفسه، وقد عاش نحو خمسين سنة، منذ العقد الأول من القرن العشرين، أي منذ بدأ التخطيط الصهيوني الصليبي لإسقاط الخلافة العثمانية

يدخل مرحلة التنفيذ ، وهذه السنوات أو العقود تمثل عصر الشدة العظمى في المحنة الكمالية العلمانية ، التي ما زالت قائمة حتى اليوم.

ولئن كان سعيد النورسي قد ولد سنة ١٨٧٣م فقد عاش منها حياة طلب علم حقيقي نحو ثلاثة عقود، وحتى ظهرت للعيان مؤامرة إسقاط الخلافة، وهيمنة العلمانية الصهيونية في تركيا، فسرعان ما جنّد النورسي نفسه، وبَرْمج حياته على أساس مقاومة الإلحاد الكمالي، الذي جاء يقتلع بذور الإيمان مسلحًا بالمكر والتآمر، والانحلال الأخلاقي، وبتحريف الفن والثقافة لخدمة الإلحاد والمادية والحياة الفوضوية.

ولأكثر من خمسة عقود وحتى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٦٠م حين وافته المنية ، عاش سعيد النورسي يجاهد بقلمه وجهوده التربوية والدعوية ، وأمامه هدف واحد انصرف إليه بكليته بعد تجارب متعددة، وهو يبذر بذور الإيمان الصحيح عن طريق التربية القرآنية والنبوية، واقتلاع بذور الإلحاد التي سعى العلمانيون الكماليون إلى غرسها في الأرض التركية والعالم الإسلامي.

ونقدم في الصفحات التالية نبذة عن حياة هذا المصلح العظيم، وداعية الإيمان القرآني الكبير، مركزين على بعض مراحل حياته المتصلة بالدعوة، ومقدمين - من ثم - رأيه الإبداعي في أسباب تخلف المسلمين، مما جعلهم أهلاً لهذا التمزيق، وخدمًا مطيعين للمذاهب الوافدة الهدامة شرقية كانت أو غربية!

مراحل حياة النورسي :

ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» وهي إحدى قرى قضاء «خيزان» التابع لولاية «بتيس» شرق الأناضول سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٣م)(١).

كان والده ميرزا ورعًا يُضرب به المثل في الزهد والورع فلم يطعم أولاده من غير الحلال. حتى إنه إذا عاد بمواشيه من المراعي يشدّ أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين. وتقول أمه «نورية»: إنها ما أرضعت أطفالها إلا وهي على طهر ووضوء.

وقد تلقى علومه الأولى في كتّاب القرية « طاغ» على يد محمد أفندي سنة (١٨٨٢م) وكان يتلقى على أخيه الكبير «الملا عبد الله» دروسًا في عطلة الأسبوع. . . إلا أنه لم يلبث في هذه القرية طويلاً فاستمر على دراسته في قرية «بيرمس».

وفي سنة (١٨٨٨م) ذهب إلى «بتليس» والتحق بمدرسة الشيخ «أمين أفندي» (٢).

---

(١) اعتمدنا في هذه النبذة الوجيزة على الكتاب الرائع : بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره ص ١٩ (بتصرف) لصديقنا الكبير الأستاذ إحسان قاسم الصالحي ، ط٣، الكلمات للنشر.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠.

وفي سنة (١٨٩٢م) ذهب الملا سعيد إلى ماردين حيث بدأ يلقي دورسه في جامع المدينة، ويجيب عن أسئلة قاصديه. وقد أحس والي المدينة «نادر بك» ـ لوشاية البعض ـ بأن هذا الشخص خطر، وأنه يحدث بلبلة في المدينة لذلك قرر نفيه من المدينة، فسيق بصحبة الجندرمة (الشرطة) ويداه مغلولتان.. إلى مدينة «بتليس». وقد عرف «عمر باشا» والي بتليس آنذاك بعد مدة قصيرة من وصول (الملا سعيد) فضيلة هذا الشاب العالم ومنزلته فأحبه، وأصر عليه أن يقيم معه في منزله امتنع (الملا سعيد) في أول الأمر ولكن الوالي ألحّ عليه كثيرًا حتى جعله يقبل وخصص له غرفة في بيته(١).

وفي سنة ١٨٩٤م ذهب إلى «وان» بدعوة من واليها « حسن بك » حيث بقى عنده ، ثم في منزل «طاهر باشا» ولقد هيأ الله له ظروف الالتقاء ببعض أساتذة العلوم الحديثة (من جغرافية، وكيمياء وغيرهما)، وحينما دخل معهم في نقاش شعر بقصوره في هذه العلوم ، مما جعله يقبل على تعلمها بشغف عظيم حتى اتقنها وأصبح متمكنًا منها، لدرجة أنه كان قادرًا على التأليف ومناقشة المختصين فيها(٢).

وفي هذه الفترة وأثناء إقامته في «وان» قرأ في الصحف المحلية خبرًا مدهشًا هزَّ كيانه كله هزا عنيفا فقد نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني (غلاد ستون) في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم: «مادام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به...».. وقد زلزل هذا التصريح الآثم كل كيانه وصمم بينه وبين نفسه على أن يكرس كل حياته لإظهار إعجاز القرآن وربط المسلمين بكتاب الله حيث قال: « لأبرهننَّ للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها» (٣).

وقد عاد إلى أستانبول مرة أخرى سنة (١٩٠٧م) حيث سكن في (خان الشكرجي) في منطقة (فاتح) وكان هذا الخان مقرا لكثير من المفكرين والأدباء أمثال الشاعر المشهور «محمد عاكف» .

وأثناء إقامته في أستانبول علّق لوحة على باب غرفته كتب فيها: هنا يجاب عن كل سؤال، وتُحل كل مشكلة دون أن يسأل هو أحدًا من الناس(٤).

وفي أستانبول قدَّم سعيد النورسي عريضة إلى السلطان «عبد الحميد» يطلب فيها

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣.
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤.
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٦.

فتح المدارس التي تُعلم العلوم الرياضية والفيزياء والكمياء. . إلخ بجانب المدارس الدينية في شرق الأناضول ، حيث يخيم الجهل والفقر على سكانه. ثم يقابل السلطان نفسه وأثناء مقابلته ينتقد الاستبداد ونظام الأمن والاستخبارات لقصر (يلدز).

وفي هذه الفترة من عمره صرف النورسيّ جلّ همه إلى إلقاء الخطب، وكتابة المقالات مبينًا فيها مفهوم الحرية في الإسلام، وتأثير الإسلام في الحياة السياسية، ومطالبًا بتحكيم الشريعة الغراء ، ومحذرًا من التفسير الخطأ للحرية، حيث شعر بأن هناك محاولات خبيثة وأيد خفية تحاول خدمة أغراض مناهضة للإسلام فكان يقول: «بني وطني لا تسيئوا تفسير الحرية كي لا تذهب من أيديكم، لا تصبُّوا العبودية العفنة في قوالب براقة وتسقونا من علقمها ، إن الحرية لا تتحقق ولا تنمو إلا بتطبيق أحكام الشريعة ومراعاة آدابها»(١).

* * *

وفي شتاء سنة ١٩١١م (١٣٢٧هـ) زار ديار الشام حيث كانت أخته هناك، وألقى خطبة باللغة العربية في الجامع الأموي في دمشق مخاطبًا العلماء وجمعًا غفيرًا من المصلين، وقد طبعت خطبته هذه في كراسة تحت عنوان «الخطبة الشامية» التي شخص فيها أمراض الأمة الإسلامية وعلاجاتها، منها:

١ - اليأس والقنوط الذي ما زال يحد أسباب الحياة في نفوسنا.
٢ - موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.
٣ - حب العداوة.
٤ - تجاهل الرابطة الروحية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.
٥ - ذيوع الاستبداد ، ذيوع الأمراض المعدية المختلفة .
٦ - حصر الهمة في المنفعة الشخصية، دون الالتفات إلى النفع العام(٢).

* * *

ولاشتهار بديع الزمان بعدائه للمحتلين ، فقد دعى إلى أنقرة - مركز حركة المقاومة - من قبل مصطفى كمال للانضمام إليهم إلا أنه رفض الدعوة قائلاً:

«إنني أريد أن أجاهد في أخطر الأمكنة ، وليس وراء الخنادق، وأنا أرى أن

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٦.

مكاني هذا أخطر من الأناضول».

ولكن الدعوة تكررت، فأرسل إلى أنقرة بعض طلابه ، ثم ذهب هو إليها سنة ١٩٢٢م قبيل عيد الأضحى، حيث استقبل في المحطة استقبالاً حافلاً، إلا أنه لم يسعد في أنقرة كثيرًا، إذ لاحظ بأسف بالغ أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة، كما أن تصرفات مصطفى كمال وسلوكه المعادي للإسلام أحزنه كثيرًا، لذلك فقد قرر أن يطبع بيانًا في ١٩/١/١٩٢٣م يتضمن عشرة مواد موجهًا إلى النواب يعظهم ويذكرهم بالإسلام مستهلاً بـ « يا أيها المبعوثون. . إنكم لمبعوثون ليوم عظيم» وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزّع بين النواب، وتولى إلقاءه الجنرال «كاظم قره بكر» (القائد الأول لحركة الاستقلال) أن ما يقارب ستين نائبًا من النواب قد استقاموا على التدين وأقاموا الصلاة، حتى أن مسجد بناية المجلس لم يعد كافيًا للمصلين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

لم يرض مصطفى كمال عن هذا البيان فاستدعى بديع الزمان وحدثت بينهما مشادة عنيفة ، وكان مما قاله مصطفى كمال:

« لا ريب أننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك ، لقد دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة ، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل هذا المجلس».

فأجابه بديع الزمان مشيرًا إليه بإصبعه في حدة:

« باشا . . . باشا. . . إن أعظم حقيقة بعد الإيمان هي الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود. . » (١).

* * *

وكانت هذه المقابلة في سنة ١٩٢٢م، وبعدها أدرك النورسي أنه لا أمل في عصابة أتاتورك، وأدرك - أيضًا - أن الله يفرض عليه مهمة كبيرة، وأن عليه أن يقف بكل مواهبه وطاقاته ضد الإلحاد الكمالي الزاحف.

ومنذ التاريخ السابق بدأت رسائل النور التي كان لها أكبر الأثر في نشر معالم الإيمان وغرس بذور اليقين في نفوس الناس في مواجهة عواصف الإلحاد العاتية:

وقد بلغت هذه الرسائل نحو أربعة آلاف صفحة موزعة على نحو عشرة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٥٣.

مجلدات، وكان لها تأثير عظيم ـ ومازال ـ في مقاومة الإلحاد، ويقدر بعضهم عدد مريدي الشيخ الآن بأربعة ملايين في تركيا وحدها، أما المتأثرون بفكره فلا يحصون.

ومن الطريف أن سيعد النورسي قام بنفسه بتقسيم حياته إلى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: « سعيد القديم » :

وهي مرحلة انخراطه في السياسة على أمل نشر الإسلام عن طريقها إلى أن تبين له فساد هذا الطريق؛ لأن وسائل السياسة الخبيثة لا تصلح لنشر دعوة الحق والنور الواضحة، وهذه المرحلة تمتد إلى سنة ١٩٢٦م.

المرحلة الثانية : « سعيد الجديد »:

وهي مرحلة تمتد إلى سنة ١٩٤٩م، وكان شعار سعيد في هذه المرحلة : أعوذ بالله من الشيطان والسياسة، وقد ركز في هذه المرحلة على مسألة إنقاذ الإيمان في تركيا، ومع هجره للسياسة على هذا النحو الواضح، فإن أعداء الله تتبعوه ونفوه وسجنوه.

المرحلة الثالثة : « سعيد الثالث » :

ومن الملاحظ أنه هو الذي أطلق على نفسه هذا الاسم بعد خروجه من سجن مدينة (آفيون) ، وهي مرحلة تغيرت فيها الأوضاع في تركيا لصالح النورسي، وذلك بعودة الأحزاب السياسية إلى النشاط، وفوز الحزب الديمقراطي المعارض في الانتخابات وبالتالي إقصاء حزب الشعب الجمهوري الأتاتوركي الذي حارب الإسلام ربع قرن من الزمان.

ولنا أن نتوقع مدى واسعًا من الحرية والتربية الجماعية وذيوع رسائل النور في ظل القانون، وطباعتها، كما تميزت هذه الفترة بكثرة رحلات النورسي الدعوية والتربوية حتى لقى ربه سنة ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م) وذلك في مدينة أورفة، التي أصر على الذهاب إليها ليموت فيها بالرغم من اعتلال صحته!!

وقد حاولت السلطات إخراجه منها فأبى، حتى لقى الله بها.

ولكن موته لم يكفهم، فما زالوا يفكرون في ملاحقته بعد موته، حتى أصدروا قرارًا بنقل جثته من مقبرته إلى جهة غير معلومة، حتى أخفوا مقبرته عن الناس، فلم تعرف له مقبرة حتى الآن، لقد لاحقه الملاحدة والعلمانيون واليهود حيا وميتًا. ومع ذلك فقد عاش النورسي وعاشت أفكاره في قلوب عشرات الملايين عبر لغات حية كثيرة، ترجمت إليها كتبه ورسائله ، وعبر الجرائد التي تصدر عن تلامذته، وعبر تلامذته

المنتشرين في آسيا وأوربا وأمريكا وإفريقيا.

رحمه الله رحمة واسعة.

النورسي ورؤيته لأسباب تخلف المسلمين:

لا يتحرك التاريخ بعامل واحد، كما أنه لا يتحرك بعوامل مرئية منظورة وحسب، كما أن المدى الذي يجب أن يبصره مفسر التاريخ أو فيلسوفه يجب أن يمتد إلى أكبر مساحة زمنية ومكانية تتشابك مع الواقعة موضوع التحليل... ولئن كان تاريخ الإنسان الفرد محدود التشابك منظوراً، يمكن قياسه بقياسات نفسية واجتماعية محدودة، فإن دراسة الحضارات في تشابكها وتفاعلها واتساع أمداء إشعاعاتها وأصداء إبداعاتها، ومراقبة عوامل التأثير الإيجابية والسلبية فيها... كل ذلك لا يمكن أن يتحقق بوسائل محسوسة تجريبية، بل لابد معه من وسائل فحص عقلية تجريدية، ومن هذه الناحية يصبح التاريخ - كما يقول العلامة الجزائري مالك بن نبي - «ضرباً من الميتافيزيقا، إذ إن مجاله يمتد إلى ما وراء السببية التاريخية، لكي يلم بالظواهر في غايتها»[1].

وما دام الماديون ينكرون «الغائية» - ابتداء، ويؤمنون بأن الحضارات تمضي منطلقة من قواعد (عفوية صدفية) وتسير إلى لا نهائية غير واعية، فإن من الصعب أن يؤمنوا بوجود (عوامل ميتافيزيقية) وراء حركة التاريخ، بل إنهم يربطون الوقائع بعوامل اقتصادية آنية محدودة، وبتطور آلي صناعي تجريبي... ولا أدري كيف يعلل هؤلاء سقوط الحضارات، وهي في قمة ازدهارها الاقتصادي الذي تواطأ ذووه على الترف والتقدم المادي؟! ولا كيف يعللون سقوط الإمبراطورية الرومانية خلال خمسة قرون كاملة - حسب تحليل جيبون - بحيث اعتبر المؤرخون المسلّحون بالرؤية العميقة للتاريخ أن تدفق القبائل الجرمانية خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد كان الضربة الأخيرة المباشرة التي تحللت على إثرها إمبراطورية روما، بينما كان لسقوط أسرة «الهان» في الصين، ولسلسلة الصراعات القبلية السابقة بين الشعوب المغولية والهونية، ثم الهونية الجرمانية في المحيط الروسي - ثم الجرمانية القوطية[2]، وما أفرزته المسيرة الداخلية للإمبراطورية الرومانية من فساد أخلاقي وصراعات طبقية واجتماعية، وطغيان كنسي - كان لكل ذلك تأثيره البعيد والعميق في سقوط الإمبراطورية الرومانية... «فهناك إذن

---

(١) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، ص ٢١، طبع دار الفكر دمشق ١٤٠٢.

(٢) مالك بن نبي: المرجع السابق، ص ٢٢.

خلف الأسباب القريبة أسباب بعيدة تخلع على تفسير التاريخ طابعًا ميتافيزيقيا أو كونيا. . .» (١).

إن هذا الجانب الميتافيزيقي أو الكوني الذي يربط أشلاء التاريخ بطريقة عضوية ويعطي لمسيرة التاريخ معنى وعقلانية وغاية. . . إنما هو في الحقيقة جوهر عميق واضح يبصره ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] ويؤمنون بأن تقدير الناس للزمان غير تقدير الله له ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج : ٤٧]، وبأن الله يحرك هذا التاريخ البشري وفق سنن ثابتة وغايات واضحة:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ . بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٨].

وما وقع للإمبراطورية الرومانية في رحلة سقوطها التي امتدت خمسة قرون يقع لكل الإمبراطوريات التي مثلت ظواهر حضارية كبرى، ولم تكن مجرد دول ينزل عليها النازلون، ثم يرحلون، كما يرحل المحتلون الطارئون.

ووفق هذه الرؤية البعيدة العميقة في التحليل يري مالك بن نبي أن موقعة (صفين) كانت بداية السقوط من المثال إلى الواقع ـ بكل معطياته السلبية والإيجابية ـ في رحلة الحضارة الإسلامية.

ويري أن مركب الحضارة الإسلامية قد تحلل بسقوط دولة الموحدين الذي كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها»(٢).

ومهما يكن الاختلاف في الرؤية بيننا وبين بعض النتائج في تحليلات العلامة «مالك بن نبي» الحاسمة، فإن تحليله جدير بالتقدير، وهو في محتواه الأخير ـ يمثل الرؤية الإسلامية الموضوعية التي لا تحصر الأشياء في اللحظة والمادة والمرئي، ولا تعمى عن الحقائق الكبرى، وبعبارة أوجز، تلك التي تبصر البعد الغيبي، وتكاد تلمس عناية الله المهيمنة على كل شيء، والتي لا يعقلها إلا العالمون !!

وفي يقيني أن هذه الرؤية الحضارية التي أبصرها المهندس الكهربائي الجزائري المتوفي سنة ١٩٧٥م «مالك بن نبي» كانت ستجد أعماقًا رحيبة وآفاقًا فسيحة لو أنها تفاعلت مع رؤية عالم طبيعي آخر كان يعيش في مركز الخلافة الإسلامية الأخيرة، ويرى

---

(١) مالك بن نبي: المرجع السابق ص ٢٣.

(٢) وجهة العالم الإسلامي ص ٣١.

بعينيه (صفين) جديدة، وسقوط خلافة موحِّديّة أخيرة عاشت خمسة أضعاف خلافة الموحِّدين المغربية، وامتدت أضعاف امتدادها (١)... وهي الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م.

كان النورسيّ يرى كل ذلك، ويعيشه، ويحترق وجدانه به، وكان يبحث بوعيه وعقله عن أسباب ذلك الانحسار، ولا تهمه المادة ولا الأرض ، فليس عنهما يبحث وإنما يبحث عن أشجار الإيمان التي توشك أمام لهيب المادية وحرائق الإلحاد أن تذوي وتتحول إلى رماد.. ولعل بديع الزمان سعيد النورسي كان يسأل نفسه:

- هل يمكن حقا أن تموت بذور الإيمان؟
- هل ينتهي تاريخ الأنبياء على الأرض؟
- هل سيضيع الإسلام، وهو الدين الحق، والحجة البالغة، وتسود المادية والانحلال؟
- وهل يترك الله الحضارة الإنسانية تنحدر إلى هذا القاع دون شهداء على الناس يسعون لعودة الميزان القسط في قلوب الناس وعقولهم؟

أجل ، كان كل ذلك يدور في خلده خلال عقدي العشرينات والثلاثينات من قرننا الميلادي العشرين، وهو يرى الامتداد اليهودي الصليبي، والهيمنة الغربية والانحلالية تنشر سمومها دون مقاومة ذات شأن على هذه الأرض؟

ولم يكن أمامه - وهو لا يملك إلا إيمانه وعقله - إلا أن يحاول التعرف على (حكمة الله) فلعله يبصر بعض الومضات التي تطمئن نفسه الملتاعة ، بل لعله يكتشف بعض الأشعة الزاحفة من حيث يرى أكثر الناس المستقبل مظلمًا الظلمة كلها، وأن المادية أو اللادينية قد ورثت الأرض ومن عليها.

ومن حيث أراد أو لم يرد أصبح «بديع الزمان سعيد النورسي» من أكبر فلاسفة التاريخ المسلمين ، الذين يحللون - بالمبضع الإسلامي - الوقائع والأحداث، ويبصرون عناصر الحكمة والعناية والرحمة وراء كل حدث... ولا يتطرق اليأس إلى نفوسهم مهما ادلهمت الخطوب وتكاثرت السحب.... فلا شيء يقع في ملك الله إلا ما يريد ، ولا يند عن الله شيء، والله لا يظلم الناس شيئًا ، ولا يجري شيئاً عبثًا في هذا الكون.

---

(١) عاشت دولة الموحّدين محصورة في المغرب والأندلس بين منتصف القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجري تقريبًا.

وهذه كلها (معالم) تمنح قلب المسلم الثبات والاستقرار وتعطيه أملاً متجددًا واستعلاء على كل الآلام والنكبات، وصمودًا في وجه كل العواصف وثقة مطلقة في الله.

وعلى سعة تراث «بديع الزمان النورسي» وتشعبه، فإنني أرى أن هذه البصيرة النافذة التي يحلل بها النورسي أفعال الله في حركة التاريخ، ويفلسف بها الأحداث والوقائع كانت من أكبر المفاتيح التي منحها الله إياه.

ومن خلال هذه الرؤية الإسلامية للوقائع ، وبعمق لم يتوافر لغيره أبصر النورسي ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨]،وعرف عن يقين علمي أن الله سبحانه وتعالى ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة: ٧] ، وأنه سبحانه ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] . . . نعم . . فكل شيء في الوجود ـ هكذا يقول لنا النورسي ـ فيه جهة حسن حقيقية حتى ما يبدو أقبح شيء، فما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلا وهو جميل بذاته، أو جميل بغيره، أي جميل بنتائجه التي يفضي إليها.

فهناك من الحوادث التي يبدو ظاهر أمرها قبيحًا مضطربًا ومشوشًا، إلا أن تحت ذلك الستار الظاهري أنواعًا من جمال رائق وأنماط من نظم دقيقة.

«فتحت حجاب الطين والغبار، والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تختبئ ابتسامات الأزهار الزاهية بروعتها ، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة».

«وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة المكتسحة للأشجار والنباتات ، والهازة للأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملة نذر البين، وعازفة لحن الشجن والموت والاندثار، هناك بشارة الانطلاق من أسر العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة التي تتفتح للحياة في أوان تفتح الأزهار، فتحافظ عليها من قر الشتاء وضغوط طقسه، فضلا عن أن أنواء الشتاء القاسية الحزينة تهيئ الأرض استعدادًا لمقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة»(١).

«بيد أن الإنسان المفتون بالمظاهر والمتشبث بها والذي لا ينظر إلى الأمور

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي ـ كليات رسائل النور ـ١ـ الكلمات. ص ٢٥٠، ط دار سوزلر للنشر والتوزيع بالقاهرة.

والأحداث إلا من خلال أنانيته ومصلحته بالذات، تراه تتوجه أنظاره إلى ظاهر الأمور وتنحصر فيها، فيحكم عليها بالقبح!» (١).

هذا مع القرآن الكريم – الذي هو منبع الأدب الخالص ـ يضم بين سوره تعابير تشير إلى إشارات في غاية اللطف والجمال إلى هذه الوجوه الحكيمة والستائر اللطيفة. فما نراه قبحًا في بعض المخلوقات، والآلام والآحزان التي تخلفها بعض الأحداث والوقائع اليومية لا تخلو أعماقها قطعًا من أوجه جميلة، وأهداف خيرة، وغايات سامية وحكم خبيئة، تتوجه بكل ذلك إلى خالقها الكريم كما قدَّر وهدى وأراد (٢).

* * *

والفرد مهما كانت طاقاته وقدراته على استيعاب الحدث ونظراته الشمولية والتركيبية ـ فإنه في النهاية بشر تحكمه أنانيته وفرديته، وهو عاجز ـ إلا من عصم ربك ـ عن رؤية ما وراء الأشياء، والبصر بالعواقب البعيدة والتجرد عن ربط الأحداث ربطًا مباشرًا بشخصه، فهي خير ما دامت خيرًا لشخصه ، وهي شر ما دامت شرًا لشخصه(٣).

ويضاف إلى عجزه هذا عجز آخر عن التركيب الكلي للأجزاء المتناثرة والوقائع المتضادة والأمور اللامعقولة التي يعايشها في كل يوم ، ولا يعرف لها عللا جامعة، ولا حكمًا قاطعة. . . لكن بديع الزمان سعيد النورسي ـ وهو فيما نعتقد ممن عصمهم الله من الزلل، واصطفاهم لرؤية الأشياء على حقيقتها وفي إطارها الكلي ـ يرتفع إلى المستوى السابق الذي يجمع الجزئيات، ويبصر ما وراء الوقائع ويضع يده على المعاني الحقيقية لأفعال الله.

فالسجن والاعتقال (لطمة حنان)، وأما المرض ، فياله من نعمة عظيمة، بل هو نوع من «الدواء» وهو يكسب المريض «أرباحًا طائلة»، وليس لك أيها المريض حق في الشكوى. . . بل عليك الشكر، وعليك الصبر؛ لأن وجودك وأعضاءك وأجهزتك ليست ملكك أنت، بل هي ملك لآخر يتصرف في ملكه كيف يشاء(٤) !!

وأما إبصار الجزئيات، وما وراءها فهو معلم مهم من معالم الرؤية الإسلامية للتاريخ، ولعل الجزئية الشديدة، والتمزيقية الشائعة في تدوين الأحداث التاريخية وفق

(١) السابق نفسه ، ص ٢٥٠.   (٢) السابق نفسه ، ص٢٥١.

(٣) سعيد النورسي : رسالة إلى كل مريض ومبتلى ص ٧.

(٤) السابق نفسه ، ص١٠، نشر مكتبة النور ١٩٩٢م ـ القاهرة ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

النمط التاريخي التقليدي ، كانت من أبرز الأسباب في تخلف المسلمين في التنظير الاجتماعي والفلسفي للتاريخ . . . اللهم إلا في ذلك الاستثناء المعروف المتمثل في شخصية عبد الرحمن بن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨هـ.

لكن «النورسي» الذي تمتزج في ثقافته الجوانب العلمية والشرعية والحضارية، استطاع أن يمسك بهذه الخيوط، وأن يرتفع فوق الجزئيات، ويدعو إلى وضعها في إطارها الصحيح. . . يقول النورسي :«لندع الجزئيات ياصاحبي ، ولنتأمل في هذا العالم العجيب ، ولنشاهد أوضاع أجزائه المتقابلة بعضها مع البعض الآخر، ففي هذا العالم البديع من النظام الشامل والانتظام الكامل كأن كل شيء فاعل مختار حي يشرف على نظام المملكة كلها، ويتحرك منسجمًا مع ذلك النظام العام، حتى ترى الأشياء المتباعدة جدًا يسعى الواحد منها نحو الآخر للتعاون والتآزر ».

«انظر : إن قافلة مهيبة تنطلق من الغيب (قافلة النباتات) مقبلة علينا تحمل صحون أرزاق الأحياء. . . ثم انظر إلى ذلك المصباح الوضيء (الشمس) المعلق في قبة المملكة فهي تنير الجميع ، وتنضج المأكولات المعلقة بخيط رقيق (أغصان الشجر) والمعرضة أمامه بيد غيبية. ألا تلتفت معي إلى هذه الحيوانات النحيفة الضعيفة العاجزة كيف يسيل إلى أفواهها غذاء لطيف خالص يتدفق من مضخات متدلية فوق رؤوسها، وحسبها أن تلصق أفواهها بها» (١).

إن هذه الرؤية الشاملة التي تتعامل مع لوحة الكون واضعة يدها على كل ما فيها من إبداع، مبصرة ما وراء كل خط أو لون أو ظل أو بعد من معنى، ومبصرة كذلك المعطيات الكلية الجمالية والنفعية والخيرية للوحة كلها. . . هذه الرؤية هي منحة ربانية تميز بها بديع الزمان سعيد النورسي ، وهي من صميم الرؤية الإسلامية للتاريخ.

إن الماديين الذين لا يبصرون لوحة الكون بكل معطياتها، ولا يبصرون القوانين المعنوية الرحيمة التي تربط شتى الجوانب ، وتقود السنن إلى غاية محددة ، إنما هم قطيع من العميان الذين فقدوا البصيرة والملكة العقلية.

يقول بديع الزمان:

«يأتي ملحد إلى هذا العالم الذي هو معسكر مهيب رائع لجنود السلطان الجليل، وهو مسجد عظيم بارع، يعظم فيه ذلك المعبود الأزلي ويقدس ، يأتيه وهو يحمل فكرة

---

(١) النورسي : الكلمات ص ٣١٦، ٣١٧.

«الطبيعة» الجاحدة، ذلك الجهل المطبق.

فيتصور «القوانين المعنوية» التي يشاهد آثارها في ربط أنظمة الكون البديع، والنابعة من «الحكمة» البالغة للبارئ المصور سبحانه، يتصورها كأنها قوانين مادية، فيتعامل معها في أبحاثه كما يتعامل مع المواد ، والأشياء الجامدة» (١) !!

وفي مواجهة الرؤية التاريخية المادية التي تقيم نظرتها للكون والحياة والإنسان على أساس الصراع والتضاد والتنافر، يقدم النورسي الرؤية الإسلامية الموضوعية التي ترى أن (التعاون) و (التكامل) و (التآلف) هي من الأسس التي تتبنى عليها علاقات الأجزاء الكونية الاجتماعية، وهي - أيضًا - الطريق للتقدم والإبداع وتسخير عناصر الكون الكثيرة لخدمة الحياة والإنسان ، والجدلية القائمة بين موجودات الكون؛ جدلية استثارة وأنس وتلاقح وسعي لانجاز المهام الضرورية لاستمرار الحياة وازدهارها. . . يقول النورسي:

«إن جلوة الفردية وضعت على وجه الكائنات سكة من سكك الوحدة، بحيث جعلت الكائنات في حكم كلٍّ لا يقبل تجزؤًا».

«فمن لا يتصرف في جميع الكائنات، لا يكون مالكًا حقيقيا لجزء منها أصلا، وتلك السكة هي أن موجودات الكائنات وأنواعها يتعاون بعضها مع بعض، ويعمل بعضها لتكميل عمل الآخر ، كدواليب مصنع منتظم، فتشكل وحدة وجود بصورة تداخلها وتعانقها وسبق بعض إلى إمداد بعضها وإجابة بعض لسئوال بعضها، وتعاونها وتساندها بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن البعض كالعناصر الموجودة في جسد إنسان.

فمن أمسك بزمام عنصر ، إذا لم يستطع أن يمسك أزمَّة الكل ، لا يضبط زمام ذلك العنصر الوحيد. . . فهذا التعاون والتساند والتجاوب والتعاون، سكة كبرى مشرقة جدا في سكك الوحدة. . .» (٢).

ولكي نعطي لهذه النظرة النورسية قيمتها الحقيقية، فيجب أن نتذكر أنها كتبت في فترة زمانية كانت المادية الماركسية تعيش أيام وهجها وزخرفها، وكان الوقوف ضد مقولاتها يبدو وقوفًا ضد تيار عالمي مدعم بالغطرسة والقوة، ولكن النورسي الذي كان ينطلق من تلمذة مباشرة للقرآن، وإيمان مطلق بأستاذية القرآن للحياة والتاريخ، لم تبهره الضغوط الطارئة، فاستمد من ثوابت الرؤية القرآنية وخلودها واستعلائها على الأمراض

(١) اللمعات ص٢٨٢.

(٢) مجموعة اللمعات للنورسي ، ترجمة الملا محمد زاهد ، ص ٥٤٠، منشورات دار الآفاق ، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

الطارئة... استمد منها آراءه التي أثبت التاريخ أصالتها... وليته عاش ليبصر معنا سقوط الماركسية والمقولات المادية ، وبطلان الصراع ، وبروز حتمية التعاون !!

الإنسان ومهمته في الحياة : .

بينما تسحق المذاهب الجماعية إنسانية الإنسان، وبينما تؤله المذاهب الفردية الإنسان ، تأتي الرؤية الإسلامية للإنسان متوازنة بلا إفراط ولا تفريط... إنه خليفة الله، يستمد عظمته من التصاقه بمهمة الخلافة، ومتى تخلى عن العبودية الحقة التي هي جوهر مهمة الخلافة فقد وظيفته واستعبده الشيطان... إنه عظيم في إطار وظيفته الخلافية، أو بتعبير النورسي الدقيق:

«إن الإنسان هو نسخة جامعة لما في الوجود من خواص، حتى يشعره الحق سبحانه وتعالى بجميع أسمائه الحسنى المتجلية بما أودع في نفس الإنسان من مزايا جامعة. وهو مرآة عاكسة لتجليات الأسماء الإلهية الحسنى، فهو يعرف بضعفه وعجزه وبفقره وحاجاته، وبنقصه وقصوره قدرة القدير ذي الجلال، وقوته العظيمة ، وغناه المطلق، ورحمته الواسعة.

فيكون الإنسان بهذا كأنه مرآة عاكسة لكثير من تجليات الصفات الإلهية الجليلة، بل حتى إن ما يحمله من ضعف شديد، وما يكتنفه من أعداء لا حدَّ لهم، يجعله يتحرى دائمًا عن مرتكز عليه ، ومستند يستند إليه. فلا يجد وجدانه الملهوف إلا الله سبحانه.

وهو مضطر أيضًا إلى تحري نقطة استمداد يستمد منها حاجاته التي لا تتناهى، ويسد بها فقره غير المتناهي، ويشبع آماله التي لا نهاية لها، فلا يجد في غمرة تحريه إلا الاستناد - من هذه الجهة - إلى باب غني رحيم، فيتضرع إليه بالدعاء والتوسل» (١).

ويأتي السقوط حين يحاول الإنسان أن يقف وحده، بعيدًا عن عون الله... إنه يحاول أن يكون مستقلاً يستعبده عقله أو تستعبده حريته، وهو لا يدري أن عقله لن يؤدي وظيفته إلا بالزيت الذي يقتسبه من مصباح الوحي أو شمس الوحي... إنه سيتوه أمام ألغاز الكون، وسيقتل نفسه... كما أن حريته ستصبح وبالاً عليه إذا كانت حرية حيوانية لا تحترم ثوابت الإنسانية، ولا تلتزم بتوجيهات الله في الأمور والنواهي.

وها قد رأينا عبادة العقل والحرية، كما ظهرت في المؤتمرات العالمية الأخيرة، تقود

---

(١) السابق ص ١٣٦.

الإنسانية إلى الدمار الأكيد. . . فالشذوذ الجنسي بصوره المختلفة يراد له أن يكون تشريعًا عالميا، وحقا إنسانيا، مما يثبت أنه ليس بالعقل ولا الحرية المنفلتين من وظائف الوحي وضوابط الشرع تستقيم الحياة الإنسانية، كما أن الإنسان المجرد من وظائفه سيقود نفسه إلى الدمار. . . يقول النورسي :

«إن الإنسان لم يوهب له رأس مال العمر، ولم يودع فيه أجهزة إنسانية راقية إلا ليؤهله ذلك لتأدية الوظائف الجليلة».

«أتحسبون أن مهمة حياتكم محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمَّارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعًا لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متجسمة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشا وكلا».

ثم يخاطب النورسي نفسه محددًا لها خلاصة وظائفها في هذه الحياة فيقول لها بأسلوب حكيم جامع:

« إن كنت تريدين أن تفهمي شيئًا من : غاية حياتك، ماهية حياتك، صورة حياتك، سر حقيقة حياتك، كمال سعادة حياتك. . . فانظري إلى مجمل «غايات حياتك» فإنها تسعة أمور:

أولهـــا : القيام بالشكر الكلي.

ثانيهـــا : فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى.

ثالثهـــا : إعلان ما ركبت فيه الأسماء الحسنى من لطائف وإظهارها أمام أنظار المخلوقات في معرض الدنيا.

رابعهـــا : إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال.

خامسها : التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها لك تجليات الأسماء الحسنى.

سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، ورؤية تسبيحاتها لخالقها .

سابعهـا: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجلي ووزنها بما وهب لك من نماذج مصغرة لمعرفتها.

ثامنهـــا : فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم فيما يخص وحدانية وبية مبدعه. ١٩٥خالقه ورب

تاسعهـا : إدراك درجات القدرة الإلهية بموازين العجز المنطوية في نفسك» (١).

النورسي ودور العقل في صناعة الحضارة:

يرى «اشبنجلر» أن الحضارة تقوم على «الإدراك المميز البديهي»، وأن الرؤية الشعرية هي المنهج المناسب لدراسة التاريخ، وأنه ليس بالعقل والمعرفة وحدهما يضطرد التقدم البشري. واستلهامًا من ابن خلدون يرى العلامة مالك بن نبي أن «الروح» هي مرتكز الانطلاق الحضاري ، ثم يأتي العقل في المرحلة الثانية، ليقدم صورًا من الإبداع الذي يؤدي إلى العلوم، ثم إلى الترف. . .ثم يبدأ الانكسار الحضاري حين تذوي الروح ويمتد العقل والترف. . .أما بديع الزمان النورسي فقد كان مباشرًا في مواجهة طغيان العقل وتوظيفه توظيفًا دونيا سلبيا ماديا. . . يقول محذرًا من هذا التوظيف المدمر للعقل:

«العقل عضو وآلة» ، إن لم تبعه ـ يا أخي ـ لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلته في سبيل الهوى والنفس، فإنه يتحول إلى عضو مشئومة مزعج وعاجز، إذ يحملك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذ إلى درك آلة ضارة مشئومة ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السكر انقاذًا لنفسه من إزعاجات عقله؟ ولكن إذا بيع العقل لله، واستعمل في سبيله ولأجله ، فإنه يكون مفتاحًا رائعًا بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية فأينما ينظر صاحبه، وكيفما يفكر يرى الحكمة الإلهية في كل شيء، وكل موجود، وكل حادثة ، ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشد رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة.

فيا أيها العقل ، أفق، أين الآلة المشئومة من مفتاح كنوز الكائنات؟ويا أيتها العين؛ أبصري جيدًا، أين السمسرة الدنيئة من الإمعان في المكتبة الإلهية؟

ويا أيها اللسان؛ ذق بحلاوة ، أين بواب المعمل والإصطبل من ناظر خزينة الرحمة الإلهية؟» (٢)، والحق أن هذه الرؤية المحايدة لوظيفة العقل، تمثل صميم الرؤية الإسلامية التي انطلق منها النورسي على امتداد فكره، فالعقل بدون فقه قلبي، وفطرة

(١، ٢) بديع الزمان سعيد النورسي : كليات رسائل النور ، ١- الكلمات: ص ٢٣ ، ٢٤.

إيمانية، وغايات كريمة ربانية، يصبح كالصاروخ الذي ينطلق ليدمر قواعد انطلاقه والذين أطلقوه!!

بين المدنية الأوروبية والمدنية الإسلامية:

شتان بين ما يصنعه تطور عقلي منبت الصلة بالوحي، وما يصنعه الوحي الذي أنزله المحيط الخبير اللطيف.... لقد تطورت أوربا في ظل عدائها للدين بسبب الكنيسة، فأفرزت حضارة حيوانية عقلية ظالمة، بينما تنطلق حضارة الوحي من مزاملة للإيمان ومصادقة للحق واستمساك بالعدل والخير ... وفي ظلال هذا التباين في المنطلقات والغايات يرصد النورسي الفروق الجوهرية بين مدنية أوربا ومدنية الإسلام.

إن أسس المدنية الحاضرة سلبية وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها.

فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وقصدها: المنفعة الخسيسة بدل الفضيلة، ودستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، ورابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وخامستها : هي أن خدمتها الجذابة ، تشجيع الأهواء والنوازع، وإشباع الشهوات والرغبات.

إن معظم المدنيين، لو قلبت باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدب والخنزير، نعم، إن خيالك ليمس فراء تلك الحيوانات وجلودها... وآثارهم تدل عليهم» (١).

ـ هذا جوهر خصائص المدنية الأوربية، وهو خلاصة ما تعطيه للإنسانية!!

ـ أما أسس مدنية القرآن الكريم، فهي إيجابية تدور سعادتها على خمسة أسس:

نقطة استنادها : الحق بدل القوة، وقصدها : الفضيلة بدل المنفعة، ودستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال، وخدمتها للمجتمع : بالهدى بدل الأهواء والنوازع، ورابطتها بين المجموعات البشرية: رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصف والمهنة وأخوة الإيمان، و بهذه المدنية يعم السلام الشامل، إذ هو في موقف الدفاع ضد أي عدوان خارجي.

والآن ! ندرك لم أعرَض العالمُ الإسلامي عن المدنية الحاضرة، ولم يقبلها ، ولم يدخل المسلمون فيها بإرادتهم.

---

(١) بديع الزمان النورسي : الكليات ، ص ٨٥٥، بتصرف.

إنها لا تنفعهم ؛ لأنها كبلتهم بالأغلال، بل صارت سما زعاقًا للإنسانية بدلاً من أن تكون لها ترياقًا شافيًا، إذ ألقت ثمانين بالمائة من البشرية في شقاء، ليعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة. أما العشرة الباقية فهم حيارى بين هؤلاء وهؤلاء.

وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة، بينما السعادة الحقة، هي في إسعاد أو في الأقل أن تصبح مبعث نجاة الأكثرية[1].

فأي مستقبل ينتظر البشرية لو ظلت خاضعة للمدنية الأوربية، وأي جريمة يرتكبها المسلمون إن ظلوا نائمين تائهين عن حقيقة ما يملكون للإنسانية من كنوز الخير، عاجزين عن جذب الناس إلى سفينة النجاة..... سفينة الإسلام..... سفينة الحضارة الحقة، اللائقة بإنسانية الإنسان، والقادرة على العبور به إلى شاطئ السعادة في الدنيا والآخرة!!

---

(١) السابق، ص ٨٥٦ بتصرف.

أبو الحسن الندوي
(حياة مجاهد عانى قضايا البعث الإسلامي)

الشرق شرق :

خلال جولتك في قرى الهند ومدنها الإقليمية، وحتى في مدنها الكبرى كدهلي وبومباي وبنارس ولكنهؤ تحس بطعم خاص للحياة.. يختلف ـ تمامًا ـ عن الطعم الذي تحس به وأنت تسير في بلد أوروبي أو أمريكي.

فمع أن الهند تتعدد فيها العقائد واللغات بدرجة كبيرة، ومع أحسن الفروض، فإن نسبة المسلمين في الهند لا تزيد على (١٨٪)... مع ذلك فثمة صياغة معينة للحياة، وطعم خاص لها... ورائحة تفوح مع كل نسمة هواء... كلها يؤكد تلك القولة التي أصبحت مسلمة من المسلمات ـ في رأيي ـ وهي أن «الشرق شرق»!!

إنها الحياة الطبيعية الهادئة الرتيبة... التي لا زال لإنسانية الإنسان ـ على الرغم من تخلفه وفقره ـ دور ملموس فيها .. ولا زال للنواحي الروحية ـ على الرغم من سذاجة أكثرها وبدائيته ـ هيمنة وسيطرة شاملة!!

أما مناخ الحضارة الغربية ... فهو مناخ ميكانيكي مادي محض لا روح فيه...«إنها حضارة لا هدف لها..كالبعير المجتر ما في بطنه... من هنالك شيء جديد... إنها الآن تعيش لنفسها فقط، وأصبحت كما يقول الشاعر الدكتور محمد إقبال: « من أين نبحث عن الذوق اللطيف، وعن الأفكار السامية، وعن النظرة الطاهرة في الحضارة الغربية، وهي حضارة غير عفيفة، قد لوثت ومسخت من زمان»(١).

ومن الغريب أن العلامة أبا الحسن الندوي ـ مع إيمانه ـ بأن الإسلام ليس دينًا إقليميا ولا جغرافيا ـ إلا أنه ـ مع ذلك لم يفته أن يعلن أثناء معايشته للمناخ الغربي في محاضرته التي ألقاها بمدينة (نيوجرسي) بأمريكا الشمالية سنة ١٣٩٧هـ أن الإسلام ـ مع عالميته تلك ـ «يحتاج إلى جو خاص وذوق خاص مسيطر على التفكير والشعور

---

(١) أبو الحسن الندوي : أحاديث صريحة في أمريكا، ص٢٩ ، مؤسسة الرسالة .

وموازين الأشياء والقيم تشم رائحته من بعيد... إنه يحتاج إلى مناخ إسلامي... وطقس ودرجة حرارة وبرودة معينة؛ لأنه دين حي إنساني .. ليس دينًا عقليا يعيش في المخ أو يعيش في الفلسفة ، أو يعيش في مكتبة(١)».

إنها قضية «البيئة» التي لا يمكن إغفال دورها... وتأثيرها ، سواء فى مستوى الحضارة، أو في مستوى المجتمع، أو في مستوى الفرد.

بيئة أبي الحسن ونشأته :

نشأ أبو الحسن ـ كما حدثنا عرضًا عن بيئته ـ في بيئة آمنت بأن الإسلام هو رسالة الله الأخيرة الخالدة، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، وإنه للإنسانية كسفينة نوح لا ينجو إلا من ركبها... وقد عاش ـ أطال الله عمره ـ في ظلال تاريخ الدعوة الإسلامية وقصة بطولاتها وصنائعها وعجائبها تتلى في بيته وأسرته.. وقد نظم بعض أفراد أسرته المتقدمين الملاحم الإسلامية بالشعر الأوردي القوي المثير، مقتبسة من فتوح الشام للواقدي ، والأغاني الشعرية الخاصة بالسيرة النبوية، وأخبار الصحابة وفضل الحضارة الإسلامية ودور العرب في بناء العالم الجديد... فامتزج ذلك كله بلحمه ودمه، وتكونت به عقليته ونفسيته.

إنه ولد في أسرة كان شعارها منذ زمان طويل الجمع بين العقيدة السلفية النقية، وبين الربانية الصحيحة الصافية، وبين الزهادة والعبادة، وبين بذل الجهد لإعلاء كلمة الله، ورفع راية الجهاد حينا بعد حين، والسعي الحثيث في الجمع بين إشراق القلب وصفاء الروح وقوة العاطفة (٢).

في هذه البيئة ولد «أبو الحسن علي بن عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي» الحسني الندوي، وينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي ﷺ.

ووالده هو الشريف العلامة عبد الحي بن فخر الدين ، من العلماء الكبار في عصره، وله كتب كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط، وأشهرها كتاب (نزهة الخاطر)

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤.

(٢) الإسلام الممتحن (من تأليف الصديق المرحوم محمد الحسني) مقدمة الأستاذ أبي الحسن الندوي للكتاب. والجدير بالذكر أن والد المؤلف ـ وهو الأخ الاكبر لأبي الحسن ـ هو الذي قام على أمر تربية أبي الحسن الندوي بعد وفاة أبيهما، بينما كان أبو الحسن ـ في سن التاسعة ، كما سيرد في المقال.

الذي يقع في ثمانية مجلدات، طبعت منها سبعة مجلدات في حيدر أباد، ويشتمل على خمسة آلاف ترجمة لأعيان الهند. وقد توفى هذا الوالد الكريم ـ رحمه الله ـ سنة ١٣٤١هـ [١].

وكان مولد السيد أبي الحسن سنة ١٣٣٢هـ (١٩٣١م)، أي أنه لم يحظ بصحبة والده إلا تسع سنوات، فتولى أمر تربيته والإشراف عليه بعد والده أخوه الأكبر الدكتور الطبيب السيد عبد العلي الحسني، الذي تخرج في ندوة العلماء ومعهد ديوبند وجامعة لكهنؤ، وأصبح مديرًا لندوة العلماء في لكهنؤ.

في «تكية كلان» ، وهي أشبه ما تكون بضيعة عائلية خاصة، يطلق عليها (زاوية الشيخ علم الله الحسني) وفي حمى قرية «رائي بريلي» التي تقع على بعد سبعين كيلو مترًا من لكهنؤ، وتتبع «آترابرديسك» من الولايات الشمالية ، في هذه الضيعة الإسلامية المنعزلة ، وفي رائي بريلي أيضًا ، ولد وترعرع السيد أبو الحسن الندوي، فتعلم القرآن الكريم في البيت، حيث كانت تعاونه على ذلك أمه، التي كانت من فضليات النساء ومن السيدات الصالحات المثقفات، تحفظ القرآن وتكتب، ولها عدة مؤلفات وديوان شعر مجموع، وقد عمرت رحمها الله طويلاً ، وماتت سنة (١٣٨٨هـ).

ولما وصل إلى التاسعة من عمره اختار الله والده إلى جواره، فقام أخوه الدكتور السيد عبد العلي الحسني بترتبيته، بدءًا من هذه السن الصغيرة.

وعن هذا الأخ الكريم يقول السيد أبو الحسن:

« لقد كان مؤمنا، جمع بين سلامة العقيدة وقوة الإيمان والقلب المتفتح والعقل المنير الواسع، والعلم الحديث، وحب الواقعية والجد . . . لا يرى تناقضًا بين العلم والدين، والقديم والحديث، وقد اقتبس من الثقافتين :القديمة والحديثة، والغربية والشرقية أفضل عناصرهما وأجملها فمزج مزجًا جميلاً، وأصبح برزخًا بين بحرين لا يبغيان. . . شديد الحب لله ولرسوله ولعشيرته وقومه ولغته وبلاده. . . عميق الفهم للإسلام. . شديدًا في الحدود والنصوص، مرنا في المباحات، والاستفادة بالحكمة والتجارب. . . ذلكم أخي وأستاذي ومربي عقلي وثقافتي»[٢].

«ولقد كان أخي ـ وهو الذي تولى تربيتي وتثقيفي بعد وفاة أبي، وقد توفى وأنا

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (مقدمة أستاذنا الدكتور أحمد الشرباصي).

(٢) انظر : الإسلام الممتحن :(المقدمة).

في التاسعة من عمري ـ موفقًا كل التوفيق في اختيار الكتب التي كان يجب أن أطالعها في صغري»[1].

وقد توفي أخوه رحمه الله في ذي القعدة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م).

***

وفي صغره تعلم «الندوي» اللغتين الأوردية والفارسية، ثم بدأ وهو في الثانية عشرة من عمره يتعلم الإنجليزية والعربية معًا، وبدأ تعلم العربية على الشيخ خليل بن محمد اليمني، وتوفر سنتين كاملتين على دراسة الأدب العربي وحده، وقرأ كثيرًا من كتب الأدب، وشغف بها على خلاف العادة يومئذ في الهند. ثم التحق بجامعة لكنهؤ، حتى أتم دراسته الأدبية على الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي (رئيس تدريس الأدب العربي بندوة العلماء)، ثم دخل ندوة العلماء ومكث بها عامين يدرس علوم الحديث... وسافر إلى لاهور حيث درس التفسير على الشيخ أحمد علي المفسر المشهور، ولم تكن دراسته في أغلبها للشهادات، بل كانت دراسة حرة خالصة لوجه الله تعالى.

أساتذة وكتب أثرت في الندوي:

إنه من البديهي أن يكون أستاذ كالعلامة الندوي قد تأثر بكثيرين، على أنه ـ في اتجاهه المعتدل والسلفي، والروحي في الوقت نفسه ـ قد تأثر على نحو أقوى بالإمام أحمد بن حنبل، وبشيخ الإسلام ابن تيمية، وبالشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ـ الذي كتب عنه كثيرًا ـ وهو من سرهند بالبنجاب (ت ١٠٢٤هـ) ويرى فيه الأستاذ الندوي المصلح الذي ساقه الله ليحافظ على الإسلام في الهند، في فترة تعرض فيها لخطر كبير، إذ كان إمبراطور الهند المسلم «السلطان جلال الدين أكبر» قد انحرف عن الإسلام، ومال إلى الهندوس، وتزوج منهم ... والسرهندي هو صاحب الرسائل المعروفة في الشريعة والحقيقة ومحاربة البدع والخرافات.

ومن هؤلاء الذين أثروا فيه أيضًا مجدد الهند في القرن الثاني عشر الشاه ولي الله الدهلوي المتوفي سنة ١١٧٦هـ وصاحب (حجة الله البالغة).. ومن هؤلاء كذلك السيد أحمد بن عرفان الشريف الحسني الشهيد، وهو من أسرة السيد أبي الحسن الندوي،

(١) أبو الحسن الندوي: الكتاب الذي لا أنسى فضله، البعث الإسلامي، عدد ربيع الأول ١٣٩٩هـ.

ومن أشهر المجاهدين وأخلصهم في تاريخ الإسلام في الهند، ويعتبره الأستاذ الندوي أنموذجًا من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين (١٢٠١-١٢٤٦ هـ) وقد خصه برسالة صغيرة أطلق عليها (الإمام الذي لم يوف حقه) وبكتاب كبير من أمتع ما ألف الأستاذ الندوي، وهو كتاب: (إذا هبّت ريح الإيمان) !!

ومن أساتذته المباشرين الذين تأثر بهم : الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي، و الشيخ خليل بن محمد اليمني، والشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ أحمد علي، والشيخ محمد إلياس، وهو من أعظم أساتذته، والشيخ عبد القادر الريوي.

أما الكتب التي أثرت في نفسه فكثيرة على رأسها ـ بالطبع ـ كتاب الله، وكتب السنة الشريفة، بيد أن لكتب السيرة النبوية تأثيرًا خاصا في نفس الأستاذ الندوي، نظرًا لحبه العميق لشخصية خاتم النبيين محمد ـ عليه الصلاة والسلام. ومن أهم الكتب التي لا ينسى الأستاذ الندوي فضلها، ويشيد بها بين الحين والحين، كتاب (سيرة رحمة للعالمين) لمؤلفه القاضي محمد سليمان المنصورفوري.

وفي الأدب العربي تأثر الأستاذ (بالحماسة) و (نهج البلاغة) و (دلائل الإعجاز) في الأدب العربي، كما أنه تأثر بكتاب (الأغاني) إلا أنه أخذ على الأصفهاني تركيزه على زاوية واحدة من زوايا المجتمع، وترك الزوايا الكريمة الأصيلة التي كانت تستحق الإبراز والتنويه.

في لكنهؤ عين أبو الحسن الندوي مدرسًا بدار العلوم وبقى بها مدرسًا مدة عشر سنوات، وساهم خلال هذه الفترة في تحرير مجلة (الضياء) التي كان يرأسها بالعربية الأستاذ مسعود الندوي، وبعد ذلك بفترة رأس تحرير مجلة (الندوة العلمية) التي كانت تصدرها ندوة العلماء بالأوردية، ثم أصدر مجلة (التعمير) بالأوردية، وهي مجلة نصف شهرية، وقد أسس جمعية للتبشير بالإسلام بين الهندوس أصدرت كثيرًا من الرسائل باللغة الإنجليزية.

ولما تولى الأستاذ الندوي رئاسة (جامعة دار العلوم ـ ندوة العلماء) أدرك أهمية البحث العلمي والفن الصحافي، فأنشأ في مايو سنة ١٩٥٩م المجمع الإسلامي (أكاديمية البحوث الإسلامية) ، ومع أن هذه الأكاديمية نشأت برأسمال ضعيف جدا، قدره ألف روبية (٤٠٠ريال سعودي) وبدون أي موظف إلا أنها استطاعت أن تتغلب على هذه العقبة، ونجحت في عامها الأول في نشر كتابين باللغة الأوردية، وإصدار نشرة باللغة

العربية . . . وبعد خمسة عشر عامًا، وفي عام (١٩٧٤م) بالتحديد كان ما نشرته هذه الأكاديمية ١٤٤ مؤلفًا منها ٩٣ طبعة أولى، و ٥١ طبعة ثانية، وفي عام ١٩٧٤م نفسه نشرت حوالي ٢٩ كتابًا.

وتحتل مؤلفات الأستاذ الندوي الصدارة في منشورات المجمع العلمي، ونحن نحاول هنا تقديم حصر لمؤلفاته نرجو أن نوفق فيه، وهي :

- الإسلام والعالم.
- حديث مع الغرب.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.
- مذكرات سائح في الشرق العربي.
- نحو التربية الإسلامية الحرة في بلاد المسلمين.
- الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية.
- مختارات من الأدب العربي.
- الدين والمدنية.
- الإيمان والمادية في سورة الكهف.
- المسلمون في الهند.
- السيرة النبوية.
- رجال الفكر والدعوة في الإسلام (خمسة مجلدات).
- الأركان الأربعة.
- ربانية لا رهبانية.
- القاديانية.
- القراءة الراشدة (ثلاثة أجزاء).
- إذا هبت ريح الإيمان.
- روائع إقبال.
- الطريق إلى المدنية.
- قصص النبيين للأطفال (أربعة أجزاء) .
- النبي الخاتم.
- إلى الإسلام من جديد.
- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن .

- أحاديث صريحة في أمريكا.
- مجموعة رسائل أخرى.

وجدير بالذكر أن كثيرًا من كتب الأستاذ الندوي طبعت خارج الهند في بيروت والكويت ومصر والسعودية وغيرها. وقد طبع كتابه (ماذا خسر العالم) أكثر من عشرين طبعة، كما أن معظم مؤلفاته قد ترجم إلى أكثر اللغات الحية وقد اهتمت ندوة العلماء بالجانب الصحافي فأصدرت عدة صحف بالأوردية وصحيفتين بالعربية هما (الرائد) و(البعث) الإسلامي.

وما زال العلامة الندوي يبذل كل جهده بهمة ونشاط في كل هذه الأعمال.. بل إن له عشرات الرحلات التي قام بها إلى مختلف بلدان العالم الإسلامي وغير الإسلامي.. يلقي المحاضرات، ويعقد الندوات، ويخطب في المساجد، وبعض كتبه عبارة عن المحاضرات التي ألقاها في هذه السياحات.

ومن أعماله الحالية أنه عضو مراسل للمجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٧م، كما أنه عضو دائم في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو رئيس للمجلس التعليمي لولاية «أتربرديسك» وعضو المجلس التنفيذي لمعهد (ديوبند) ومن أعضاء المجلس التنفيذي لدار المصنفين بأعظم كرة بالهند، وأحد رؤساء التحرير لمجلة (معارف)، وهي المجلة العلمية الأكاديمية التي تمثل المسلمين في شبه القارة الهندية.

أبو الحسن الندوي ومناهج العمل الإسلامي:

يدعو «أبو الحسن» إلى أن يكون الإسلام هو الوسيلة والغاية، وإلى أن يتخلص المسلمون من الشعارات والأحزاب الأخرى التي قد تدفعهم لمحاربة بعضهم البعض وتجعل بأسهم بينهم.

- والسبيل إلى ذلك هو الاتصال المباشر بالقرآن والسنة وسيرة السلف الصالح، بالإضافة إلى نكران الذات. وهو يقول:

«إن مسئولية العلماء والمفكرين المسلمين في العصر الحديث - بعد مواجهتهم للتحديات المعاصرة وإثباتهم أن الإسلام قادر على قيادتها وترشيدها والسمو بها - هي أن يفضلوا الإسلام على كل جماعة ومؤسسة ومدرسة وطائفة وحزب، وإذا رأوا أن بقاء

الإسلام يتطلب أن تمحى جميع الأسماء واللافتات والشعارات والشارات والأحزاب والجماعات ، فليكن ذلك موضع عنايتهم، ولا يقعنَّ تلكؤ منهم أو إحجام للحظة واحدة، ولتكن مصلحة الدين والعقيدة مفضلة على كل مصلحة حزبية أو جماعية، وليكن واضحًا أن الدين والإيمان وانتصارهما هو الهدف، سواء رجع الفضل إلينا أو إلى غيرنا من الإخوان في العقيدة والدين»(١).

إن العالم الإسلامي مصاب بالمرض اليوم، وبلاد المسلمين مريضة، فلتتركز العناية على الشفاء والدواء، سواء وقع الشفاء في حساب هؤلاء أو أولئك. ولا يجوز أن نكترث بما عسى أن يسجله المؤرخون، وأي جماعة يحبذونها، وأي حزب يعطونه الأولوية لدى المدح والثناء(٢) فالمهم ما عند الله، وأن يشفى المريض بالدواء الصحيح!!

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟

ومن القضايا التي بحثها ـ بتقص وعمق ـ العلامة الندوي . . . قضية خسارة الحضارة الإنسانية بانحطاط المسلمين.

ولعل كتابه الذائع الصيت (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) قد احتل مكانة رفيعة لم تدانيه فيها إلا كتابات قليلة. . . وقد طبع أكثر من عشرين طبعة، وترجم إلى اللغات الحية كلها تقريبًا.

ونحن لن نرجع إلى الكتاب في محاولة تلخيص أفكار المؤلف الكبير، فذلك عمل صعب بالنسبة للحيز المتاح في هذه الدراسة، وإنما سنلجأ إلى العلامة الندوي نفسه، في محاضرة له، ألقيت تحت العنوان السابق نفسه، وطلب منه فيها إبراز أهم شيء خسره العالم بانحطاط المسلمين . . فقال:

«في الحقيقة إن العالم قد خسر جوهره، خسر أغنى ما عنده وأحوج ما يكون إليه، وقد خسر قيمته بانحطاط المسلمين؛ لأن المسلمين هم الذين كانوا يضفون على هذا العالم القيمة المعنوية وجدارة الحياة والبقاء والغاية الرشيدة التي يتجه إليها العالم»!!

«ما هي غاية الحياة؟ لماذ خلق الإنسان؟ لماذا خلق هذا الكون؟ لماذا خلقت هذه الوسائل الكثيرة الوفيرة التي بثَّها الله في الأرض والجو؟ لماذا أودع الله هذه القوة الهائلة

---

(١) أبو الحسن الندوي : واجب العلماء والطبقة المثقفة ،البعث الإسلامي عدد ربيع الأول ١٤٠٠هـ.
(٢) المرجع السابق.

في العقل الإنساني؟ هذه كلها أسئلة وجيهة، كان المسلمون هم الذين يعللون ويفسرون هذه الخصائص البشرية، والتي تمتاز بها البشرية، كان المسلمون وحدهم حاملي رسالة، أكرمهم الله تعالى بها عن طريق محمد خاتم الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام، وكان للمسلمين وحدهم أن يفسروا هذا المخطط الدقيق الواسع الشامل الذي خلق الله عليه الكون، وهذه الحكمة الدقيقة العميقة التي خلق الله لأجلها الإنسان واستخلفه في هذه الأرض» (١).

وهذا . . . أهم ما خسره العالم ، العالم الذي نسى نفسه وحقيقته بانحطاط جماعة المسلمين!!

دور المسلمين والإسلام في الحياة:

وفي يقين أبي الحسن ، ومن أركان دعوته الأساسية ، أن يعود الإسلام (وممثلوه) إلى قيادة الحياة من جديد. . . إنهم ليسوا أتباعاً ولا زملاء للعصور. . . إنهم الشهداء والأئمة للحضارة الحقة. . . لو فقهوا دورهم.

الشيخ الندوي وقضايا الأمة العربية:

ينطلق العلامة الشيخ أبو الحسن عليّ بن الشيخ عبد الحيّ (٢) بن السيد فخر الدين الحسني، المعروف بأبي الحسن علي الحسني الندوي(نسبة إلى ندوة العلماء ـ دار العلوم بلكنهؤ) . . . ينطلق في حبِّه للعرب، واهتمامه الكبير بقضاياهم من مجموعة من الحقائق الدينية والحضارية والعرْقيّة .

ففي مكة المكرمة ظهر الإسلام ونزل القرآن على خاتم الأنبياء والمرسلين النبي العربي الأمي محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ، ثم حملت المدينة المنورة الراية، حتى عمَّ نورُ الإسلام الجزيرة العربية، ثم انطلق الإسلام إلى العالم يحمله العرب ـ بالدرجة الأولى ـ فانتشرت أشعته في أرجاء المعمورة. . . فمن هنا . . . من

---

(١) مقال (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ،البعث الإسلامي، عدد ذى الحجة ١٣٩٩هـ .

(٢) الشيخ عبد الحي الحسني والد العلامة أبي الحسن الندوي : هو مؤرخ الهند الأكبر ومن كبار العلماء في القرن العشرين، ومؤلف موسوعة تاريخ علماء الهند الكبرى «نُزْهة الخواطر» التي كُتبت بالعربية في ثمانية مجلدات، وتضم نحو خمسة آلاف ترجمة، ومؤلف كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» و «تاريخ كجرات» و «تذكرة شعراء أردو» وغيرها (انظر: العلامة السيد عبد الحيّ الحسني ،نشر دار الشروق بجدة، ط ١٤٠٣/١هـ).

الأراضي العربية التي قدَّسها الله تحقق خلاص البشرية، وتمَّ سعد الإنسانية كلها، مقترنًا ومرتبطًا ارتباطًا عضويا بسَعْد الأمة العربية، ونَزَلَ الوحي الأول على محمد العربي القرشي الهاشمي، فَوُلِدَ العَالَمُ من جديد، وعاشت الإنسانية من جديد، واكتشف العالمُ كلَّ ما كان قد فقده وجهله من الحقائق الثابتة، والمعاني الكريمة، والأخلاق النبيلة، والغايات الرشيدة، والعلم الصحيح والإرادة الخيِّرة.

لقد كان للعرب ـ بدون ريب ـ دَوْرٌ كبير ـ بفضل الإسلام ـ في اكتشاف طاقاتهم وأعماق نفوسهم، فجاهدوا ونجحوا إلى حدٍّ كبير في الارتفاع إلى مستوى الرسالة السامية التي جاءهم بها القرآن الكريم، وبلَّغها ـ بالقول والفعل ـ محمد رسول الله ﷺ، فحملوها إلى العالم، وقاتلوا الذين أوصدوا الأبواب في وجهها، وقد آمنوا بأنهم مبتعثون (١) ومكلفون ومأمورون من الله بهداية الأمم، وإنقاذ العالم، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام(٢).

هذا الدور العربي الذي يرتبط بعربية القرآن لغةً، وعروبة محمد عليه السلام نسبًا، وقيام العرب بالرسالة خير قيام حتى بلغوا بالرسالة إلى تخوم الصين وأعماق الهند، وإلى جبال البرانس في إسبانيا وما بعدها... يدفع كل مخلص للإسلام إلى حبِّ هؤلاء القوم الذين شرفهم الله واختارهم، فحملوا الرسالة وبلغوا الأمانة... كما يدفعه إلى استنهاض همم هؤلاء العرب ودعوتهم ـ بكل طرق الدعوة ـ إلى ألا يخونوا الرسالة ، ولا يكونوا شرّ خلف لخير سلف، وأن يدركوا أن مجدهم وشرفهم وتمكينهم في الأرض وحبّ المسلمين في العالم لهم... كل ذلك مرتبط بارتباطهم بهذه الرسالة وحملهم لرايتها وذودهم عنها؛ لأنها رسالة لا تقف عند جيل، ولا تنتهي عند حدود مكانيّة، ولا ترتبط بطائفة عربية أو إسلامية دون طائفة ... بل هي مرتبطة بالعرب المسلمين كلهم بالدرجة الأولى، وبالمسلمين غير العرب بالدرجة الثانية.

---

(١) هذا المعني تكرر كثيرًا في فكر الشيخ الندوي، بل نستطيع القول: إن شخصية ربعى بن عامر التي رددت هذه المعاني شخصية بارزة في فكر الشيخ الندوي... انظر على سبيل المثال كتابه : (العرب يكتشفون أنفسهم ص ١١، ص ٢١، وما بينهما، طبع المجمع الإسلامي لكنهؤ ١٩٨٠م) وانظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، والإسلام والحضارة الإنسانية.

(٢) انظر: المراجع السابقة الصفحات نفسها.

ويتصل بـهذا المعنى الديني الإسـلامي الذي لم يفطن له كثـيرون ، أن (ختـم الرسالة) وانقطاع الوحي من السـماء إلـى الأرض منذ وفاة الرسـول ﷺ وكمـال الدين: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] يقتضي أن يكون هناك حملة دائمون لراية السماء التي تركها نبيّ الله ـ خاتم الأديان ـ أمانة في عنق أمته، وهذا من لوازمـه أن تكون هذه الأمة كلها ـ إلى يوم القيامة ـ «أمـة دعوة» فكأنها وهي تؤمر بالاقـتداء بنبيّهـا والتأسي به، تؤمر ـ في الوقت نفـسه ـ بالثبـات على الدعوة لدين الإسلام . . . وارثةً للنبوة!!

لقد أرسل الله نبيه مـحمدًا ﷺ في الجزيرة العربية وبعثه بعثـة نبيّ، ولكن بعثته ـ كما يقـول الشيخ أبو الحسن الندوي ـ كانت بعـثة مقرونة ببـعثة أمة، بخلاف كـثير من بعثات الأنبياء. . .إنها كانت بعثة ثنائية !!

ويقـول الشيخ النـدوي ـ أيضًا ـ : « إنني في دراسة مـقـارنات الديانات والكتب السماوية لا أجـد هذا الوصف الدقيق الشامل، وهذا الخط الفاصل بين أمـة وأمة، أمة قلدت مسئولية ليس فوقها مسئولية إلا مسئولية النبوة فقط، فكانت بعثة النبي محمد ﷺ بعثة مقـرونة مشفوعة مرتبطة ببـعثة أمة، هذا هو الشيء الذي أثر في مصـير الإنسانية، وكـانت تجـربة جـديدة في تاريخ الـديانات، وفي تاريخ مـصـائـر الأمم وفي تاريخ الاتجاهات»(١).

إننا نفهم معنى ابتـعاث الأمة كلها ، عربية أولاً، وإسلامـية ثانيًا. . من قوله عليه الصلاة والسلام لبـعض الصحابة: «إنما بعثـتم ميسِّرين، ولـم تُبعثـوا معسِّرين» . . . ولم يقل لهم الرسول : (إنما بعثتُ) ، قـاصرًا الضمير على نفسه. . . كـما تأخذه كذلك من قولة ربعى بن عامـر لرستم قائد الفرس : لقد ابتـعثنا الله، بهذه النسبة الكريمة الجـامعة للانبعـاث، وبهذا الضميـر الجماعي الإسلامي !! هذا بالإضـافة إلى الآيات الكريمة التي يؤخذ منها معنى التكليف الجماعي للأمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وأيضًا ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[البـقرة : ١٤٣] فالأمة الإسلامية كلها، والعرب قادتها بالإسـلام، مبتعثة إلى يوم القيامة بدين الإسلام، دين كل الأنبـياء، بعـد انقطاع الوحي وختم النبـوة. . . لأنه ليس من المعقـول ولا من العدل أن يترك الله البـشرية بلا وحي سماوي صحيح يضع لهـا الموازين القسط، ويقدر

(١) أبو الحسن علي الندوي ،الإسلام والحضارة الإنسانية ، ص ٢٠، دار القلم ، الكويت.

الله حق قدره. ويرسم طرائق عبادته، وطرائق معاملة الناس لبعضهم وفق ما يرضيه سبحانه وتعالى!!

وفي هذا المعنى يقول سماحة الشيخ الندوي كبير علماء الهند: « كانت بعثة هذه الأمة، الفريدة في إيمانها، الفريدة في ثقتها ، الفريدة في سيرتها وخلقها، الفريدة في رحمتها للإنسانية، الفريدة في بساطتها وجديّتها، الفريدة في اتصالها بالأسرة الإنسانية وبتأملها لواقع الإنسانية الذي كانت تعيشه في كل بقعة من بقاع الأرض، كانت تجربة جديدة، كانت هذه البعثة الجماعية، البعثة التي انخرط في سلكها العرب كلهم، فأصبحوا رواداً، وأصبحوا حملة رسالة، وأصبحوا حملة المشعل، فأحدث هذا تحولاً في التاريخ» (١).

* * *

(إنّ هذا المعنى العظيم . . . معنى انبعاث الأمة العربية أولاً، والإسلامية ثانيًا (انبعاث بدون عصمة) ، بينما هو معنى ديني إسلامي، هو كذلك معنى حضاري. . . . فالإسلام دين وحضارة في نسيج واحد)، وهذه الوظيفة السامية التي يربط الشيخ الندوي العرب بها تعدّ أكبر بواعثه للاهتمام بقضاياهم، فكأنه ـ وهو يتابع قضاياهم من منظوره الإسلامي ـ يدفعهم بكل ما يستطيع لكي يعرفوا حقيقتهم ويكتشفوا ذاتهم ، ويستأنفوا دورهم، ويقودوا المسلمين المبعثرين في الأرض ، أقليات وأكثريات للعودة الرشيدة الفاعلة إلى الإسلام؛ إنقاذًا لأنفسهم من واقعهم الأسيف، وإنقاذًا للبشرية التي خسرت الكثير جدا بسبب انحطاط المسلمين ، هذا الانحطاط الذي كان النتيجة المباشرة لترك العرب لموقعهم القيادي، وانشغالهم بالترف والصراع القبلي والجنسيّ على السلطان، ولولا استبدال الله بالعرب المارقين أقوامًا آخرين مثل الأكراد أبطال حطين، والمماليك أبطال عين جالوت، لكان مصير الحضارة الإسلامية الزوال!! إنه فراغ هائل ذلك الذي تركه العرب، وتركه بالتالي المسلمون ، حين تركوا ـ كأمة ـ رسالتهم الجماعية الإسلامية التي كلفهم الله بها. . . وتخبطوا في عالم الأفكار يلتقطون أيديولوجيات من الشرق أو الغرب. . . لقد سقطوا ـ بل انحطوا ـ كأمة كان من الواجب أن يتخذها الناس مثالاً وقدوة للأمم. . . . الأمم التي لا يمكن أن تتحول عن طريق النماذج الفردية؛ لأن الأمم لا تَحْسِبُ للأفراد المبعثرين حسابًا، خصوصًا وأن بعض الصالحين يوجدون في كل

---

(١) أبو الحسن الندوي : الإسلام والحضارة الإنسانية ص ٢٢.

أمة وكل دين.

« وإنما تتطلع الشعوب إلى شعب مثالي، إلى شعب قائد، قائد الإنسانية، شعب يمتاز عن الشعوب الأخرى في متانة العقيدة وقوتها، وفي روح الإيثار والتضحية، وفي البساطة في المعيشة وفي التسامي على الشهوات والأنانيات، لا يستهويهم الشيء الذي يستهوي هذه الشعوب رغم سيادتها وقيادتها، ورغم تقدمها في الثقافات وفي الفلسفات وفي العلوم» (١).

* * *

« إن جريمة العرب في حق الإسلام - حين يتخلون عن رسالته - جريمة جماعية؛ ذلك لأن بعثتهم بعثة جماعية، هكذا كانوا منذ نزل القرآن يطلب منهم أن يحافظوا على شروط (خير أمة) . . . وحتى اليوم فما زال العرب، ومن خلفهم المسلمون، مدعوين للعودة إلى رسالتهم العامة وابتعاثهم الجماعي لملء الفراغ العالمي الكبير ».

وبتحديد دقيق، وانطلاقًا من حبه الكبير للعرب، ومن وعيه بحقيقة مكانتهم يتوجه الشيخ الندوي بخطابه إلى العرب مشيرًا إلى الفراغ العالمي ودور العرب في ملئه قائلاً في محاضرة ألقاها في جامعة الإمارات العربية:

« إن هذا هو الفراغ الوحيد الموجود الآن في خارطة العالم الإنساني، ولا يملأ هذا الفراغ إلا المسلم، ولا تملأ هذا الفراغ إلا الأمة العربية الإسلامية. . . لقد كانت رائدة للإنسانية في القرن السابع وما بعده من القرون، ولا تزال رائدة للرسالة الإسلامية الإنسانية في هذا القرن، لو عَرَفَتْ قيمتها، ولو عرفت منابع قوتها، ولو عرفت ضخامة رسالتها، ولو عرفت عظم مسئوليتها، فمتى تنهض الأمة العربية الإسلامية وتحمل الرسالة من جديد والنور الوحيد وهو نور الإسلام، وهو النور الذي لا يزال عند العرب في صفحات القرآن وفي صفحات السيرة النبوية، وإننا أبناء القارة الهندية، ننظر إلى هذه الجزيرة كأمة رائدة وكحاملة لهذه الرسالة» (٢).

وبالإضافة إلى هذا الباعث الإسلامي الحضاري ثمة باعث نفسي وعضوي آخر يدفع الشيخ الندوي للاهتمام الدءوب بالقضايا العربية.

---

(١) أبو الحسن الندوي: الإسلام والحضارة الإنسانية ص ٢٣، دار القلم.

(٢) المكان السابق ص ٢٧.

فالشيخ أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بعبد الحي بن السيد فخر الدين الحسني ينحدر من سلسلة النسب الكريم الذي ينتهي إلى أمير المؤمنين الراشدي الرابع، عن طريق السيد محمد الثاني بن أبي محمد عبد الله الأشقر بن السيد محمد ـ صاحب النفس الزكية ـ بن عبد الله المحض بن الحسن المثني بن الإمام الحسن ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1].

وفي محيط مثل المحيط الهندي بطوائفه الهندوسية واللادينية، وتموجاته العرقية والفكرية ، يقف (الوعي بالذات) و (الحفاظ على الهوية الروحية والحضارية) دافعًا قويا للتمسك بالجذور ، فكيف إذا كانت الجذور سامية تحمل معها رسالة حضارية شامخة، وليست مجرد نزعة عنصرية أو عرقية يراد من التشبث بها تحقيق استعلاء عنصري أو مكانة اجتماعية أو امتيازات طبقيَّة أو جنسية؟!

إن الانتماء الشريف إلى آل البيت لم يكن هذا قط في وعي الأسرة الحسنية الندوية، بل كان نسيجًا آخر مختلفًا كل الاختلاف.

لقد كان هذا النسب الكريم الذي يملأ الشعورُ به كيان أفراد الأسرة سبيلاً للحفاظ على الخصائص العربية والإسلامية وانتقالها من بطن إلى بطن عبر القرون.

وقد كان أفراد الأسرة يشعرون بأنهم ـ كما يذكر الدكتور السيد قدرة الله الحسيني[2] ـ حماة للعقيدة الإسلامية الصحيحة من التوحيد الخالص ونبذ العقائد الشركية وما أكثرها في محيط المجتمع الهندي.

وكانوا يشعرون بأن عليهم أن يعتنوا عناية زائدة بالعلوم الدينية دراسة وتعليمًا ونشرًا.

وبأنهم يجب أن يكونوا السباقين في مجال الغيرة على الإسلام والحماسة في الدفاع عنه، والقيام بتحركات عسكرية وحركات جهادية إذا اقتضى الأمر ذلك.

وكانوا يجاهدون في سبيل أن يكون في الأسرة علماء ربانيون متَّبعون لكتابه وسنة

---

(١) ورد نسبه كاملاً في سيرة السيد أحمد الشهيد عرفان الدين، بتأليف الشيخ أبي الحسن الندوي نفسه، منقولاً من كتب الأنساب والوثائق التاريخية المحفوظة في مكتبات الأسرة الحسنية، كما ورد في كتاب: الدكتور السيد قدرة الله الحسيني عن : (العلامة السيد عبد الحي الحسني ص٧٤، ٧٥ ، نشر دار الشروق بجدة ، ط ١٤٠٣/١هـ) .

(٢) انظر : العلامة السيد عبد الحي الحسني ص ٧٦.

رسوله وسيرة السلف الصالح من هذه الأمة ، فلم تَخْلُ فترة من فترات هذه الأسرة من وجود علماء ربانيين وشيوخ مربين .

وكان من خصائص الأسرة - أيضًا - الابتعاد عن مناصب الحكومة والوظائف الرسمية ما أمكن، والقناعة بالميسور.

ومنها البعد عن استخدام الذكاء في تحقيق المآرب الدنيوية، فيغلب على أفراد هذه الأسرة - في غالب الأحوال - الوداعة ، وما عبّر عنه لسان النبوة (الغرّ الكريم) فهم يصلحون ليكونوا مظلومين أكثر مما يصلحون ليكونوا ظالمين.

وهكذا أصبح هذا الشعور العرقيّ شعورًا بناءً إيجابيا مسئولاً ، بل طريقا لمزيد من المزج بين الإسلام والعرب في مركب واحد، وأصبح شعورًا مرتبطًا بالمسئولية تجاه الإسلام والعروبة المؤمنة، وبالتالي فقد تجرّد من كل أوزار السلبيات العرقية العنصرية، بل إنه - في تصوري - قد حلّ لنا - **من خلال تجربة نموذجية تعيش في بلاد الهند - معادلة العلاقة بين العرب والإسلام** ، وما يجب أن يكون عليه الفكر القومي العربي الذي يجب أن يمتزج بالإسلام امتزاجًا كاملاً، وأن يدرك أنه بغير هذا الامتزاج يصبح الجنس العربي جسمًا خاملاً ميتًا فاقدًا للروح والعقل ومؤهلات الحياة. . . !!

وبإيجاز ، فإنه بتأثير هذين المؤثرين العظيمين : المؤثر الديني والحضاري، والمؤثر الجنسيّ والنفسيّ، كان الشيخ أبو الحسن الندوي مرتبطًا كل الارتباط بقضايا الأمة العربية، يعيش معها، ويعالجها ، ويخطب فيها، ويكتب من أجلها، أكثر مما يتفاعل معها آلاف من هؤلاء المثقفين الذين ولدوا في بلاد عربية، ويحملون جنسيات عربية، ويعيشون في أرض العروبة.

والأهم من ذلك أنه كان يتفاعل معها برؤية إسلامية نقية، محافظًا على وعي إسلامي وحضاري كبير لم يتحقق لكثير من العرب، وعلى وضوح في التحليل ، وصراحة في قول الحق لم تتوافر لأكثر المتحدثين من العرب، عن قضايا العرب !!

ومنذ برز اسم الشيخ أبي الحسن الندوي في الثلاثينيات من القرن العشرين، وجهوده لم تتوقف أينما حلّ عن الصدْع بالحق ، حتى في عناوين الكتب والمحاضرات التي وجهها للعرب. . . كانت هذه الصراحة واضحة. . . وحسبنا من عناوين هذه الكتب والمحاضرات أن نقدم العناوين التالية:

١ - اسمعي يا مصر.

٢ - اسمعي يا سورية.
٣ - المأساة الأخيرة في العالم العربي.
٤ - اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت).
٥ - اسمعوها مني صريحة أيها العرب.
٦ - الخطر الأكبر على العالم العربي (عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي).
٧ - كيف يستعيد العرب مكانتهم؟

وبالإضافة إلى هذه الصراحة الواضحة في عناوين الكتب، وحتى لا يُظن أن هذه العناوين إنما اختيرت لعوامل تشويقية أو فنيّة إعلامية ، نسوق بعض ما قاله الشيخ الندوي محددًا فيه معالم منهجه هذا دون مواربة، مبينًا أسبابه ومبرراته، مقتطفين بعض ما كتبه عن هذا المنهج في صدر كتابه: (اسمعوها مني صريحة أيها العرب) . . . يقول: «لو كانت أمة على وجه الأرض تستحق منّي أكبر تقدير وأعظم إعجاب وإكبار، لكان العرب من غير نزاع. . . ولو كانت نفسي تدفعني إلى المجاملة مع أمة من الأمم وتزينها لي لكانت أمتي العربية العظيمة.

ولكني أعتبر هذه المجاملة في هذه المناسبة جريمة خلقية، وأعتبرها خيانة عظيمة في حق هذه الأمة، التي أدين لها في الدين والأخلاق والإنسانية والشرف، ويدين لها العالم والإنسانية في حياتها الجديدة وفي عقيدتها وخلقها، وليست أمة أحق بالأمانة وأحق بالصراحة وأحق بالنصح من هذه الأمة.

إن عقيدتي وديني الذي أومن به وأدين، يفرض عليّ أن أكون صادقًا وصريحًا، وصلتي بهذه الأمة - الدينية والنسبية والثقافية - تلزمني بالصدق والصراحة والوفاء والأمانة، ثم اقتناعي بأن العرب هم الأمة المختارة لحمل رسالة الإسلام قد كتب لهم الوصاية على العالم ما داموا يدينون بهذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، وعلمي بأن هذه الوصاية لم تُحوّل عنهم بعد، ولم تبرز أمة على منصة العالم تَخْلُفُ هذه الأمة وتضطلعُ بالإمامة.

والذي يطمعني في هذه الكلمة ويغريني بها هو حبّي وحرصي على أن يستعيد العرب مكانتهم العالمية، ويتسلموا هذه القيادة المباركة التي يقول الله عن حَمَلَتِهَا:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وأن يتحولوا عن المعسكر الذي يقول الله عن قادته وزعمائه: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ [القصص : ٤١] ،بل يثوروا عليه ويعارضوه ويحاربوه وينادوا بأعلى صوتهم : ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤] ، نادى بها جدّهم إبراهيم في عصره، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون» (١).

فبهذا المنهج الكريم، ومن أجل الغاية السامية المنوطة بالعرب منذ جاء الإسلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومن خلال عدد كبير من الكتب والرسائل والمحاضرات، وانطلاقًا من عقيدة إيمانية، ورؤية حضارية، وانتماء جنسيٍّ ونفسيّ. . من خلال هذا كله. . . عالج الشيخ أبو الحسن الندوي قضايا الأمة العربية معالجة الطبيب الحكيم والوالد الرحيم والمربّي الصادق العليم.

الشيخ الندوي وعودة العرب لقيادة سفينة الإنسانية:

احتل اهتمام الشيخ أبي الحسن الندوي بشخصية النبي محمد ﷺ وبالجيل العظيم الذي صنعه الرسول ﷺ من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وجلّهم من العرب مساحة كبيرة من فكره!!

ومن خلال الطرق الفنية غير المباشرة أحيانًا، وبوسائل صريحة مباشرة في أحيان أخرى كان الشيخ أبو الحسن ، يشير إلى أنه لا يكتب التاريخ مجردًا، ولا يكتبه لكي يقدم دراسة تاريخية جامدة، كما أنه لا يكتب عن سيرة الرسول ﷺ لمجرد البواعث العلمية والتاريخية ، وكذلك هو لا يقدم تاريخ الصحابة لغاية ثقافية ومعرفية. . . بل إنه إنما يكتب في ذلك كله لغايات تربوية وتعليمية، ولكي يستوعب العرب القيمة الحقيقية للإسلام، ويربطوا بالتالي ماضيهم الإسلامي العظيم بحاضرهم ، ولتعود إليهم ذاكرتهم الفاعلة ووعيهم الحضاري ـ وليدركوا إمكانات الإقلاع الحضاري وقواعد الانطلاق الصحيح.

« إن على هؤلاء العرب أن يدركوا أنهم بدون محمد ـ عليه الصلاة والسلام، والقرآن الكريم، ما كان بإمكانهم أن يصنعوا هذا التحول الخطير في التاريخ !!».

---

(١) أبو الحسن الندوي : اسمعوها مني صريحة أيها العرب، ص ٣ ـ ٥، ٧.

وفي كثير من المواضع كان الشيخ الندوي ينقل للعرب كلمات جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي، وغيرها من تلك الكلمات التي تصف وضع العرب قبل الإسلام، وذلك لكي يدرك العرب عظم التحول الذي أحدثه الإسلام فيهم.

«ولئن كان بعض المثقفين والمفكرين العرب من أصحاب الثقافة الضحلة أو الوافدة أو المغلوطة، مازالوا يتحدثون عن علاقة العرب بالإسلام بطريقة مشوهة، غير مدركين للتحولات الكبرى التي صنعها الإسلام في تاريخ الحضارات... فضلاً عن مسيرتهم هم أنفسهم».

* * *

ـ فإن الشيخ أبا الحسن كان على العكس من ذلك.

ـ لقد كان مدركًا تمام الإدراك للأثر العظيم الذي أحدثه الإسلام في حياة العرب، ولعظمة ما أعطاه العرب والمسلمون الأول ـ بالإسلام ـ للتاريخ البشري.

ـ وفي مواضع كثيرة من كتبه ورسائله يُفَصِّل الشيخ الندوي ما أعطاه الرسول ﷺ ـ كمثل أعلى للتاريخ والإنسانية والحياة ـ من حلول للألغاز الكبرى، ومن إبراز لقيم الخير المطلقة ، وإحياء للحقائق العليا والموازين القويمة التي تاهت عنها البشرية.

« لقد كانت أول مآثره ﷺ أنه أغمد ذلك السيف المصلت على رقبة الجيل البشري التي كانت كل لحظة تنذر بفنائه وانقراضه، ووهبه الرسول ﷺ هدايا غالية وتحفًا ثمينة أعادت إليه حياة جديدة، وشحنته بهمة عالية وقوة فتية وعزة كريمة، ومنحته هدفًا عاليًا جديدًا لرحلته الشاقة الطويلة ، وبدأ بعهده الميمون السعيد دورٌ جديد للإنسانية والحضارة والمدنية والعلوم والفنون والإخلاص والروحانية وبناء الإنسان من جديد.

إنه قدَّمَ للمجتمع البشري ثورة عظيمة تعتمد عليها الإنسانية لخيرها ورشدها وبركتها وتستفيد منها المدنية لازدهارها ورقيها» (١).

ـ وفي شمول وإيجاز رائعين يلخص الشيخ الندوي (القيم العليا) و (المبادئ المطلقة) التي أعطاها الإسلام للتاريخ والحضارة البشرية والتطور الإنساني، ونشرها العرب الأسلاف ـ بفكرهم وسلوكهم وجهادهم بين الناس ـ في مبادئ عشرة، يصحّ أن

---

(١) أبو الحسن الندوي : محمد الرسول الأعظم وصاحب المنة الكبرى على العالم ص ١٧ ، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، دار الصحوة للنشر والتوزيع.

تُسمى (الإعلان الإسلامي العالمي للرقي البشري والوحدة الإنسانية) . . . وهذه القيم والمبادئ المطلقة هي :

١ - عقيدة التوحيد النقية.

٢ - مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية.

٣ - إعلان كرامة الإنسان وسموه.

٤ - رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها.

٥ - محاربة اليأس والتشاؤم وبعث الأمل والرجاء والثقة.

٦ - الجمع بين الدين والدنيا.

٧ - إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم.

٨ - استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية، والحثّ على النظر في الأنفس والآفاق.

٩ - حمل الأمة الإسلامية ـ والعرب طليعتها ـ على قبول مسئولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق والاتجاهات.

١٠- الوحدة العقائدية الحضارية العالمية (١)، (في إطار الإيمان بالتنوع والحوار المنهجي بين الأفكار ، وضمان حرية العقيدة).

ـ ويرى الشيخ الندوي أن التقاء البشرية ممثلة في صفوتها المفكرة وعقولها المبدعة على هذه المبادئ العشرة ضرورة لاستمرار الحضارة الإنسانية في مستواها الإنساني ، وضرورة لحفظ الحضارة الإنسانية، ولتهذيب عوامل الصراع بين فروع الجنس البشري ولتحقيق نوع من التفاعل البناء بينها.

يقول الشيخ :« إن قوام هذا العالم المتحضر وبقاءه، وقيمة الحضارة والتاريخ والأخلاق والأدب والشعر والفن، ليست إلا في الاعتراف بالحقائق الثابتة، والتسليم للواقع، وإظهاره والتعبير عنه، وتقدير الفضل والكمال والإشادة بهما، وشكر المحسنين وأصحاب الفضل والعطاء والاعتراف بمنتهم. . . وحين يتجرد هذا العالم من الآداب والأخلاق فلا لذة في العيش في هذا العالم ولا كرامة، وتتحول الدنيا إلى حظيرة للوحوش والأنعام السائمة؛ حيث لا يبقى من الدوافع والقوى المحركة إلا شهوة ملء البطون وقضاء المآرب الجنسية والأهواء والنزعات الحيوانية، ولا تبقى أية صلة بين الأستاذ والتلميذ، والمعطي والآخذ، والمريض والطبيب، حتي بين الأبناء والآباء

---

(١) محمد الرسول الأعظم وصاحب المنة الكبرى على العالم ص ١٩ ، ٢٠.

والأمهات، ولا يبقى أيّ شعور بالفارق بين النَّاهب والحارس، والخائن و الأمين» (١) .

* * *

« هذا النبي الكريم والأسوة العليا والنموذج الأسمى للبشرية. . . وهذا الجيل العربي العظيم الذي فتح الدنيا بالإسلام ، وحوّل مجرى التاريخ البشري، وأدار قيادة السفينة الإنسانية إلى الشاطئ الرباني الإنساني اللائق بإنسانية الإنسان. . . وهذه المبادئ والقيم الإنسانية المطلقة التي تحقق للبشرية الصعود الدائم، وحلّ لها ألغاز التقدم والسِّلْم العالمي» .

وهذه التجربة التاريخية التي تجمَّع فيها كل ذلك، ورآها الناس وسجَّلها التاريخ، وشهد لها الأعداء المنصفون. . . وكتب فيها الشيخ الندوي - كذلك ـ صفحات كثيرة، يبرز فيها التلاحم بين التزام العرب بالإسلام ، وإبداعهم في المجالات العسكرية والسياسية والأخلاقية والمعرفية، بكل ما تحويه كلمة المعرفة من فروع علمية، دينية ودنيوية.

فلقد كان إبداعهم في المجال العلمي ثمرة فقههم بالإسلام وسيرهم في الأرض بتوجيه القرآن الذي يأمر باكتشاف الأنفس والآفاق.

وهكذا فعندما يتحدث الشيخ الندوي عن أمجاد العرب العلمية إنما يتحدث عنها كنفحة من نفحات النبوة المحمدية والنبي الأمي، وذلك لتذكير العرب بهذا المجد حتى يعرفوا معالم الطريق المحدّد لهم للإقلاع الحضاري، فلا طريق لهم إلا طريق محمد والإسلام، فإن الحماس العلمي العربي، إنما انبثق من النبوة المحمدية ومن تعاليمها، وبتوجيه الإسلام انطلقت حركة علمية عالمية خالدة، مساحتها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية، ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية، ومساحتها المعنوية أوسع من كلتا المساحتين.

يقول الباحث الغربي والمؤرخ الفرنسي الدكتور «غوستاف لوبون» ، في كتابه المشهور (حضارة العرب): «والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث، وإذا كانت هنالك أمم تساوت هي والعرب في ذلك، فإنك لا تجد أمة فاقت

---

(١) محمد الرسول الأعظم وصاحب المنة الكبرى على العالم ص ٢٠، ٢١ ، وانظر : الإسلام والحضارة الإنسانية ص ٦٨، ٦٩.

العرب، فالعرب كانوا إذا مـا استولوا على مدينة صرفوا هممهم إلى إنشاء مـسجد وإقامة مدرسة فيها، وإذا مـا كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مـدارس كثيرة، ومنها المدارس العشـرون التي روى «بنيامين التطيلي» المتوفي (١١٧٣م) أنـه شاهدها في الإسكندرية ـ وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة... إلخ على جامعات مشتملة على مختـبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل مـا يساعد على البحث العلمي... وكان للعرب في إسبانيـا وحدها سبعون مكتبة عامة... وكـان في مكتبة الخليفة الحكم المستنـصر (ت ٣٦٦هـ) بقرطبـة ستـمائة ألف كـتاب، منهـا أربعة وأربعون مـجلداً من الفهـارس، كمـا روى مؤرخـو العرب، وقد قـيل بسبب ذلك: إن شـارل الحكم ، لـم يستطع بعد أربعمائة سنة أن يجمع في مكتبة فـرنسا الملكية أكثر من تسعمائة مجلد، يكاد ثلثها يكون خاصًا بعلم اللاهوت»(١).

ـ إن هذه التـجربة النـبوية الكريمة وهذا الجـيل الذي رباه مـحمـد ﷺ وفـتح به العالم... وهذه المبادئ والـقيم المطلقة التي جاء بها الإسـلام وكلف العرب بأن يكونوا طليعة إبلاغها... هذا كله يُلزم العرب المعاصرين ـ أمام الله ثم أمام التاريخ والإنسانية ـ أن يتقدموا لاستئناف حمل راية الحضارة الإنسـانية، فهم مصطفون إلى يوم القيامة لهذه الغاية ، ولا سـبيل إلى سعادتهم أو رفـعتهم بغـيرهذا الطريق، ومهمـا جرّبوا من طرق أخرى فلن يتحـقق لهم شيء إلا إذا مزجوا الإسلام بعقـولهم وقلوبهم، وجعلوه الروح والدم والقلب لكل حركاتهم وأجسادهم !!

ولئن كانت أجناس أخري قد سيطرت على العالم عن طريق الغزو والغلب، أو عن طريق العبقرية العقلية ، فإن العرب ما دخلوا التاريخ إلا عن طريق الإسلام وحده، فلم يغرس الله حـبهم في النفوس والقلوب، ولـم تنتـشر لغتهم هذا الانـتشار الواسع، ولـم يكتب لهـا الخلود والبقاء، ولـم تدون بها العلوم الكثـيرة.... لم يتحـقق كل ذلك إلا بفضل القرآن والشريعة الإسلامية.

وليس أمـام العـرب، كي يدخلوا التـاريخ، ويقـودوا سفـينة الإنسـانيـة إلا طريق الإسـلام، «الرسالة والـهداية والرحـمـة للإنسانيـة ، والخـدمة المخـلصة المجـردة من

---

(١) حضارة العرب ص ٤٣٤ ، تأليـف غوستاف لوبون ـ ترجمة الأستـاذ/ عادل زعيتر، مطبعـة عيسى البابي الحلبي وشركاه في مـصر، نقلاً عن أبي الحسن الندوي: جوانب السـيرة المضيئة في المدائح النبوية الفـارسية والأردية ص ١٣ ، الطبعـة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، دار الصحـوة للنشر والتوزيـع ، القاهرة، (وهناك رواية تاريخية بأن مكتبة الحكم المستنصر كان فيها أربعمائة مجلد ... المؤلف).

الأغراض. وكما كان أمرهم مع الحضارة والتاريخ في الماضي ، فإنهم ـ كذلك ـ لن يدخلوا التاريخ مرة أخري إلا من هذا المدخل الذي دخلوا منه أول مرة»(١).

* * *

موقف العرب من المدنيّة الأوربية (المادية) في فكر الشيخ الندوي:

كان موقف العرب خلال القرنين الأخيرين من الحضارة الأوربية بشقيها المادي والشيوعي والمادي العلماني مناط اهتمام الشيخ أبي الحسن، فكرًا، وحديثا وجهادًا، ودعوة .

وكان يؤلمه أن هؤلاء العرب الذين حكمت قيمهم وعلومهم الدنيا عشرة قرون ينسحقون هذا الانسحاق الشنيع، ويركعون هذا الركوع الذليل المخجل ـ حكامًا ومثقفين ـ أمام هذه المدنية الأوربية التي يسميها الشيخ (بالمسيح الدجال) غير مستوعبين لحقيقة القيم التي يملكونها والرسالة العالمية الربانية التي نيطت بهم وغير مستفيدين من إحدى التجارب التي تجاورهم ويشاهدونها، وتعتبر ـ على الرغم من باطلها وسلبياتها ـ من أقوى أدلة الصمود العقائدي وهي تجربة اليهود الذين أقاموا دولة يهودية صريحة الانتماء، وناضلوا آلاف السنين دفاعًا عن هذه العقيدة الباطلة وحكموا كل طاقات العصر لخدمة عقيدتهم وشعبهم.

فكيف يسقط العرب هكذا لمجرد هذا الخلل الطارئ في مسيرتهم التاريخية؟ وكيف يقبلون ، بل يكرمون أحيانًا من يدعونهم لخيانة الإسلام كله والرضا بالذوبان في الحضارة الؤربية معتقدًا وفكرًا وسلوكًا وأخلاقًا؟!!.

ـ لقد أحزن هذا السقوط الشيخ الندوي كل الحزن لكنه لم ييأس ولم يستسلم، بل جرد فكره وقلمه وقدم دراسات كثيرة يفضح فيها هذه الحضارة المادية الأوربية، ويقارن بينها وبين الحضارة الإسلامية، ويتتبع نواحي السقوط في الحياة العربية وأبطال هذا السقوط من حكام ومفكرين شيوعيين وعلمانيين وماديين وقوميين ومسيحيين.

وهو في كل ذلك يقدم الأدلة الناصعة والحجة المستفادة من ماضي المسلمين ومن حاضر الأوروبيين ومن نتائج الذوبان والتبعية في المجالات السياسية والعسكرية

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي : كيف دخل العرب التاريخ ؟ ص ١٥، ٢٦ ، نشر المجمع الإسلامي العلمي لكنهؤ ، ١٩٨٠م.

والحضـارية. . . وهي نتـائج مُرّة، وهو حصـاد أليم. . . أضاع على العـرب والمسلمين ثروات هائلة وسنوات طويلـة وجلب إليهم هزائم مـخـزية وجعل بأسـهم بينهم شـديدًا ينحصـر في إخوانهم الذيـن يحكمونهم أو مع إخـوانهم الذين يجاورونهم فـيمـا يسمى بالخلافات على الحدود والسيادة الوطنية!!

وكان كتـاب الشيخ الندوي :(الصراع بين الفكرة الإسلاميـة والفكرة الغربية) من أشمل وأعمق ما قدمه الفكر الإسلامي في فضح الفكرة الغربية وفي تتبع نواحي سقوط العرب ـ حكامًا ومثقفين ـ في حبالها.

ـ ومع أن الكتاب لم يكن محصورًا في الدائرة العربية بل كان شاملاً لآفاق الصراع على امـتداد العـالم الإسـلامي إلا أن العالم العـربي الذي لا يزيد سكانه على سـدس المسلمين قد أخذ حيزًا من الكتاب يزيد ـ في مسـاحته ـ عن نصف الكتاب إذا ما استثنينا المساحة التي تتحدث عن قضايا فكرية وتغريبـية عامة سواء في مجال تشخيص المرض أم في مجال تأصيل علاجه من منظور إسلامي حضاري.

ـ وهذه المساحـة ـ في حدّ ذاتها ـ دليل قوي على مـا يوليه الشيخ الندوي لقـضايا العالم العـربي في فكره، وحسبنا أن رصـده للصراع في شبه الـقارة الهندية ـ بمفهومـها الشامل ـ لا يزيد على ثلث ما كتب عن العرب، مع أن عدد المسلمين الهنود يبلغ ضعف عدد الـعرب، ومع أن الشـيخ الندوي يعيش في الهـند ويعاني مـشكلاتها ويجـاهد في أرضها هو وأسرته من قرون متطاولة بعـد هجرة الأسرة من البلاد العربية. لكنه الإدراك العميق من الشيخ بأهمية الدور القيادي للـعرب وبمبدأ تأثيرهم العالمي إذا عادوا للتمسك بالإسلام حكامًا ومحكومين!!

ـ كانت مصر في طليعة البلاد العربية التي رصد الشيخ الندوي الصراع بين الإسلام والتغريب فيها.

وقد تتبع الشيخ رحلة التـغريب في مصر منذ محمد عـلي باشا ورفاعة الطهطاوي والخديوي إسماعيل وحفر قناة السويس التي وصلت الشرق بالغرب لصالح الغرب!!

ولم يفت الشيخ أن يلمع هنا إلماعـة رائعة تدل على إدراكه العـميق لمسئوليـة مصر ومكانتها حين دعـا مصر إلى أن تحفر قناة جديدة: « أفـضل من قناة السويس ألف مرة، وأَعْودَ منها على الشعوب الإنسـانية بالخير والسعادة، وأعمق منهـا تأثيرًا في اتجاه العالم ومصير الشـعوب والأمم، وُأوسع تأثيرًا في التاريخ الإنساني هي قناة التـعارف الصحيح

المتبادل المتوازن بين الشرق والغرب قناة تصل الشرق المتخلف في العلوم الطبيعية والصناعات المفيدة بالغرب الذي قد بلغ الذروة فيها، وتصل الغرب الحائر المتخم بقوته المادية والمفلس في الروح والأخلاق واليائس المتشائم، السالك في سبيل الانتحار بمنابع الرضا والهدوء والأمن العاطفي والثقة المبتادلة والأمل القوي في مستقبل الإنسان الكامنة في رسالات الشرق الدينية والروحية التي يمثلها الإسلام في شكلها الكامل النهائي وتصل وسائل الغرب الهائلة الجبارة المكدسة التي لا تعرف غاية بغايات الشرق النبيلة الكريمة الرحيمة، التي لا تملك وسيلة تصل الغرب الذي يستطيع ولا يريد بالشرق الذي يريد ولا يستطيع فيفيض كل واحد منهما على الآخر أفضل ما عنده، ويتعاونان ـ تعاون الشقيقين ـ في إسعاد البشرية وتهذيب المدنية هذه القناة الثقافية العقلية التي تعتبر ـ لو تحققت وظهرت إلى الوجود كانت فتحًا جديدًا في العالم ومأثرة تاريخية تشغل أعظم مكان مشرف في التاريخ الحديث وتكسب لمصر الزعامة الخالدة وأشرف مركز تطمح إليه القلوب والأبصار».

لكن مصر ـ كماهو معروف في التاريخ وكما رصد الشيخ الندوي ـ تميزت بموقف ضعيف تقليدي على الرغم من محاولات جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وحسن البنا، فقد استطاع تلامذة أوربا المتخرجون في مدارسها في أوربا أو في مصر أن يعكروا صفو الوصول إلى صيغة حضارية صحيحة للنهضة وأججوا الصراع مع الأزهر ومع دعاة الحل الحضاري الصحيح،الذي يقوم على (التحديث) في ظل الإسلام ـ كما فعل اليهود واليابانيون وغيرهم ـ بدلا من (التغريب) القائم على الذوبان والتبعية والإلحاد والانحلال.

ـ وكان«قاسم أمين»(١) و «طه حسين»(٢) من طلائع الانهزامية والتبعية والجرأة على الإسلام بدعوى التقدم والحرية الفكرية، كما كان لثورة يوليو ١٩٥٢م(٣) دور كبير في فرض المفهوم المادي الشيوعي والتغريبي ومحاربة الإسلام بصفة عامة، تحت مسميات مختلفة !!

ـ وكانت نكبة ١٩٦٧م نهاية طبيعية ومأساوية لنظام عسكري دكتاتوري مادي

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٠٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١١١.

مقطوع الوشائج بالإسلام، محارب له في كل مجال، وقد دفع الشعب كله ثمن استسلامه لهذا النظام وأيديولوجيته والمنتفعين به !!

* * *

وفي سوريا والعراق تتبع الشيخُ الندوي المدَّ التغريبي العلماني المادي الذي سيطر على الدولتين اللتين كانتا حواضر لأعظم وأكبر خلافتين إسلاميتينْ بعد الراشدين !!

ومن المعروف أن هاتين الدولتين قد ابتليتا بحكم حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يعدّ « ميشيل عفلق» الصليبي ـ الذي مدحه الفاتيكان بأنه قدم للنصرانية من الخدمات مالم تقدمه الحملات الصليبية ـ هو الفيلسوف المنظّر والمسيطر على الفكر والحركة في الدولتين اللتين يحكمهما حزب البعث !!

ـ وقد عرض الشيخ لمبادئ حزب البعث من خلال مصادره الأساس وعلى رأسها كتاب عفلق (في سبيل البعث) (١)،وفيها يتضح الكفر الصراح والتنكر الواضح للإسلام، وسيطرة المفهوم القومي اللاديني الخادع الذي يهدهد العواطف القومية العنصرية.

وكما كانت حرب ١٩٦٧م نكبة على مصر، فقد كانت كذلك نكبة على سوريا ، من جراء هذا العداء الواضح للإسلام، وهذا التنكر لقيمه وشريعته، والخضوع الكامل لدكتاتورية حزب البعث ولمبادئه الإلحادية التي تؤله الحاكم، وتدعو إلى الكفر بالله، وتعرض على الشعب المنكوب أسوأ صور الحكم الدكتاتوري الإلحادي، وأحلك الأيام التي مرّ بها في تاريخه !!

* * *

ـ وقد رزئت (تونس) بالرئيس «الحبيب بورقيبة» الذي حكمها بعد استقلالها سنة ١٩٥٧م لنحو ربع قرن، وكان من أكثر الحكام صراحة في التجرؤ على القرآن الذي لم يقرأه، وفي الانتقاص من الإسلام الذي لم يعرفه، والذي لم يكلف نفسه مشقة التعرف عليه، بينما كان يستجيب لأقوال المنصِّرين والمستشرقين وتلامذة الكنيسة الفرنسية، كما يستجيب التلميذ لأستاذه والابن لأبيه، دون إعمال فكر.

---

(١) انظر :الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، صفحات ١١١، ١٢٤، ١٢٦، وغيرها.

ـ وقد اتضح من تصرفات بورقيبة وبياناته كما يذكر أستاذنا الشيخ الندوي «أن الرئيس بورقيبة (الذي رمى القرآن بالتناقض، والرسول بالبداوة والمسلمين بالوثنية وعبادة محمد ﷺ) كان يعاني من مركب النقص والتبعية الفكرية؛ حيث لم يدرس أي علم من العلوم الإسلامية، في الوقت الذي لم يستطع فيه أن يفهم كلِّيا الاعتراضات والشكوك التي أثارها الناقدون، وتدل الأفكار التي أعرب عنها الرئيس بورقيبة حول حياة النبي ﷺ ، والعقائد الإسلامية، وطرق العبادة، على أنه لا يختلف مع المبادئ الأساسية للإسلام والشريعة فحسب، بل إنه يريد أيضًا أن يقود مسلمي تونس إلى نفس الجهة ويثير شكوكًا وريبًا في قلوبهم» (١).

ولئن كان الرئيس بورقيبة قد تخصّص لربع قرن في الهجوم على القرآن، فإن العقيد معمّر القذافي الذي قاد انقلابًا عسكريا ضدّ الحركة السنوسية الجهادية الإصلاحية في ليبيا قد تخصّص في الهجوم على السُّنَّة ، مع أنه بدأ حكمه بمحاولة خداع الأمة، عن طريق بعض الإجراءات التي نظر الجميع إليها على أنها لصالح الإسلام والعروبة، لكنها كانت محاولة لتثبيت الأقدام، وخداع الجماهير المسلمة، فلم تكد تمر سنوات قليلة استطاع فيها إحكام دكتاتوريته العسكرية على الشعب الليبي المسكين حتى كشف عن مهمته، وبدأ يقوم ببعض حركات ساذجة لا تدل على اتزان في الفكر، داعيًا الناس إلى قبول الأحاديث النبوية ـ إذا كان لابد من قبولها ـ في دائرة العبادات فقط، أما الأحاديث الأخرى التي تتناول مختلف مجالات الحياة الإنسانية، فلا يمكن ـ عنده ـ تطبيقها على الحياة المعاصرة، وكما يقول أستاذنا الشيخ الندوي : فإن القذافي إنما يريد من ذلك حصر الإسلام في العبادات المحدودة ليقطع صلة الإسلام المستمرة بالحياة على غرار النصرانية.

وقد ذهب الرجل متماديًا في طريقه، فزعم ـ وكأنه مجتهد إسلامي كبير ـ وجود تعارض في الأحاديث النبوية، وكان رائدًا للعلمانيين عندما زعم أن جُلّ أقوال الرسول ﷺ إنما هي وحي لبيئته وعصره، وقد تغيرت الأوضاع والظروف ، فلا سبيل إلى تطبيقها في الأمور الدنيوية في هذا العصر، وهذا هو معنى « أنتم أعلم بأمور دنياكم » عنده، وهو فقه يلتقي مع الفقه الشيوعي الذي يحصر الإسلام في عصر النبوة والراشدين ، ويزعم بعدم صلاحيته لكل زمان ومكان.

---

(١) أبو الحسن الندوي : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٤٧ ، دار القلم، بيروت.

وتغطية لتبديد ثروة شعبه المسكين وفشله في المجالات السياسية، زاد الطين بلة وشغل المسلمين (بالكتاب الأخضر) الذي يدل على خلل في الرؤية، وإنكار التقويم الهجري الإسلامي، و دعوى أن التقويم يجب أن يبدأ بوفاة الرسول؛ لأنه كما يقول ـ أكبر أحداث التاريخ الإسلامي مع أنه ينكر سنّة هذا الرسول ﷺ.

* * *

وهكذا عرض الشيخ الندوي ـ أكرمه الله ـ لهذه التيارات التغريبية التي انتظمت الجزائر والمغرب وغيرهما مبينًا للتخصص الدقيق لكل حاكم مسلم في الإجهاز على الإسلام من زاوية ، ومن ثم قدم الشيخ الندوي نماذج رائعة في الوقوف ضد هذه الغارة التغريبية، كان من أبرزها وأعظمها النموذج الذي قدمه الشاعر العظيم محمد إقبال، الذي كان يقول في الحضارة الغربية: « إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية والفتك بأفراد النوع البشري، وإن شغلها الدائم التجارة، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء وبالحب البريء النزيه والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة» (١).

وهو يناشد الإنسان المسلم أن يلتفت إلى حقيقة النعومة والفتنة في هذه الحضارة الداعرة، فيقول له :« إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق، إن هذه الفتانة تجلب فتنًا وتعيد اللات والعزّى إلى الحرم، إن القلب يعمى بتأثير سحرها، وإن الروح تموت عطشًا في سرابها، إنها تقضي على لوعة القلب، بل تنزع القلب من القالب، إنها لصّ قد تمرّن على اللصوصية فيُغير نهارًا ، وإنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له.

إنها حضارة شابة ـ بحداثة سنها، والحيوية الكامنة فيها ـ ولكنها محتضرة تعاني سكرات الموت، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها» (٢).

وفي غير موضع من كتبه يشخص الشيخ الندوي أسباب نجاح محاولات تغريب المسلمين، ووسائل علاج هذا المرض الخبيث، وينتهي إلى دعوة العرب والمسلمين إلى ما يسميه (بالموقف الثالث) وهو الموقف الذي يأخذ من الحضارة الغربية بعض ما توصل إليه العلم والصناعة، بعيدًا عن الأفكار والقيم والمفاهيم والمثل وصبغ الحياة بطريقة مادية،

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص ٧٨، دار القلم ـ الكويت.

(٢) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة.

وذلك على النحو الذي بسطه المفكر المسلم (اليهودي سابقًا) «محمد أسد» في كتابه: (الطريق إلى مكة)، حيث تتوافر لرؤيته التي ارتضاها الشيخ الندوي ونرتضيها معه، عوامل الرصانة والاتزان والحصانة الفكرية، فضلاً عن أنها تحدد ـ بلباقة فائقة ومقدرة كبيرة ـ الخط العادل المتزن الذي يجب أن يسير عليه العالم العربي الإسلامي في الإفادة من الغرب وتبني الوسائل الحديثة، يقول «محمد أسد»: «إن عالميْ الإسلام والغرب لم يكونا يومًا أقرب أحدهما من الآخر، كما هو اليوم، وهذا القرب هو صراع ظاهر وخفي، ذلك أن أرواح الكثيرين من المسلمين والمسلمات لتتعفّن رويدًا رويدًا، تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية، إنهم يتركون أنفسهم يبتعدون عن اعتقادهم السابق، بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب ألا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الإنسان الروحية، وإنهم يسقطون في وثنية «التقدم» نفسها، التي تردى فيها العالم الغربي، بعد أن صغروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما من مؤخرة الأحداث، ولذلك تراهم يَصْغرون مقامًا ولا يكبرون، ذلك أن كل تقليد ثقافي، بخلاف الخلق والإبداع لابد أن يحقر الأمة ويقلل من شأنها» (١).

«والمسلمون إذا تبنوا، كما هو من واجبهم أن يفعلوا، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية، لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم، ولكنهم إذا تبنوا ـ وهم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك ـ أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية، فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئًا، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ومما يدلهم عليه دينهم نفسه.

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها، إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم فحسب، بل ربما استطاعوا أيضًا أن يعطو إنسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع» (٢).

ولقد تعددت دراسات الشيخ الندوي ضدّ هذه الغارة التغريبيّة والمادية، وهي لم تقف عند حدود كتابه العظيم: (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) بل أضاف

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢١٠، ٢١١، دار القلم، الكويت.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٢.

إليها الشيخ دراساته التي نراها داخلة في صلب القضية، ومنها كتابه عن (روائع إقبال) الذي حفل بأسفار كثيرة وفصول موجهة إلى العرب،حرص الشيخ على التركيز عليها، بعد أن استخلصها من شعر محمد إقبال.

ومن هذه الدراسات أيضًا كتابه: (ردّة ولا أبا بكر لها)، وهو الكتاب الذي أطلق فيه على نزعات الحضارة الأوربية (الدين الجديد)،حيث اعتبر عبادة نزعاتها الحيوانية واللادينية (ردّة) و (دينًا جديدًا) انحدر إليها كثير من المسلمين!!

ومنها كتابه (حول الإسلام والحضارة الإنسانية وواقع العالم الإسلامي!!)

ومن تراثه في هذا الميدان ـ أيضًا ـ تحليله للصراع بين الإيمان والمادية من خلال سورة الكهف. ومنه رسالته : (حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي).

ورسالته حول (الأمة الإسلامية ، وحدتها ووسطيتها وآفاق المستقبل).

فكل هذه الدراسات تصب مباشرة في هذه القضية الخطيرة، فضلاً عن جهوده المبثوثة ـ غير المباشرة ـ في كتبه الأخرى.

وجزى الله الشيخ أبا الحسن الندوي عن هذا الاهتمام الكبير والتتبع الدقيق لأوضاع العالم العربي، وهذا الحرص الشديد على الأمة العربية، وعقيدتها ، وحضارتها ورسالتها في مواجهة الحضارة الغربية خير الجزاء!!

* * *

الشيخ أبو الحسن الندوي والقومية العربية :

كان من بين ما رزأ به الاستعمار الصليبي واليهودي الأمة العربية أن سرّب بين بعض مثقفيها ، وبخاصة الذين تتلمذوا في معاهد الغرب ومدارس التنصير، مفهومًا للقومية العربية معاديًا للإسلام ، يجعل من القومية عقيدة وأيديولوجية قائمة بذاتها، وينظر للإسلام عند أحسن التقديرات على أنه مجرد رافد ثقافي ، وأنه ليس هذا الدين الذي انتشل العرب من وهدة الجاهلية، وبعث فيهم الحياة التي جعلتهم خلال عقود قليلة الأمة المسيطرة على العالم عقيدة وعلمًا وأخلاقًا وسياسة.

وكان من جراء ذيوع هذا المفهوم الذي روج له بعض النصارى العرب الكارهون

للإسلام من مواقع القيادة الفكرية والسياسية في بعض البلاد العربية، وعلى رأسها مصر وسوريا والعراق، وما كان يسمى باليمن الجنوبي، وغيرها... بالإضافة إلى أن هذا المفهوم كان ورقة رابحة استخدمها الاستعمار الصليبي واليهودي في تجنيد العرب في الحرب العالمية الأولى ضد الخلافة العثمانية، ومن الطريف أن قائد الجيوش العربية (القومية) كان ضابط مخابرات يهودي بريطاني «لورنس» الذي كان يعمل تحت إمرة القائد الصليبي الحاقد «اللّنبي» الذي ركل قبر صلاح الدين بقدمه عندما دخل دمشق قائلاً : «لقد عدنا يا صلاح الدين!!» .

لقد كانت حركة القومية العربية الإسلامية أخطر من كل الحركات القومية التي ظهرت في العالم الإسلامي؛ لأن الأتراك والإيرانيين والأكراد والأفغان كانوا جزءًا من الملة الإسلامية ، ويعدّ انحرافهم انحراف ملة، أما العرب فلم يكونوا ملة فحسب، وإنما كانوا منبع الدعوة الإسلامية، وحملة لوائها الأولين وروادها السابقين، وكان بلدهم المنبع الأول للإسلام ، ومأواه وملجأه الأخير ، فكان قبولهم لدعوة القومية وانحصارهم في القالب المحدود للقومية والعروبة، أو احتضانهم لدعوة البعث العربي القومية، بدلا من كونهم حملة الدعوة الإسلامية العالمية، كارثة تاريخية، فإذا كان انحراف الأمم الأخرى، انحرافا لها وحدها، كان انحراف العرب تحريفًا ؛ لذلك فإن القلق والهم اللذين يساوران النفوس، والحذر الذي يطير النوم عن عيون المحبين للدين والعاملين له والمهتمين به، لا يستغرب ولا يثير الدهشة والتساؤل ، بل بالعكس ، فعدم الاضطراب على هذا الحادث الأليم، يدل على عدم الشعور بضخامته ووخامة نتائجه (١).

يرجع عدم مبالاة بعضهم بخطورة حركة القومية العربية الخائنة للإسلام والمنفصلة عنه إلى عدم معرفة هؤلاء الناس البسطاء بحقيقة أفكار دعاة القومية العربية وبعجزهم عن إدراكها؛ وذلك لأن عددًا قليلاً من العلماء وحملة الدين هم الذين يتمكنون من دراسة منشورات القومية العربية الموثوق بها، وتتاح لهم فرصة السماع والقراءة للأحاديث والبيانات والتقارير الصحفية لقادة تلك الحركة وزعمائها، أما الفئة التي تكتفي بالتصفح للجرائد والمجلات الصادرة من الدول التي تعبر عن هذه الأفكار

---

(١) أبو الحسن الندوي: الخطر الأكبر على العالم العربي ص ١٤ ، دار الصحوة .

والاتجاهات، فتقتصر معرفة هذه الفئة من الناس على معلومات سطحية طافحة، وتعتمد على بيانات سياسية في أغلب الأحوال(١).

وبالتالي فهم لا يدركون مدى خطورة الدعوة للقومية العربية، وتوغلها في النفوس ، وتأثيرها وأبعادها ، وأهدافها ، وغاياتها ، وإلى أي مدى سرت فيها عدوى الإلحاد واللادينية وتفاقمت ، وما هى انعكاسات هذه الدعوة على قلوب الشباب والمثقفين الذين تأثروا بأهدافهم التي يعبرون عنها ويجهرون بها ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨] (٢). وكما يقول الكاتب الكبير الأستاذ « أنور الجندي»، فإن الأستاذ الندوي لم يهاجم شيئًا في عنف وقوة، كما هاجم الاتجاه العربي إلى القومية الضيقة والعصبية اللاإسلامية ، التي تمثلت في ذلك التيار العنيف الذي أراد أن يضرب الإسلام بالعرب، والعرب بالمسلمين ، ضربًا قويًا.

ويتساءل الشيخ الندوي : « هل كان للعرب أن يمثلوا هذا الدور العظيم، وأن يشغلوا سمع الزمان، وأن يغيروا مجرى التاريخ لولا هذه الرسالة السماوية التي تسمى بالإسلام، ولولا هذا الكتاب العظيم الذي يعرف بالقرآن، ولولا تبنِّيهم لهذه الدعوة الجديدة وجهادهم في سبيلها؟!! (٣) .

ولم يتوقف أستاذنا أبو الحسن الندوي عن مقاومة هذا الاتجاه القومي اللاديني ، كاشفًا زيفه في كل مكان وكل خطاب، كاشفًا، في الوقت نفسه ، عن ذلك العقد الرباني الأبدي بين العرب والإسلام. . .يقول : « لقد عَقَدَ الله بين العرب والإسلام للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر، فلا عزّ للعرب إلا بالإسلام، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلا إذا قاد العرب ركبه وحملوا مشعله ، وقد حرص رسول الله ﷺ على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدس بين العرب والإسلام، فجعل جزيرة العرب مركز الإسلام الدائم وعاصمته الخالدة، وحرص على سلامة هذا المركز وهدوئه وشدة تمسكه بالإسلام؛ لأن العاصمة يجب أن تكون بعيدة عن كل تشويش وفوضى وصراع، وظل العرب والإسلام زميلين مترافقين، وأخلص كل منهما للآخر وأقسم ألا يفارقه، وعاش العرب وعزّوا بالإسلام وسادوا الدنيا ، وانتشرت لغتهم وثقافتهم في بلاد وأقطار وبيئات

(١) المصدر السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .   (٢) المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٣) أنور الجندى : أعلام القرن الرابع عشر الهجرى جـ١ ، أعلام الدعوة والفكر، مكتبة الأنجلو المصرية ص٤١٦، ٤١٧ .

لم تكن تنتشر فيها ويرسخ قدمها لولا الإسلام ولولا القرآن ، واتخذها العلماء والأذكياء لغة دين وعلم وتأليف، ولم يكونا فاعلين ذلك لولا أنها لغة الإسلام الرسمية ومفتاح المكتبة الإسلامية» (١) .

والإنسان يعجب ، ويشارك الشيخ الندوي العجب ، في أمر هؤلاء القوميين العرب، الذين يريدون حصر القومية في نطاقها العنصري الضيق، ويقطعون صلتهم بالمسلمين الذين يتعبدون بالارتباط بهم، ويشعرون بالمنّة نحوهم، ولا ينازعونهم القيادة إذا ملكوا مؤهلاتها، وحملوا راية الإسلام. . . راية عزّهم ومجدهم.

ويضرب أستاذنا الندوي أمثلة رائعة تدل على هذا الارتباط العميق بالعرب، وهذا التقدير الإسلامي العام للغتهم. . . لغة القرآن الكريم. . التي هي فيصل الارتباط بالعروبة المؤمنة، التي لا تقوم على الجنس بمعناه العنصري، بل على رابطة الفكر واللسان، وما يفرزانه، من عقيدة ومنهج حياة وغاية.

وفي يوليو سنة ١٩٧٨م، في كراتشي بباكستان، التقى الشيخ الندوي بالعلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي محقق سمط اللآلئ ، وأحد أعضاء لجنة تصحيح (لسان العرب لابن منظور) ، فسأله الشيخ أبو الحسن: كم تحفظ من شعر العرب؟ فأجاب: أحفظ بين خمسة وسبعين ألف بيت ومائة ألف بيت. . . فهل يوجد في العالم كله من يحفظ من لغة ليست لغته اليومية ولا القومية هذا القدر من الشعر. . . اللهم إلا نموذج هذا المسلم العظيم الذي يرتبط بالعروبة ، ثقافة ودينًا؟!

وهل كان يمكن أن تكون اللغة العربية البدوية لغة عالمية إلا بنزول القرآن الكريم بها. . . كما قرر الكاتب النصراني جورجي زيدان وغيره (٢)،فما مصلحة العرب في قطع الوشائج الإسلامية، وترك هذا الرصيد الثقافي الهائل الذي يرتبط بلغتهم لارتباطها بالإسلام؟

ويقدم الشيخ الندوي مثالاً آخر لهذه الدائرة الفسيحة للغة العرب وثقافتهم في ظل ارتباطها بالإسلام، فينقل عن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ـ المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي، المتوفي ١١٧٦هـ ،في رسالته التي أسماها، «المقالة

(١) المرجع السابق ، ص ٤١٨.

(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي : نفحات الإيمان ص٤٢ ، ط١ ، دار الصحوة ، ١٤٠٥هـ القاهرة.

الوضيئة في النصيحة والوصية» ـ قوله: « نحن رجال غرباء ، هاجر آباؤنا إلى الهند، وإن عربية النسب وعربية اللسان مفخرتان لنا، وهي التي تقربنا إلى سيد الأولين والآخرين، وأفضل الأنبياء والمرسلين،ومفخرة الوجود ﷺ، السعيد منا من حصلت له مشاركة في لسان العرب والصرف والنحو، وكتب الأدب واطلع على الحديث والقرآن، ولابد لنا من حضور الحرمين الشريفين وتعلق القلب بهما، وفي ذلك سر سعادتنا، والشقيُّ من أعرض عنهما».

ويعلق الشيخ الندوي على هذه الوصية الطيبة قائلاً:

« أين رابطة الشعوب والبلاد بلغات حكامهم، ومستعمريهم، أو باللغات التي لا يتصلون بها إلا عن طريق السياسة أو الثقافة أو الاقتصاد، من هذه الرابطة التي تقوم على العقيدة والإيمان والحب والغرام؟!» (١).

ولذلك لما سمح بالأذان باللغة العربية في تركيا ـ وكان ذلك ممنوعًا في عهد أتاتورك ـ خرج الأتراك من بيوتهم، وبدأوا يرقصون فرحًا، وذبحت مئات من النعاج شكرًا وسرورًا بأن الله مدّ في حياتهم حتى أدركوا هذا اليوم السعيد، وسمعوا الأذان العربي في لغة نبيهم التي كان يؤذن فيها بلال، وأبو محذورة ، وابن أم مكتوم، والذي كان يدوي على منابر مساجدهم قبل أن يصدر هذا الحكم القاسي السفيه.

« هذا هو الرباط الذي يربط الشعوب بالعرب، وهو الذي تضمره قلوب غير العرب للعرب، وهو نابع عن شعور واحد، وهو الشعور بعظم نعمة الإسلام وضخامتها التي جاءتهم عن طريق العرب، إنهم ينظرون إليهم كحاملي رسالة الإسلام، وناقلي التعاليم الإسلامية، ينظرون إليهم كالمنقذ من الضلال، وكالمخرج من الظلمات... ذلك الذي رفعكم أيها العرب إلى مستوى القيادة العالمية ، فهل تتخلون عن هذه المنزلة الرفيعة وتنزلون إلى مستوى القوميات والعصبيات، والنظريات الضيقة، والقوانين التي تتغير صباح مساء ؟!!» (٢).

* * *

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي : نفحات الإيمان ص ٤٣، ٤٤، ط ١، دار الصحوة ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، القاهرة.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤، ٤٥.

الشيخ الندوي وقضية المسلمين:

كان موقفًا طبيعيا من داعية كبير ـ يعيش الهموم العربية بكل كيانه، ويتفاعل معها تفاعل العربي المؤمن الملتزم ـ أن تكون قضية فلسطين، من القضايا الرئيسة التي يوليها الشيخ الندوي اهتمامه.

وجدير بالذكر أن تأثّر مسلمي الهند بمصائب العرب، وعلى رأسهم داعية كبير كالشيخ الندوي إنما هو تأثر مباشر، في مجتمع علمانيّ وهندوكيّ، يعرف الذين يعيشون فيه مدى عمق الصلة بين العرب الذين تنزلت فيهم الرسالة السماوية الإسلامية، وبين المسلمين الهنود الذين يعيشون معهم في أرضهم، لكنهم يتجهون في كل يوم إلى مكة المكرمة، قلب جزيرة العرب، خمس مرات، ولا تصح صلاتهم إلا بهذا الاتجاه إلى القبلة.

ولا شك أنه أثناء تطورات قضية فلسطين خلال النصف الثاني من القرن العشرين، كانت للشيخ الندوي متابعاته المستمرة، وجهوده الإسلامية حول فلسطين في وسط المجتمع الهندي، بل في البلاد العربية نفسها.

بيد أن ما يهمنا أن نشير إليه، هو أن معالجة الشيخ الندوي لقضية فلسطين كانت تقوم على الرؤية الإسلامية التي ترى في هذه الكارثة نتيجة لا سببا، وعقاباً إلهيا للعرب الذين خانوا الإسلام ، وليس أمرًا ابتدائيا وقع عفوًا، أو ابتلاءً محضًا، أو ظلمًا... ولاسيما وأن الشيخ يدرك أن خطر اليهود لن يقف أبدًا عند حدود فلسطين ، ولا عند الشعب الفلسطيني، وإنما سيمتدّ إلى العرب وبلادهم كلها.

وإن منْ رأى البلاد العربية عن كثب، وشاهد تذبذب الحكومات العربية في سياستها، وضعف إرادتها وخضوعها للدول الأوربية الكبرى وارتباطها بإشاراتها، ورأى أخلاق الرؤساء والقادة ومن بيدهم الحل والعقد، ورأى إخلادهم إلى الراحة، وإيثارهم اللذة والمنفعة، ورأى بصفة خاصة في مصرـ التي كانت تتزعم العالم العربي وتقود الحركة الأدبية والعلمية والدينية ـ عبث الأدباء والكتاب والموجهين بالأسس الدينية والقيم الخلقية والاجتماعية، والمقررات التاريخية، وتسخيرهم لطاقة الأدب والأقلام، لتقويض دعائم الحياة الصالحة والأخلاق الفاضلة، وبعث فوضى فكرية لا معروف فيها

ولا منكر، ولا حق فيها ولا باطل، وإنما هي انتهازية وأبيقورية وإقليمية وفرعونية(١).

ورأى إحجام العلماء وقادة الدِّين عن قول الحق، ونقد الباطل، والشهادة بالقسط، ورأى خضوعهم للمُثُل الزائفة التي خضع لها عباد المعدَات والبطون من وجوب ارتفاع مستوى المعيشة وإرضاء الأهل والأسرة وتحقيق مطالبها ولو من غير حق، ورأى افتتان العامة والطبقات الكادحة بالملاهي والمعازف والأواني وبكل ما تتمتع به الأذن والعين والخيال ، والتقاء هذه الطبقات كلها على اختلاف مستوياتها وثقافاتها على حب الحياة والكراهة للموت، وبعدها عن كل مغامرة وإقدام.

رأى ذلك كله وتحققه وعاش فيه، وجزم بأن هذه الشعوب لا تستطيع أن تتحمل أقل صدمة تأتيها من الخارج ، ولا تستطيع أن تدافع عن دينها وشرفها ومقدساتها وكيانها(٢).

ووفق هذا التحليل الذي يقوم على رؤية داخلية للوقائع، تنطلق من إيمان عميق بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ينتهي الأستاذ الندوي إلى أن التخاذل في فلسطين قد مهدت له أسباب كثيرة من الأخلاق والتربية، وأن الاستعمار الغربي قد فتش عن منابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين وقلوبهم فوجد أن أكبر منابع القوة والحياة هو «الإيمان» فحاربوه، وسلطوا على المسلمين عدوَّين كانا أفتك بهم من المغول والتتار وهما: الشك، وضعف اليقين ، الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه، والثاني ما نعبِّر عنه بالذل النفسي وهو أن المسلمين صاروا يشعرون بالذل والهوان، في داخل أنفسهم، وفي أعماق قلوبهم، ويزدرون كل ما يتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق، ويؤمنون بفضل الأوربيين في كل شيء، ويعتقدون فيهم كل خير(٣).

والمشكلة في حقيقتها أن العرب لم يحاولوا ـ إلا قليلاً ـ أن يضعوا قضية فلسطين في إطارها الصحيح كقضية إسلامية تتعرض لحملة دينية يهودية، فهي عقيدة زاحفة تحتاج إلى عقيدة لصدّها. . . وإنما بذلوا جهودًا كبيرة في معالجتها، كقضية سياسية،

---

(١) أنور الجندي : أعلام القرن الرابع عشر جـ ١ ، أعلام الدعوة والفكر ، ص ٤٢٣.

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٤.

تدخل في نطاق التنافسات الاستعمارية ذات الأبعاد الاقتصادية والسياسية. . . وقد كتبوا في هذا كتبًا كثيرة، وخطبوا خطبًا كثيرة أيضًا، وتحدثوا بإسراف وسذاجة عن (إزالة آثار العدوان) ولم يتحدثوا عن (إزالة أسباب الخذلان) معتمدين في حل قضية فلسطين من أول يوم على نفس الأساليب التقليدية التي تلقوها من عدوهم الغرب. . . الذي حدّد لهم المسار الذي يمشون فيه، فكل ما فعلوه «كلام» وكله وقوف عند الآثار ، وبُعد عن الجذور والأسباب !!

وقد ظلت معركة الكلام حامية ، ولم تقم محاولة جدية، ولا برزت دعوة صريحة قوية إلى تغيير منهج الحياة في الشعوب والبلاد التي اكتوت بنار هذه الخيانة الغربية الكبرى التي لا مثيل لها في التاريخ الحديث، حتى تعرضت للخطر الصهيوني بطريق مباشر، ولا توجد دعوة إلى إزالة أسباب السُّخط والخذلان التي بيَّنها القرآن في أسلوبه البليغ السافر، لكسب أسباب النصر الحقيقية التي دعا إليها الكتاب والسنة، وحفل بنتائجها وأمثلتها التاريخ الإسلامي، ولم يشعر أحد من الحكام أو جمهرة المثقفين بحاجة إلى استفتاء القرآن والعقل الإيماني الواعي المنصف، الذي لا يكذب ولا يخدع عن أسباب هذه النكبة(١).

ولا طريق لاستعادة فلسطين إلا بالإسلام. . . وعندما تنتهي عوامل الهزيمة الأخلاقية والنفسية والفكرية ، ويعود الإسلام إلى مكانه في نفوس المسلمين وفكرهم وسلوكهم، تنتهي تلقائيًا مصادر الكارثة، بل تنتهي مصادر كل الكوارث، وتعود فلسطين إلى العرب والمسلمين. . . يقول الشيخ الندوي:

« إن قضية فلسطين سهلة هينة ، وانتصار العرب مضمون إذا كانوا أحرارًا في تصرفهم، مالكين لزمامهم، مدبّرين لسياستهم ، مغامرين بأرواحهم وجندهم، محكمين لسيفهم وسنانهم، واثقين بنصر الله، معتمدين على سواعدهم فقط متمردين على المادة والشهوات مصممين على الكفاح والجهاد» (٢).

إن قضية إنقاذ فلسطين ـ كما تؤكد كتابات الأستاذ الندوي ـ قضية مرتبطة ارتباطًا عضويا بالعقيدة ، وسواء من الجانب اليهودي والصليبي أم من الجانب الإسلامي فإن جوهر المشكلة دينيٌّ بحت. . فنحن ـ المسلمين ـ لابد لنا من أن نواجه الدين اليهودي

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢٦.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٤.

الزاحف بالدين الإسلامي القوي الفعال. . . إننا لسنا في حاجة إلى دين جديد ـ حاشا لله ، ولكننا في حاجة إلى إيمان جديد؛ لأنه إذا كانت الأحوال غير عادية احتاج الإنسان فيها إلى إيمان غير عادي، إلى إيمان قوي عميق، إلى إيمان حيّ دافق، إلى إيمان إذا لم يكن إيمان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فليكن إيمان صلاح الدين الأيوبي، وإيمان كثير من الجنود الذين قاتلوا تحت رايته، يقول القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد عن صاحبه صلاح الدين الأيوبي: «إنه تاب عن المحرمات وترك الملذات، ورأى أن الله سبحانه وتعالى خلقه لأمرعظيم لا يتفق معه اللّهو والترف، وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال، وكان كالفاقدة ولدها، الثاكلة واحدها [1].

* * *

إنَّ هذا هو الطريق الصحيح ـ الوحيد ـ لاستعادة فلسطين .

وكما عاش العرب مائتي سنة تحت الاحتلال الصليبي دون أدنى أمل لطرده عندما استولى على الرها، وأنطاكية، وطرابلس ، وبيت المقدس. . . حتى ظهر الأبطال المؤمنون الأتقياء الصالحون عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود ، ثم صلاح الدين الأيوبي، فكذلك لن تتحرر فلسطين بالقيادات المنافقة التي تعطي الإسلام بعض الكلام، في بعض المناسبات، ولكن عقلها وقلبها يدور في فلك الأعداء، وربما يثق بعضهم في قدرة أمريكا وإسرائيل أكثر مما يثق في قدرة الله !!

وإذا كان نصف القرن الماضي قد أثبت فشل كل التجارب، وأعطى إسرائيل دفعة هائلة، بحيث أصبحت قوة عظمى ترتعد فرائض الحكام العرب أمام جبروتها وطغيانها. . . فلقد آن الأوان لنستجيب لذلك المنهج العظيم الذي أشار إليه الشيخ أبو الحسن. . . أن نستفتي الإسلام، ونستوعب درس التاريخ، ونثق في الله ، وفي ديننا ، وفي حضارتنا ورسالتنا.

ويومها ستعود فلسطين . . . بإذن الله ، كما أكَّد الشيخ الندوي، وكما يؤكد لنا ـ من قبله ـ وعد الله الذي لا يخلف الميعاد!!

* * *

(١) النوادر السلطانية ص ١٥٥، نقلا عن الشيخ أبي الحسن الندوي : نفحات الإيمان ص ٨٠.

الشيخ الندوي وأزمة الخليج:

بينما كان العالم الإسلامي يعيش فترة هدوء وترقب على مشارف العقد الأخير من القرن العشرين، وبينما كان الشيخ أبو الحسن الندوي يقوم بجهود طيبة توشك على الوصول إلى النجاح في داخل شبه القارة الهندية، لتحجيم حركات التطرف الهندوكي التي تسعى لإزالة الوجود الإسلامي في الهند... بينما كان ذلك وقع ، وعلى غير توقع، ذلك الحادث المروع ، الذي تمثل في هجوم الرئيس العراقي صدام حسين على الكويت، مجهضًا كل محاولات وحدة الصف العربي، وناقضًا كل كلماته الكبيرة عن الأخوة العربية والتضامن العربي، وعاقا لكل الأيادي التي قدمت إليه في مغامراته العسكرية الإجرامية، وغادرًا بكل وعوده القومية والبعثية الزائفة.

وبينما كان الشيخ الندوي يطوي أوراق اجتماع ناجح مع بعض عقلاء الهندوس ومفكريهم للالتقاء حول (قضية مشتركة) تسمى (رسالة الإنسانية) تحترم حقوق المسلمين، وكل الأقليات الأخرى، وتزيل الأحقاد والعصبيات... وظهرت لهذا اللقاء آثار طيبة في طول الهند وعرضها... بينما يقوم الشيخ بهذه الجهود الناجحة فوجئ العالم الإسلامي المقهور بالهجوم على الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠م... فإذا بمسلمي الهند، وإذا بالشيخ الندوي، وإذا بالدعاة والمسلمين جميعًا... تنكّس رءوسهم داخل الهند وخارجها... وإذا بالأمة كلها تشعر بأنها في مأتم ، من جراء هذه الفعلة الغادرة الشنعاء.... ولا تدري ماذا يفعل مع غادر جبار لا يعرف الحوار، ولا يحكمه دين ولا خلق... ويصور الشيخ الندوي هذا الوضع وعواقبه قائلاً:

« وإني كدارس متواضع للتاريخ الإسلامي، ومؤلف فيه، لا أذكر أن المسلمين من حيث الملة أصيبوا بمثل هذه الصدمة العنيفة، التي أدت إلى خجل وذلة ومهانة، منذ قرون عديدة، وتزيد هذه المأساة شدة ووطأة ، أنها وقعت في منطقة عربية مجاورة للمنطقة التي كان منها الإشعاع الأول لاحترام الإنسان والعدل والإحساس، وجزاء الإحسان الإحسان والكرامة، ونجدة المظلوم والضعيف»(١).

وكعادته يحلل الشيخ الندوي الحدث الخطير من جوانبه الدينية والخلقية والمبدئية، ويسميه (المأساة الأخيرة في العالم العربي)، ويعزو خطورته إلى عدد من الأسباب، تتلخص في رأيه في العوامل الآتية :

---

(١) أبو الحسن الندوي : المأساة الأخيرة في العالم العربي، ندوة العلماء لكنهؤ ، الهند ص ٧.

١ - أن غزو بلد كبير كالعراق لبلد صغير كالكويت يقدم مثالاً سيئًا ، لا يتطابق مع التعاليم الإسلامية الخلقية والتقاليد الإسلامية فحسب، بل إنه يتنافى مع الضمير الإنساني، ومبادئ الأخلاق العامة.

٢ - وقد تعاقبت بعد غزو العراق للكويت واستيلائه عليها الأعمال والتصرفات الشنيعة والمخزية التي لا يوجد لها نظير إلا في تاريخ الغزاة والفاتحين الجبابرة المستبدين في تاريخ الحروب.

٣ - ثم إن القائد العراقي الرئيس صدام حسين قام بفسخ كل ما سجله من انتصارات خلال حربه مع إيران بالصلح مع إيران ، على شروط إيران، من طرف واحد.

٤ - كان الرئيس صدام يُعْقَد به الأمل - في بعض الأوساط المتفائلة - أنه قد يكون مؤهلاً لملء الفجوة التي كانت تُلمس في قيادة العالم العربي، أو يوفقه الله تعالى للاجتهاد من أجل توحيد الصفوف لمواجهة إسرائيل .

ولكن خابت هذه الآمال والتطلعات، ولم تلبث هذه الأماني حين انقلب هذا البطل المغوار على إخوانه وأشقائه وفتح جبهة جديدة داخل البلاد العربية.

٥ - إن غزو العراق للكويت، وعدم إصغائه إلى نداء القادة العرب والمسلمين، وعدم إنصاته لنصيحتهم وتماديه في موقفه، وتغاضيه عن جميع المخاطر التي تترتب من مثل هذا الموقف الطائش ، قد أثارت شبهات ومخاوف بأن يسوقه طمعه أو طموحه - لا قدر الله - إلى التعرض للجزيرة العربية وبالأخص المملكة العربية السعودية التي تتولى خدمة الحرمين الشريفين وحفظها وصيانتها، والاحتفاظ بقداستها(١).

ولا ينسى الشيخ أن يربط هذه المأساة بخروج العرب عن رسالة الإسلام، وبالقومية العربية اللاإسلامية التي هيمنت على حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يقوده في العراق «ميشيل عفلق» فكرًا وصدام سلوكًا. . . إنها مثل نكبة ١٩٦٧م، ومثل ضياع فلسطين، ثمرة من الثمرات المرة التي يجنيها العرب من خيانتهم للإسلام، وسلبيتهم في مواجهة القيادات الحزبية والفردية الملحدة.

ولقد بلغ الهم من الشيخ الندوي كل مبلغ، وهو يعيش الأيام الكالحة التالية

---

(١) أبو الحسن الندوي : المأساة الأخيرة في العالم العربي ، ندوة العلماء لكنهؤ ، الهند ص ٨ -١٢ .

للغزو.

إن عاطفته نحو العرب والمسلمين، وما كان يأمله في اقتراب العرب ـ بالصحوة الإسلامية ـ من يوم العودة إلى منهج الله الذي يكفل لهم استئناف قيادتهم لسفينة الحضارة... كل ذلك قد جعله يعيش أيامًا عصيبة، ويعاني هما كبيرًا إلى حدٍّ لا يذكر معه أنه تأثر هذا التأثر قبل حدوث هذه الفاجعة.... ولا يفوت الشيخ أبو الحسن ـ في هذا المقام ـ أن يعزو ما أصابه من همٍّ وحزن وقلق إلى حبه للعرب وانتمائه لهم :

« لقد أقلق هذا الحادث ذهني وفكري، وأقضّ مضجعي إلى حد لا أذكر أني تأثرت مثله قبل حدوث هذه الفاجعة في حياتي؛ لأني ـ وذلك فضل الله وتقدير العزيز العليم ـ منذ أن تطورت فيّ القدرة علي الكتابة، والخطابة ، والدراسة، كرست ما كنت أملكه من قدرة محدودة للتعبير، وما توفر لي من وقت على قضايا العالم العربي، وكانت الأمة العربية والدول العربية مجال عملي وشغلي الشاغل وموضوع دراستي ، وكانت معظم مؤلفاتي وكتاباتي باللغة العربية أصالة، ثم نقلت هذه المؤلفات إلى اللغات الأخرى، وأستعير هنا ما قاله الشاعر «محمد إقبال» تحدثًا بالنعمة، وتعبيرًا عن حقيقة الحال:

« إنْ كان مزماري عجميا، فإن ألحانه عربية ونغمي عربي» (١).

* * *

ـ لقد لخص لنا الشيخ ـ في هذا المقام وفي هذه المأساة ـ حقيقة انتمائه للعرب... إنه انتماء أصيل عميق... إنه ليس تعاطفًا ... أو غيرة إسلامية تقف عند حدود فرض الكفاية... إنه جزء من تكوينه وجبلّته... إنه فرض عين.

ولئن كان بعض العرب في البلاد العربية يعيش هموم العرب في دائرته الفردية، وفي حدود مصلحته الشخصية، وفي إطار الحفاظ على كيانه الاجتماعي والاقتصادي... فإن الشيخ أبا الحسن ـ كما يلمس القارئ لكلماته ـ مستعدّ للتضحية في سبيل عودة العرب إلى رسالتهم وقضية وجودهم بكل دمه وماله ومكانته.

ـ إن ذلك واضح جليّ في كلماته... فكلماته كلمات محب مستعد لبذل كل

---

(١) أبو الحسن الندوي : المأساة الأخيرة في العالم العربي ص ١٦، ١٧.

شيء في سبيل محبوبه وعاشقه. . . وليس في كلماته أيّ أثر للصنعة أو التكلف.

ـ لقد خاصم الشيخ ـ على كُره منه ـ كثيراً من القيادات العربية.

ـ وقد مُنع الشيخ من دخول كثير من البلاد العربية، لمجرد إخلاصه وصراحته في تقديم النصيحة.

ـ وقد أساءت به الظن بعض القيادات التي لم تستطع أن ترتفع إلى مستوى إدراك أنه يعمل لمجد بلادها، وإلى إدراك أن صديقك من صدَقك لا من صدَّقك!!

ـ وانطلاقًا من تلك الروابط الكبيرة بين الشيخ الندوي والعرب. . . ومن شعوره بعمق مأساة الخليج، ودور القومية العربية اللادينية الهدام فيها . . . انطلاقًا من كل ذلك كان موقفه من مأساة الخليج!!

* * *

الشيخ أبو الحسن الندوي ومحاولات التفاعل مع القادة والمفكرين العرب:

على الرغم من أن أكثر الحكام العرب لم يألفوا مراسلة الدعاة أو تلقي النصائح منهم، فقد أتيح للشيخ أبي الحسن الندوي، بأسلوبه الحكيم، أن ينصح كثيراً منهم، سواء بطريقة الالتقاء بهم مباشرة، أم بطريقة الكتابة إليهم.

ـ وقد تبادل الشيخ الرسائل مع عدد من الحكام والوزراء العرب، على رأسهم الملك فيصل بن عبد العزيز، والملك خالد بن عبد العزيز ـ رحمهما الله ـ والملك فهد بن عبد العزيز، والأمير عبد الكريم الخطابي، وسموّ الأمير مساعد بن عبد الرحمن آل سعود ، والأمير الحسين بن طلال، والشيخ حسن ابن عبد الله آل الشيخ.

ـ أما مراسلته للمفكرين، والمثقفين العرب فهي كثيرة وموصولة، ومن أهم من راسلهم الشيخ أبو الحسن : الشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز، والشيخ محمد بهجت البيطار، والشيخ محمد بهجت الأثري، والشيخ عبد الله بن علي المحمود، والشيخ أحمد عبد العزيز المبارك، والشيخ عبد الفتاح أبو غدّة، والدكتور الشيخ يوسف القرضاوي ، والشيخ البهي الخولي، والدكتور مصطفى السباعي، والأستاذ سيد قطب، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ علي الطنطاوي ، والأستاذ محمد أسد، والأستاذ محمود محمد شاكر ، والأستاذ أنور الجندي، والأستاذ

أبو بكر القادري . . . وغيرهم [1].

وكان لبعض الحركات الإسلامية المشهورة في البلاد العربية نصيبها من حوارات الشيخ ونصائحه.

وكما كان يحرص على أن تكون (**الدعوة**) مناط أحاديثه مع الرؤساء والمفكرين فكذلك، كان محور (الدعوة) مناط تركيزه في حواراته مع الحركات الإسلامية.

إن الشيخ يرى ـ وقد ذكر ذلك بوضوح في خطابه لأقطاب هذه الحركات ـ أن الدعوة هي البذرة ، وأن الوصول إلى التمكين السياسي في الأرض هو الثمرة، وأن الاهتمام يجب أن يتجه إلى البذرة، ويترك أمر الثمرة لله سبحانه يمنحها عندما تتوافر الأهلية، وتتحقق الشروط.

أما التركيز على الثمرة (أي الحكم والسياسة) دون السير في الطريق الطبيعي للأشياء، وهو الاهتمام ببذرة الإيمان، وبالتربية الفكرية والنفسية والدعوية والوجدانية، فهو قلب للأشياء، ووضع للعربة أمام الحصان، وهو منافسة ضمنية لأهل الدنيا؛ ذلك لأنه ليس من مصلحة الدعوة أن يعمل على أن يكون هو نفسه أو حزبه حاكمًا لكي يطبق الإسلام. . .فدون ذلك أهوال كثيرة ، بل من واجبه أن يعمل على أن يكون الحكام مسلمين حقيقيين، وأن يصل الحاكم المسلم إلى الحكم، من أيّ طريق، فالمهم أن يصل الدين ، فذلك أدعى إلى تجاوز الشبهات والصراعات وصور العنف المعروفة.

وفي سنة ١٩٥١م زار الشيخ أبو الحسن الندوي مصر، وكانت حبلى بالأحداث، فأتيح له أن يتكلم في جمع كريم من أبناء الحركة الإسلامية. . . وكان مما خاطبهم به قوله : « إن العالم العربي الذي تعيشون فيه أضعف أعضاء جسم العالم الإسلامي»[2].

وفي ظل هذا الوقع المريض، يرى الشيخ الندوي، أن التركيز على العلاج الدعوي والتربوي آكد وآصل ، وأعمق في التأثير الحضاري، بدل القفز إلى العمل السياسي وإتاحة الفرصة لزعماء الانقلابات العسكرية لإجهاض العمل الإسلامي في مراحله المبكرة. . . ذلك لأنهم مستعدون لتدمير كل شيء إذا تعارض ذلك مع مصالحهم ومقاعدهم الرئاسية .

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي : رسائل الأعلام ص ١٨٣ ، طبع دار الصحوة بالقاهرة، ١٤٠٥هـ . وانظر صفحات الكتاب كله.

(٢) الشيخ أبو الحسن الندوي : أريد أن أتحدث إلى الإخوان ص ١٨ . ط لكنهؤ.

ـ وفي أسلوب حكيم يترجم عن ودٍّ عميق وشعور أخوى صادق يلفت الشيخ الندوي نظر أقطاب هذه الحركات الإسلامية إلى منهجه الدعوي الذي ينصحهم به. . . فيقول لهم :

« لقد امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجردها من التفكير في المنافع المادية والثمرات العاجلة، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم وجهادهم إلا وجه الله، وامتثال أوامره وتأدية رسالته، تجردت عقولهم وأفكارهم من العمل للدنيا ونيل الجاه وكسب القوة لأسرتهم أو أتباعهم والحصول على الحكومة ، حتى لم يخطر ذلك ببال أصحابهم وأتباعهم، وكانت هذه الحكومة التي قامت لهم في وقتها والقوة التي حصلت لهم في دورها، لم تكن إلا جائزة من الله ووسيلة للوصول إلى أهداف الدين وتنفيذ أحكامه وتغيير المجتمع ،وتوجيه الحياة كما قال الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [الحج : ٤١] ولم تكن هذه الحكومة قط غاية من غاياتهم، أو هدفًا من أهدافهم، أو حديثًا من أحاديثهم ، أو حلمًا من أحلامهم، إنما كانت نتيجة طبيعية للدعوة والجهاد كالثمرة التي هي نتيجة طبيعية لنمو الشجرة وقوة إثمارها» (١).

ثم يتوجه الشيخ الندوي بعد هذا النصح العلمي غير المباشر إلى أقطاب الحركة الإسلامية بطريقة مباشرة ، قائلا لهم:

« فكذلك الدعوة الإسلامية التي تكفلتم بها، والجهاد الذي أخذتموه على عواتقكم يفرض عليكم إنشاء جيل جديد للإسلام : جديد في قوة إيمانه، جديد في حماسته وثقته ، جديد في أخلاقه، جديد في تفكيره وعقليته، جديد في كفاءته العلمية واستعداده العقلي ، وإن نجاحكم في هذا الإنتاج البشري مقياس نجاحكم في مهمتكم ودعوتكم» (٢).

إنكم أمام أنقاض عقلية ، وركام بشري، وخامات مهملة تبنون بها بيتًا جديداً وتَصنَعُونَ بها سفينة جديدة، تمخر عباب الحوادث والموانع، إنكم ستبدأون في عمل جديد، وجهاد جديد، يستغرق منكم وقتًا طويلاً ويستنفد جهودًا عظيمة» (٣).

* * *

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي ، أريد أن أتحدث إلى الإخوان ص ٣١، ٣٢، ط لكهنؤ.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥، ٤٦ . (٣) المصدر السابق، ص ٤٧ .

وبعـــد ....

فلقد عاش الشيخ أبو الحسن الندوي قضايا العالم العربي ، في مستوياتها المختلفة، الفكرية والسياسية والدعوية.... عاشها وهو يتألم لواقعها الأسيف، ويرصده رصد الخبير به، ويظهر انحرافاته نحو الشرق المادي الشيوعي، والغرب المادي العلماني ... وعاشها وهو يرصد الانحراف الشائن نحو القومية العربية بمعناها اللاديني، وكيف نجح الاستعمار الصليبي والضغط اليهودي في تمكين الأحزاب القومية (البعثية والعلمانية) من الوصول إلى الحكم وتوجيه التربية والإعلام والثقافة في الاتجاه المدمّر.

وبذل الشيخ جهودًا مضنية ليفيق العرب من هذا التِّيه ويكتشفوا ذاتهم ويدركوا أنهم طليعة المسلمين، وأنهم مبتعثون ، وأنهم أرقى حضاريا من خصومهم وأنهم الأمل في إنقاذ الحضارة الإنسانية.

وتألم الشيخ كما يتألم الوالد والمربي اللذين لم يُستَجب لهما... وخُولفا...بل وعوملا بعقوق...لكنهما مع ذلك لم يستطيعا ـ ولا يستطيعا ـ التخلص من عاطفتهما ورسالتهما في الشدائد والمحن... فعاش الشيخ مأساة فلسطين، بقلب عربي وعقل مسلم... وعاش أزمة الخليج، كما يعيش الإنسان مأساة حقيقية.

وكان الإسلام في عقله وقلبه يضيء له الطريق، فيضيء به للتائهين من حكام العرب ومثقفيهم الطريق، ويصف به الدواء والعلاج... فلعل المارد العربي النائم يفيق.

لم ييأس الشيخ من غفلة العرب، ولا من لهوهم وترفهم، ولا تشرذمهم، واستعلائهم، وخيانة بعضهم للإسلام، بل ظل ـ أطال الله عمره ـ يواصل العطاء ويتعلق بكل أمل، ويكتب في كل يوم... مخاطبًا كل بلد عربي، ومعالجًا كل أزمة عربية... ومتفاعلاً مع كل حدث بما يلائمه !!

الشيخ محمد الغزالي

من أئمة الدعوة والتجديد في العصر الحديث

ولد الشيخ محمد الغزالي السقا في قرية «نكلا العنب» بمحافظة البحيرة سنة ١٩١٧م، وتعلم في كتاتيب القرية، ثم في معهد الإسكندرية الديني (الأزهري) ثم في كلية أصول الدين بالقاهرة ، تلك التي تخرج منها سنة ١٩٤١م.

ومنذ ذلك التاريخ ، بل قبيله، حتى مطلع ذي القعدة سنة ١٤١٦هـ (مارس ١٩٩٦م) حين وافته المنية في مدينة الرياض ، ودفن بالبقيع بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. . . حتى هذا التاريخ عاش الشيخ الداعية يذود عن الإسلام بلسانه من فوق أكبر منابر القاهرة، وبقلمه عبر الصحف والكتب. . . وظل يقدم نموذجًا للداعية العالمي الأصيل الذي يفقه الإسلام حق الفهم، ويفهم الحضارة الحديثة، ويحسن التعامل الحضاري الانتقائي مع منظومتها العقدية والثقافية.

وكما عاش الشيخ محمد الغزالي ملء السمع والبصر، كذلك كانت وفاته حدثًا أقرب ما يكون إلى الزلزال في البلاد العربية والإسلامية!!

لقد ظهر أن للشيخ تلامذة ومحبين على امتداد الساحة الإسلامية كلها، بل كان من أعجب العجب أن بلادًا غير بلده مصر تتقبل فيه التعزية وكأنه ابن من أبنائها . . . هكذا كان الأمر في الجزائر والسعودية وقطر وماليزيا وغيرها. . . لقد كان الشيخ الغزالي ـ بحق ـ ممثلاً رائعًا للداعية الذي أحيا الأفق السامي للأخوة الإسلامية ، وتمثلت فيه خصائص الحضارة الإسلامية في عصر الألق. . . مع أنه ظهر ـ وعاش ـ في واحد من أسوأ عصور الانكسار والهوان في التاريخ الإسلامي.

يقول معالي الشيخ عبد العزيز بن عبد الله السالم في صدر دراسته التي ظهرت بجريدة الرياض بالسعودية (الصادرة بتاريخ السبت ٤ من ذي القعدة

١٤١٦هـ ـ الموافق ٢٣ مارس ١٩٩٦م في العدد رقم ١٠٣٤) تحت عنوان (الشيخ محمد الغزالي حقيقة وذكرى ـ الحلقة الأولى):

«نجمٌ أفل من سماء الدعوة وفارسٌ ترجَّلَ من صهوة الجهاد ، كان يمثل شعورًا ملتهبًا يصادم كل انحراف ، وقلبًا واعيًا يرقب كل اعوجاج ، وشهابًا ثاقبًا يحرق كل ملحد، وعينًا يقظة ترصد كل تهجم على الدين ، وقد أفل النجم من أفقه، وهوى الفارس في ساحة المعركة. . . غاب أحد فرسان الدعوة البارزين؟».

ويقـــول :

« كان مجاهدًا يصدع بكلمة الحق، لا يخشى في الله لومة لائم. لا يرهبه طغيان ، ولا يغريه طمع، ولا يغره منصب، فقد وضع ثقته في الله ـ تبارك وتعالى ـ وفوض أمره إليه ، فما رهب غيره ولا خشى سواه. . . فقدته المنابر، وخسره العالم الإسلامي رمزًا من رموز الدعوة النشطين، ومفكرًا من العلماء المنتجين ».

« دخل المعركة وحيدًا إلا من عون الله وحده وهو ـ سبحانه ـ نعم المعين ، وتوكل عليه فآزره ربه وسدد خطاه وجعل له القبول. . . لم يستوحش من طول الطريق وهو وحيد ، ولم يتهيب مشقته وهو بمفرده دون رفيق».

ويقول عن جهاد الشيخ :

« واجه خصومه وهم مسلحون بكل أدوات التسلط، وهو أعزل إلا من سلاح الإيمان. كان يجادل بالتي هي أحسن، ويكافح بثقة المؤمن، لا يستثقل الواجب المفروض ولا يمل الحوار المثمر، وكان رجل علم وفكر وثقافة واسعة، بارع في حديثه، رائع في أسلوبه ، مجيد في كتابته».

ويقول عن إمكانات الشيخ الغزالي الفكرية والدعوية:

« يمتلك ناصية البيان بالقلم واللسان ، وتشعر، وأنت تقرؤه، أنك تقرأ في كتاب مفتوح واضح العبارة، تلامس كلماته أحاسيسك، وتوقظ ركودك، وتهز مشاعرك ، تلمس الحرارة في كل عبارة، وتشعر أنها منتزعة من وجدانه النقي، ومطبوعة في روحه قبل أن تطبع على الورق. . . ألف الصراحة حتى صارت سمة

من سماته، واتصف بالإخلاص حتى كان علامة عليه ودلالة على نهجه».

* والحق أن الشيخ محمد الغزالي جدير بهذا الذي ذكره به معالي الشيخ عبد العزيز السالم ـ المفكر السعودي ـ وبأكثر منه...رحمه الله رحمة واسعة.

* هذا الرجل الذي عاش بلا منصب يعتدُّ به من مناصب الدنيا... كيف تبوأ هذه المكانة في قلوب الناس وعقولهم؟!!!

* كيف أصبح مَلِكًا (من ملوك الحب والحق)... وهو أعزل من كل سلاح... فلا يملك جيشًا ولا إذاعة ولا جريدة ولا قناة تلفازية في عصر لا مكان فيه إلا للقوة الاقتصادية أو العسكرية أو الإعلامية؟!!!

* إن هذا يؤكد لكل الانهزاميين والمنافقين وعبيد الدنيا أنه ستظل للحق مملكته، وما زال مقلِّب القلوب الذي لا يعرف سواه مدى الإخلاص في أفعال الناس يوحي لقلوب عباده: «إني أحب فلانا فأحبوه» فينطلق الناس في اتجاه الحب بقوى غير منظورة، وهكذا كان الأمر بالنسبة للشيخ محمد الغزالي.. ولا تفسير سوى هذا التفسير؟

* لقد عاش الشيخ الغزالي ينشر الحق والحب...وهذا هو مفتاح شخصيته.

وضع علمه في الدرجة الثانية.. بعد عشقه (للحق والحب)... فكم من عقول محشوة علمًا ركبت علوم الدين طريقًا إلى الدنيا، فمات تاريخها في اليوم الذي رحلت فيه، وطوى الناس صفحتها في سكون، وهم لا يبالون بها عاشت أو ماتت، فعلمها الغزير تنقصه الوسيلة المقبولة: (الحب) والغاية المعتمدة: (الحق).. بل إن منهم من «أضله الله على علم».. وهم كثيرون في أيامنا، نعرفهم ونقرأ لهم كلامًا جميلاً، لكننا نبرأ إلى الله منهم في أعماقنا، وقد نسأل الله أن يهديهم، وأن ينقذ منهم العباد والبلاد، مع أنهم مبدعون في فنون القول، ماهرون في امتلاك وسائل قلب الحقائق، شياطين في التلبيس والتدليس.

* إنهم الشيوعيون والعلمانيون والتغريبيون الذين عاش الشيخ الغزالي يفضحهم ويهدم أفانين باطلهم... إنهم أعداء الإسلام وأئمة الضلال ودعاة

الإفساد، الذين قال الله فيهم في كتابه الكريم :

﴿ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١١٠ ـ ١١٢] .

* كانت قضية (الدعوة الإسلامية في العصر الحديث) وما تواجهه من تحديات وما تحتاج إليه من أدوات هي الهمّ الأكبر للشيخ الغزالي . . .وكان من أعجب العجب، الذي واجهه الشيخ في فكر المسلمين وأوضاعهم، ميل بعضهم للعنف الفكري والسلوكي ظنـا بأن ذلك هو طريق الإصلاح ،مع أنه طريق الانتحار، علمًا بأن الواقع الإسلامي هزيل لا يمتلك أدنى عناصر القوة !!

* والأنكد أن هذا المنحنى لم يكن مجرد خلل في السلوك، بل امتد ليكون فكرًا وتنظيرًا وتطويعًا للفكر الإسلامي حتى يساير هذا الجموح. . . وحتى يصبح الإسلام دين التسامح والعدل والرحمة في أذهان الناس، وفي فكر معتنقيه، دين الإرغام والقهر والإرهاب والإكراه. . . مع أن الإسلام هو الذي يقول كتابه الكريم: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وكداعية كبير أحسّ الشيخ الغزالي بخطورة هذا الفكر الذي يعطي لأعداء الإسلام مشروعية إبادته، فانطلق ـ رحمه الله ـ يقاوم هذا المنهج ويؤصل الوجهة الإسلامية في الدعوة ، ويدعمها، بالقرآن والسنة والعقل الواعي المستنير.

* وبما أن هؤلاء ذهبوا إلى آيات الأمر بالعفو والصفح المبثوثة في القرآن ينسخونها حتى لا تقف عقبة أمام رأيهم، فقد ذهب الشيخ يدحض آراءهم ويبين أنها محكمة ، وأنه لا نسخ في القرآن قط «ونحن معه في هذا» . . . فعندما ترد الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

يقول ضعاف النظر :«إنه لا عفو ولا صفح، بل الآية منسوخة... ويرد الشيخ الغزالي هؤلاء بأن الراسخين في العلم يرون الآية (محكمة) ويجعلون الحلم والأناة والتجاوز من ألزم الخلال للداعية... ولربما فشل القول اللين في إقناع فرعون بأنه بشر عادي، وليس إلهًا كما يزعم، بيد أن الفشل لا يقيم سياسة الدعوة على المخاشنة وإغلاظ القول، بل يجب أن تبقى هذه السياسة ملتزمة السماحة والترفع» (١).

*** ويعقب الشيخ قائلا :**

« أرجو أن نعرف الفروق بين أسلوب الدعوة وبين عمل الدولة ووظائف أجهزتها التنفيذية.

فأسلوب الدعوة أساسه الإقناع والجدل الحسن والحوار الهادئ، أما الأجهزة التنفيذية للدولة فتقوم على الشرطة والقضاء والجيش أي على صيانة الأمن، ومنع الجرائم...ولو اقتضى الأمر إعدام المجرمين، ووجوب الاقتصاص منهم، أو حبس معتدين استغلوا حرياتهم في الفساد، أو إطفاء فتن هاجها أصحاب شغب ، ولا مساغ للخلط بين عمل الدعاة ووسائل الحكومة في حرب الجريمة، وفي صيانة الدم والمال والعرض» (٢).

وكذلك يرى هؤلاء أن آية سورة الروم منسوخة... قال تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** ﴾ [الروم : ٦٠] .

* ويرد الشيخ الغزالي على هؤلاء بقوله:

« والزاعمون للنسخ يرون أن السيف أغنى عن الصبر . وهذا جنون فجهاد الدعوة القائم على الإقناع والاستدلال يحتاج إلى صبر ليس له آخر... والتزهيد في الصبر تعطيل للرسالة ، وإنما يجيء القتال لحماية الصابرين من طغيان ذوي الترف والغرور.

وختام الآية مشعر بأن الصبر المطلوب هو سياج للثقة ، والثبات على الحق،

---

(١) الشيخ محمد الغزالي :جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج ص ٢٩، ط دار الكتب، الجزائر.
(٢) نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

في وجه من يحاولون زلزلة المؤمنين... وهو خلق لا ينفك عنه أصحاب الدعوات» (١).

ويعقب على ذلك أيضًا قائلاً:

«إن الحرية الدينية من خصائص الإسلام، وإن صيحة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] فاجأ الإسلام بها أتباع الأديان الأرضية والسماوية جميعًا، بل هي في التاريخ السياسي ـ خلال القرون الطوال لمسيرة الإنسانية ـ تعتبر بدعة إسلامية.

وقد تقول: فما الذي جعل بعض المسلمين يتحدث عن الحرب الهجومية ويسيغها؟

والجواب: التجارب المرة مع الحاخامات والكرادلة، وكراهيتهم المنكرة للإسلام، ورغبتهم المجنونة في إخفاء اسم محمد وكتابه.

إن أغلب هؤلاء الرؤساء يودون لو عبد المسلمون الأصنام وانقطع ترددهم على مساجد ينبعث منها التكبير والتوحيد آناء الليل وأطراف النهار» (٢).

* وينتهي الشيخ الغزالي إلى تنبيه المسلمين إلى مجال الجهاد الأكبر في هذا العصر (بعد بناء الأمة من الداخل)... إنه الغزو الحضاري الكاسح الذي نغفله ونلجأ إلى الأعمال الجزئية والعنيفة، بينما أحسنت أوربا استغلال هذا السلاح ضدنا.

يقول الشيخ الإمام محمد الغزالي:

«شيء جديد وقع في أساليب القتال، استغله الأوربيون على نطاق واسع فأجدى عليهم أكثر من أسراب الطائرات، ومن فرق الدبابات وهو لون من الغزو الثقافي البالغ الخبث... فقد أشاع الأوربيون أنهم تركوا الدين، وأسقطوا لواءه، ومشوا بعيدًا عنه، وعلى المسلمين إن أرادوا التقدم ترك الإسلام. وسار وراء هذا الجنون بعض الدكاترة والصحافيين، ومن أطلق عليهم لقب «مفكرين» وعددٌ آخر من الساسة الكارهين لله ورسوله، ووضعت تحت أيدي الجميع وسائل مادية وأدبية فعالة... وتحقق للمستعمرين الجدد ما أرادوا، فإذا عمامة مفتي فلسطين تختفي ويختفي الجهاد الإسلامي معها... وإذا جماعات المناضلين تقاتل تحت لواء العلمانية وحدها.

من تقاتل؟ جيشًا مفعم المشاعر باليهودية وهيكلها ولقبها الديني العتيد ـ «إسرائيل» ـ أي أن المسلمين يقاتلون بغير عقيدة قومًا يتفانون لإحياء عقائدهم»(٣).

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٠. (٢) المصدر السابق، ص ٨٢.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١١٠.

هذا هو ميدان الجهاد الأكبر الآن... كما يحدده الشيخ الغزالي ... وعلينا أن نبحث في وسائل التمكين، وأن نفك معادلات الانفصام بيننا وبين بعضنا، ونفضح الخونة والكارهين للإسلام... لأن البداية كانت دائمًا كما يقول القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد : ١١] .

* ولا ينسى الشيخ الغزالي أن يتصدى لأخطر قضية تتصل بالدعوة في العصر الحديث...ذلك العصر الذي طغى فيه نفوذ الدولة على نفوذ الأمة فأصبحت الدولة المالكة الكبرى ـ إن لم تكن الوحيدة ـ لمعاهد التعليم ومناهج التربية (ووسائل الإعلام وأجهزة الثقافة)، وهي كلها مؤسسات سبقنا الغرب في تسميمها وتعطيل دولاب فعاليتها الحضارية، بل توجيهها لخدمة منظومته الحضارية بكل إسفافها ولا أخلاقياتها، متسترًا طورًا في أمم متحدة، وطورًا في نظام دولي جديد.

فماذا يفعل الدعاة المسلمون في وجه هذا الوضع الذي أصبحت فيه الدولة بعيدة عن طبيعة الأمة وروحها وحضارتها ؟

هل يعلن الحرب الصريحة عليها ؟ أو يحاول التفاهم معها، لعلها تفهم أنها مع الأمة والدعوة في سفينة واحدة؟ وأن أعداء الدعوة هم أعداء الدولة وإن تظاهروا بعكس ذلك ؟... يقول الشيخ الغزالي في هذه الإشكالية :

«من الممكن جدا أن تكون بين الدولة والدعاة شعرة معاوية ، فلا يستعجل أحد المعركة أو الخلاف، ما دامت هناك رغبة في إيثار السلام وخدمة الإسلام، وعندي أن الأمر يحتاج إلى تصحيح النية وإلى إظهار الزهد الحقيقي في الدنيا ومناحيها ، وأعتقد أن الحاكم الذي يشعر بأن الدعاة لا يسألونه شيئًا في يده، ولا يزاحمونه على دنيا عنده، بل يريدون الخير له وللأمة، فإنه يكف عن مقاومتهم بالضراوة التي نراها الآن من بعض الحكام المسلمين للأسف الشديد!!».

ـ أما النظام الدولي الجديد والقديم فكلاهما يعادي الإسلام، ولا يجوز أن ننخدع بعناوين براقة مثل «حقوق الإنسان» و «كرامة الشعوب» و«احترام الديمقراطية».. وغيرها من العناوين التي يراد لها أن تكون بديلاً عن الإسلام... فإذا كان الإسلام ـ كما ثبت من عشرات التجارب ـ سيجد التنفس والانتعاش فيها، فإن النظام الدولي يقتلها معه!!

ـ وما دام المسلمون ضعفاء مستهلكين ممزقين ، فإن أي نظام دولي لن يعطيهم إلا ما ينتهي بهم إلى تحقيق أهدافه منهم... أهدافه هو لا أهدافهم هم... وكفانا تعطيلا للعقول، وامتهانًا لحقائق الأشياء... فليس بين الحق والباطل إلا ما ذكره القرآن حقيقة ثابتة إلى يوم القيامة : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة : ١٢٠] !!

ـ ثم يوضح الشيخ الغزالي (للدولة أولاً وللأمة كلها ثانيًا) ـ أهداف قادة النظام الدولي الجديد والقديم الثابتة التي لم تتبدل قط من الناحية الاستراتيجية،

فيقول الشيخ الغزالي: « لا عجب إذا طمع الفاتحون الجدد في الإتيان على قواعد الإسلام بعدما قدروا على هزيمة جيوشه في ميادين القتال ، وخططهم التي وضعوها واضحة : يجب أولاً إبعاد الإسلام عن أن يكون رباطًا عاما بين بنيه في مشارق الأرض ومغاربها ، فعن طريق إحياء النزعات الوطنية في كل إقليم ومستعمرة تموت الجامعة الإسلامية من تلقاء نفسها.

ـ هذه الضربة النازلة بالإسلام ـ كرباط سياسي ـ يجب أن تلحقها ضربة أخرى تنال منه كموجه شخصي وجماعي. . . .وذلك يتم بإضعاف وازع التقوى وإشاعة ضروب الشهوات، والسبيل إلى ذلك :

١ - فصل الدين عن مناهج الدراسة كلها.

٢ - فصله عن تقاليد المجتمع.

٣ - فصله عن آفاق الحياة الشاسعة.

٤ - تركه يذوي بعيدًا حتى تخمد أنفاسه بين الوحشية والضياع!!

ـ هذه هي سياسة الغرب التي نفذتها إنجلترا وأمريكا وفرنسا وهولندا وروسيا وسائر الدول التي أتيح لها أن تحتل شبرًا من أرض الشرق الإسلامي.

وقد تفاوتت أساليب التنفيذ ، كما تفاوتت ضروب المقاومة التي أبدتها الشعوب المغلوبة !!» .

وثمة قضايا كثيرة وقف عندها الإمام الراحل الشيخ محمد الغزالي، سوف تبقى موضوعات للبحث والنظر، وسوف تدور حولها أطروحات أكاديمية وبحوث علمية، فقد كان فكر الشيخ رائدًا مبدعًا في كل ما كتب فيه، أو تحدث عنه !!

* * *

بيد أننا (من واقع تخصصنا) نشير إلى أن هذا الشيخ ـ (المعمم) المتخصص في العلوم الشرعية و (الداعية) و (الخطيب) ـ كانت له رؤيات سباقة في فقه التاريخ الإسلامي، وفي فلسفة التاريخ «تفسير التاريخ». . . ومن هذه الرؤيات السباقة، وهذا الفقه بالتاريخ الإسلامي بدءًا من السيرة النبوية، وانتهاءً بالعصر الحديث. . . من هذه الرؤيات وقفة الغزالي وقفات متأنيةً عند المعضلة الحضارية التي تعانيها الأمة المسلمة في العصر الحديث، وهي المعضلة التي وقف عندها الشيخ في كتاب مستقل سماه : (سرّ تأخر العرب والمسلمين)، كما وقف عندها وقفات كثيرة متناثرة في كثير من كتبه.

ولم يكن اهتمام الشيخ الغزالي بالسيرة والتاريخ بهدف أن يكون «مؤرخًا» . . بل كان هذا الاهتمام جزءًا من اهتمامه بالدعوة ، وسلاحًا من أسلحة التأثير والتبصرة بمعالم الطريق على ضوء سنن الدين الثابتة في الكون والنفس والمجتمع.

يقول الشيخ الغزالي عن هذا التوظيف للسيرة والتاريخ في فكره:

« إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده أو تابع عن سيده، أو تلميذ عن أستاذه، ولست ـ كما قلت ـ مؤرخًا محايداً مبتوت الصلة بمن يكتب عنه.

ثم إنني أكتب وأمام عيني مناظر قاتمة من تأخر المسلمين العاطفي والفكري.

ولا عجب إذا قصصت وقائع السيرة بأسلوب يومئ عن قرب أو عن بعد إلى حاضرنا المؤسف، كلما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر وجلال العمل».

ـ وكان الشيخ الغزالي يرى أنه لا يمكن أن يكون من الدعاة «رجل قليل البضاعة» في التاريخ السياسي للإسلام أو التاريخ التشريعي له.

ـ وكان يرى أن الأسباب المباشرة في انحطاط المسلمين تشير بأصابع الاتهام إلى صنفين من الحكام والعلماء جرّوا على أمتنا هذا التخلف المهين خلال قرون... لقد عطلوا أمتنا وكبلوها واستعبدوها وعبثوا بها !!

ـ وقد وقف بشدة في وجه الفقه السقيم لأحاديث الفتن، وهو هذا الفهم المغلوط الذي يدفع المسلمين إلى التشاؤم واليأس والاستسلام، بحجة أن كل عصر يكون خيراً من الذي يليه، كما وقف الوقفة نفسها من ذلك الفقه العاجز بأحاديث علامات الساعة الصغرى... وكان دائمًا يؤمن بأن يوم الإسلام قادم، وبأن الحضارة ـ الأوربية الأمريكية ـ لا تملك مشروعًا لكل الإنسانية، وأنها مفلسة روحيا وأخلاقيا وإنسانيا.

وذلك على الرغم من إنصافه لجوانبها التكنولوجية والتنظيمية والديموقراطية (المحلية غير القابلة للتصدير)... (أي أنها ديموقراطية عنصرية!!).

ـ وكان منهجه في معالجة السيرة والتاريخ منهجًا علميا إبداعيا يتجاوز الأكاديمية الميتة، وإن كان يحترم أبجدياتها الضرورية لكنه يتخلص من جمودها وتقليديتها وجزئيتها التي تقضي على التصور الكلي، وتحصر الباحث في دائرة ضيقة، وكان الشيخ يميل إلى «**التحليل**» في بعض الجوانب التاريخية الأموية والعباسية، وفي جوانب السيرة، ويميل إلى «**التركيب**» في دراساته عن دولة الأندلس وأسباب التخلف، ويستنبط من الأخيرة القوانين والدروس المستفادة لواقعنا المريض الذي يشبه عصور الانحطاط والسقوط!!

وقد نجح الشيخ ـ بمنهجه التاريخي ـ في إضفاء صفة الحياة على الوقائع التاريخية المبعثرة ، وفي تقديمها ككائن حي قابل للتكرار عندما تتوافر الشروط الموضوعية ... لقد كان الشيخ الغزالي فيلسوفًا للتاريخ أكثر منه مؤرخًا.

ونحن نعتقد أن نظراته التاريخية وتحليلاته موجودة بالدرجة الأولى في تراثه الفكري الآتي:

١ - فقه السيرة (وهذا الكتاب كان له تأثير في كتاب) «فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي» وكتاب «دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل».
٢ - تأملات في الدين والحياة (وفيه ٦٥ صفحة تحت عنوان: في صميم السيرة) والكتاب عليه مسحة تاريخية.
٣ - الإسلام والاستبداد السياسي.
٤ - من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث (على الرغم من وجود وجهات نظر مرجوحة للشيخ في هذا الكتاب) !!
٥ - التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام.
٦ - ظلام من الغرب.
٧ - معركة المصحف في العالم الإسلامي.
٨ - الاستعمار : أحقاد وأطماع.
٩ - كفاح دين .
١٠ - حقيقة القومية العربية (في فلسفة التاريخ الانهزامي الحديث) ومعه أيضًا: (هموم داعية) فهو يتكلم في (أمراضنا المعاصرة وأسرار هزائمنا) !!
١١ - قذائف الحق .
١٢ - سرّ تأخر العرب والمسلمين.
١٣ - هموم داعية، وخاصة الفصول التالية : فصل : (هم بنو إسرائيل فبنو من نحن)، فصل : (أحوالنا العامة قبل الهزائم التاريخية الكبرى)، (حقائق خفية)، (من جوانب انهيار المسلمين الحضاري).
١٤ - الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر.
١٥ - حصاد الغرور (حول نكبة ١٩٦٧م).
١٦ - جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج .
١٧ - تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل.
١٨ - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين.
١٩ - خطب الشيخ محمد الغزالي .

- ومع ذلك فبقية تراثه لا يخلو من إشارات وإلماعات إلى قضايا تاريخية تتصل بالتاريخ الإسلامي و بالتاريخ الإنساني كله.

رحم الله الشيخ الغزالي ... الداعية الكبير، والمربي العظيم، ومفسر التاريخ الرائد ، والمعلم الغيور النابه لشعوب إسلامية كثيرة... ولعمالقة لا يحصون... وجزاه الله عن الإسلام وأمته خير الجزاء.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيـداع: ١٣٦٨٨/ ١٩٩٨م

I.S.B.N:977-15-0246-8

هذا الكتاب

* إن طريق العقل المسلم طريق طويل ، وإن على هذا العقل أن يتخلى عن سكونه وتقليديته، وأن يرتبط فى الوقت نفسه بأصوله الفكرية وبمنهجه الإسلامى، انطلاقا من الأصلين الثابتين ؛ الكتاب والسنة .

* وهذا الكتاب متابعة نقدية لبعض ما قدمه « العقل المسلم » فى العصر الحديث ، وهو يصارع عديدا من التيارات والمفاهيم الزاحفة ، وهى متابعة حاولتْ أن تمد الطرف إلى أكثر من بقعة من بقاع العالم الإسلامى .

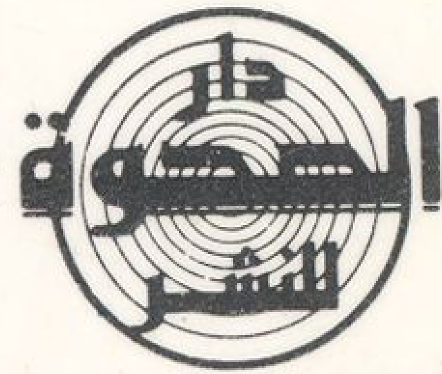
* وقد رصد الكتاب بعض المعالم البارزة فى هذا الفكر ، ومن خلال هذا الرصد الذى تقدمه هذه الدراسة يستطيع القارئ أن يستنبط المؤشرات الأساسية والدلالات البارزة فى مسيرة العقل المسلم من خلال مرحلة الصراع الفكرى !!

* وكان منهج المؤلّف الدكتور عبد الحليم عويس وفقه الله الذى اعتمده يقوم على الانتقاء ، وعلى رصد أبرز التحديات الفكرية وموقف العقل المسلم منها ، كما ألمح إلى معالم الطريق الصحيح الذى يجب أن يلتزم به العقل المسلم وهو يحاول بناء قواعد فكرية إسلامية رشيدة ، تصلح للهجوم والدفاع معا .

* وقد عرض الباحث فى، دراسة تعريفية وتقويمية لأبرز الرموز التى مَثَّلَتْ العقل المسلم فى هذه المرحلة، من أمثال: بديع الزمان النورسى، وعبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد الغزالى، والشيخ أبى الحسن الندوى، وغيرهم من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر .

* ويسر الناشران أن يقدمان هذا الكتاب إلى القراء الكرام ، سائلين الله عز وجل أن ينفع به ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الناشران



دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

مدينة الهدى ـ حدائق حلوان ـ القاهرة

ت: ٣٦٩٠٠٧١



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠

ت: ٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣